دكتور عبد الغني عبود

الأسرة المسلمة
والأسرة المعاصرة

الإسلام وتحديات العصر

الكتاب الثامن

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربي



الاسلام وتحديات العصر

الكتاب الثامن

الأسرة المسلمة
والأسرة المعاصرة

تأليف
دكتور عبد الغني عبود
كلية التربية جامعة عين شمس

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

الطبعة الأولى
يونيـــة ١٩٧٩

بسم الله الرحمن الرحيم

ـ « سبحان الذى خلق الأزواج كلهـا ، مما تنبت الأرض ، ومن أنفسهم ، ومما لا يعلمون »

(قرآن كريم : يس ـ ٣٦ : ٣٦).

* * *

ـ « ومن آياته ان خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليهـا ، وجعل بينكم مودة ورحمة ، أن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون »

(قرآن كريم : الروم ـ ٣٠ : ٢١) .

* * *

ـ « يأيهـا النبى قل لأزواجـك : ان كنتن تردن الحيـاة الدنيـا وزينتها ، فتعالين امتعكن وأسرحكن سراحا جميـلا . وان كنتن تردن الله ورسـوله ، والدار الآخـرة ، فـان الله أعد للمحسـنات منكن اجرا عظيما »

(قرآن كريم : الأحزاب ـ ٣٣ : ٢٨ ، ٢٩) .

الفهرس

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه السلسلة

ليست هـذه السلسلة سلسلة دينية بالمعنى التقليدى ، كما يبدو للوهلة الأولى من عنوانها ، وإن كان الدين الإسلامى يعتبر محورها الأساسى .

ولقد كان الدافع إلى إصدار هذه السلسلة ، بعيداً كل البعد عن الدين ، قريباً كل القرب من العلم الخالص ... فى مجال التربية ، الذى تخصصت فيه ، وحوله تدور قراءاتى ودراساتى ، وما أقوم به من أبحاث .

وصحيح أن الدين ليس حكراً على متخصصين فيه ، كما هو الحال فى الكيمياء والطبيعة والصيدلة والهندسة والأدب واللغة والتربية ، ولكن المتخصصين فيه - بالضرورة - أقدر على العطاء ، وغير المتخصصين فيه لابد أن يكون عطاؤهم أقل ، وبجهد أكبر .

ويعود الدافع إلى إصدار هذه السلسلة ، إلى سنوات خلت ، حيث كان يضمنا (سمنار) الدراسات العليا بكلية التربية جامعة عين شمس ، وأراد أحد الدارسين تسجيل رسالة عن (التربية الإسلامية) ، يحصل بها على درجة الماجستير فى التربية ، وهالنى رد أحد الزملاء - الأساتذة - عليه - بأنه لا يوجد - للأسف - تربية إسلامية .

ولم يكن بين يدى الرد ليلتها على الزميل ، ولا قدرة - بالتالى - على مناصرة الطالب ، ومن ثم أمسكت عن الرد ، حتى يكون بين يدى الدليل .

ورجعت إلى ما كتب عن (التربية الإسلامية) ، فى الكتب والمجلات العلمية ، فلم أجد فيما كتب متصلا بالتربية الإسلامية ، سوى .. العنوان ، رغم أن بعض ما قرأته ، كان لمفكرين إسلاميين .. كبار .

وكان على أن أعتمد على الله وعلى نفسى ، فى التصدى لهذه المغالطة العلمية ، التى يقول بها بعض رجال التربية عن جهل ، ويسكت عنها البعض الآخر عن قصور .

وجمعت المادة العلمية فيما يزيد على عام كامل ، وبدأت أنظم هذه المادة ، وكتبت - بالفعل — على أساسها — كتاباً متكاملا عن (الأيدلوجيا والتربية ، فى الإسلام) ، ولم يكن ينقصه سوى أن يدفع به إلى المطبعة ، ليرى - بعدها - النور ، ويبث - بعدها - نور الحقيقة ، فى قلوب الجاهلين بها ، والمتغافلين لها .

ثم عدت إلى نفسى ، وقلت لها : ولكن المسئولية أمام الله أكبر من هذا الجهد الذى بذلته ، فقد كان لا بد — فى نظرى — من مزيد من البحث .

وقلت لنفسى أيضاً : ولكن هذا الجهد الذى بذل كبير ، وهو جدير بأن يرى النور .

واستقرت نفسى على أن ألخص هذا الذى كتبته ، فى ستين صفحة ، نشرت تحت نفس العنوان ، فى المجلد الثالث من (الكتاب السنوى ، فى التربية وعلم النفس) ، الذى صدر مع مطلع سنة ١٩٧٦ .

ثم استقرت — بعد ذلك — على نشر هذا المقال ، مع مقالين آخرين ، ظهرا فى مجلات علمية أخرى ، عن (التربية الإسلامية) ، فى كتاب يصدر قريباً ، تحت عنوان (مقولات فى التربية الإسلامية)(١) ، نظرا لأن كل

---

(١) تم طبع الكتاب الآن بالفعل ، ونشرته دار الفكر العربى ، فى منتصف سنة ١٩٧٧ ، مع تغيير محدود فى العنوان ، بحيث صار (فى التربية الاسلامية) فقط ، ومع تغيير محدود أيضا فى المحتويات . فقد ضمت الى المقالات — أو المقولات — السابقة ، مجموعة مقالات ، سابقة ولاحقة ، بحيث تكون المقالات — مجتمعة — دراسة متكاملة ، تبدأ بمدخلين ، عقائدى وأيديولوجى ، وتنتقل الى التربية الاسلامية ، كفلسفة نظرية ، ثم تختتم بالواقع الراهن للتربية فى البلاد الاسلامية اليوم ، مع تحليل هذا الواقع ، والقاء نظرة مستقبلية عليه .

مقال من المقالات الثلاثة ، قد صدر — حينما صدر — مليئاً بالأخطاء المطبعية ، التي أفسدت المعنى الذي كنت أريده ، في بعض المواقف ، إفساداً .

واستقرت نفسي — قبل ذلك وبعده — على أن أعمق مفهومي عن الإسلام ، وعن (الشخصية القومية الإسلامية) ، فهي المنطلق الحقيقي للحديث — الصادق — عن (التربية الإسلامية) .

ذلك أننا ندرس نظام التربية في أي مجتمع ، في ضوء (الشخصية القومية) لذلك المجتمع ، وبدون تلك (الشخصية القومية) ، يكون نظام التربية — في نظرنا — نحن رجال التربية — معلقاً في الهواء .

وفي ضوء تلك (الشخصية القومية) ، درست — وتدرس — التربية في البلاد الرأسمالية عموماً ، وفي كل بلد منها ، كما تدرس التربية في البلاد الشيوعية عموماً ، وفي كل بلد منها .

وفي ضوئها كذلك ، درست — وتدرس — التربية المسيحية ، والتربية اليهودية .

أما التربية الإسلامية .. فلم تجد — حتى الآن — في حدود علمي — من درسها هذه الدراسة العلمية المنهجية .

ومن ثم كان هناك من يقول ، بأنه لا توجد تربية إسلامية ، لأن الشخصية الإسلامية اليوم ، شخصية ، لا هي إلى الإسلام تنتمي ، ولا هي عن الإسلام تعرف الكثير ، ومن ثم صارت تلك الشخصية شراً على الإسلام ، وخطراً عليه ، أكبر من الشر والخطر ، الذي يستطيعه أعداء الإسلام أنفسهم .

ومن ثم فالشخصية القومية الإسلامية المعاصرة ، لا يمكن أن تكون هي المدخل الصحيح لفهم التربية الإسلامية ، وإنما المدخل الصحيح لها ، هو تلك الشخصية القومية الإسلامية ، في عصور الإسلام الأولى .

ولو عاد المسلمون إلى فهم الإسلام من جديد ، كما يجب أن يفهم ، لعادوا إلى أنفسهم ، ولعادت إليهم قوتهم وعزتهم .. وحضارتهم ، خاصة وأن الدراسة التي قمت بها ، أكدت لي أن الإسلام قادر على مواجهة (تحديات العصر) ، وأن المسلمين — بالإسلام — قادرون على مواجهة تلك التحديات ، وأنهم — بدونه — عاجزون .

ومن ثم يكون الهدف من السلسلة .. تربويا خالصاً .

ولكنه هدف .. ديني أيضاً .

فالمسلمون اليوم ، بفعل عوامل متعددة ، لا يعرف الكثيرون منهم عن الإسلام الكثير ، وهم يعرفون عنه ما يعرفه غيرهم لهم ، لا ما يجب أن يعرفوه بأنفسهم ، من مصادره الصحيحة : الكتاب والسنة .

بينما هم يعرفون عن النظم والفلسفات المعاصرة .. ذات البريق — الأخاذ — الكثير والكثير .. لأن غيرهم أراد ذلك لهم .. بفعل عوامل متعددة كذلك .

والوظيفة الرئيسية لهذه السلسلة ، هي : أن تضع الإسلام — بجوانبه المتعددة — وجهاً لوجه — أمام النظم والفلسفات المعاصرة ... لنرى : أيها أقدر على مواجهة تحديات العصر ؟

وعندما يكتشف المسلم ، أن إسلامه هو القادر على مواجهة تحديات العصر ، وأن الفلسفات والنظم المعاصرة ، إن هي ألوان من العلاج مؤقتة .. مفلسة ، فإنه — لا بد — سيعود إلى نفسه ، ويصالح دينه ، ويقرأ عنه ، ويقف على ما فيه .. وقوفه على ما في الفلسفات المستوردة ، ذات البريق الأخاذ .. الخادع .

وعند هذا الحد ، تقف رسالة السلسلة .

ومن هنا قلت وأصررت ، على أنها ليست سلسلة دينية بالمعنى التقليدى .

ومن أراد الدين بالمعنى التقليدى ، فكتبه معروفة ، وكتابه معروفون .

ولكن المسلمين الذين أكتب هذه السلسلة لهم ، ليسوا مستعدين — منذ البداية — لأن يضيعوا وقتاً فى قراءة تلك الكتب الدينية ، وفى القراءة لهؤلاء الكتاب المعروفين ، لأن الإسلام — كما فهموه — لا يصح أن يضيعوا فيه وقتاً ، يضيعون أكثر منه ، فى المذاهب ذات البريق.. الخداع .

وبعد اتضاح معالم (الشخصية القومية) الإسلامية ، مقارنة بمعالم (الشخصيات القومية) الأخرى ، التى نراها فى ظل الأيديولوجيات المعاصرة ، من زوايا عديدة . . وذلك خلال هـــذه السلسلة ، سوف أعود من حيث بدأت ، فألخص ما وصلت إليه ، وأتخذ منه منطلقاً للحديث عن (التربيـة الإسلامية) .

والجهد الذى يجب أن يبذل فى إعداد هذه السلسلة كبير ، والجهد الذى يجب أن يبذل — بعدها — فى الحديث عن (التربية الإسلامية) كبير . . ولكن الهدف الذى تحققه السلسلة ، والدراسة الخاصة بالتربية الإسلامية — بعدها — فى نظرى — أكبر وأعظم ، وفى سبيله تهون الصعاب ، وعلى الله قصد السبيل ؟

دكتور عبد الغنى عبود

القاهرة فى : جمادى الأولى ١٣٩٦ هـ .
مايـــو ١٩٧٦ م .

وهذا الكتاب ... الثامن

كان كل كتاب سبق من كتب السلسلة ، يستغرق — فى جمع مادته العلمية وتبويبها ، وكتابته ما بين ثلاثة أشهر ، وستة أشهر .

وكان اختصار المدة إلى ثلاثة أشهر مثلا ، يعطينى فسحة من الوقت ، أعد فيها الكتاب التالى ، أو كتابين تاليين ، إذ أننى تعودت أن يكون لدى دائماً (رصيد) من هذه السلسلة ، ولكن هذا الكتاب الثامن ، كان على النقيض من الكتب السابقة كلها ، فقد قطعت الكتابة فيه مرة ، لأكتب الكتاب السابع ، حين لمست ضرورته ، فى أثناء كتابة الفصل الثالث من هذا الكتاب ، كما تركته برمته بعد ذلك أربعة أشهر كاملة ، قضيت فيها عطلة الصيف ، وعدت لأكتب سلسلة من الدراسات ، طلبت منى لجهات مختلفة ، ثم عدت لأبدأه من جديد ، كما لو كنت أبدأ الكتابة فيه لأول مرة .

وليس من عادتى أن أكتب كتاباً ، أو دراسة ، أو مقالا .. وأتركه إلى غيره ، قبل أن أنتهى منه ، مهما كانت الظروف .. وإنما اضطررت إلى ذلك ، فى هذا الكتاب الثامن ، لما قابلته فيه من مصاعب ومتاعب ، تعود — فى جملتها — إلى أن الموضوع — بأى مقياس — أكبر من أن يتناول فى مثل كتاب من كتب هذه السلسلة ، ذات الحجم المحدود بطبيعتها ، يضاف إلى ذلك أنه موضوع شائك بطبعه ، وهو يحتاج إلى وفرة غير عادية فى المعلومات ، الدينية والطبية والاجتماعية والقانونية ، لم تتوفر لى بسهولة ، كما حدث فى معظم كتب السلسلة السابقة .

ولقد قرأت العديد من الكتب والمراجع ، التى تتصل بهذا الموضوع ، من قريب أو من بعيد ، ولكن (النمط الواحد) ، الذى يكاد يصبغ هذه الكتب جميعاً ، سواء فى ذلك الكتب التى تتناول القضية من منظور دينى ، والكتب التى تتناولها من منظور مدنى أو دنيوى ، والكتب التى تتناولها من

منظور قانونى ، أو اجتماعى ، أو ما إلى ذلك ، فلكل منظور منها أسلوبه ، وهذا الأسلوب يطبع الكتب التى تعالج من خلاله ، بطابع واحد تقريباً .

وكان يعيب هذه الكتب جميعا — فى نظرى — ذلك (النمط الواحد) ، الذى تعالج به ، بشكل صار مألوفا معه ، أن نرى (التكرار) فى هذه الكتب ، أمراً مألوفا .

وكان على أن أبحث عن (أسلوب) جديد ، أدخل منه إلى القضية .

ولعل ذلك هو الذى جعلنى (أتوقف) أكثر من مرة كما سبق ، ولكننى — فى النهاية — سعيد بما ضيعته من وقت ، سواء فى القراءة ، أو فى جمع المادة العلمية ، أو فى معالجة القضايا ، بشكل لم يعجبنى مرة ، وأعجبنى مرة أخرى .. حتى وصل — بالفعل — إلى كماله — فى نظرى — كما هو مطروح الآن لقارئه .

ولقد جرت عادة الكتب الدينية ، التى تعالج هذه القضية (قضية الأسرة) ، على أن تبدأ علاجها لها ، بتوضيح أن الأسرة من نعم الله الكبرى على الإنسان ، وبسرد الأدلة والبراهين على ذلك كله ، معتمدة فى توضيحها وسردها ، على ما ورد فى القرآن الكريم ، من آيات تتعلق بالقضية ، وعلى ما ورد فى الحديث الشريف ، من أحاديث تدور حولها .

ثم تنتقل هذه الكتب الدينية من هذه النعم ، إلى بيان واجبات الزوج نحو زوجته وأبنائه ، وواجبات الزوجة نحو زوجها وأبنائها .

ثم تنتقل — بعد ذلك — إلى الطلاق ، وتعدد الزوجات ، وغيرها ، وغيرها ، معتمدة على (سرد) ، ما ورد متعلقا بكل منها ، من آيات قرآنية ، وأحاديث نبوية .

ومثل هذه المعالجة ، أشهد بأنها مطلوبة ، وواجبة ، فى وقت صار القانون فيه قانونا مدنيا فى بلاد المسلمين ، وصار التعليم تعليما علمانيا ، لا يعرض لمثل هذه القضايا الإسلامية ، التى تهم كل مسلم ومسلمة .

ومع ذلك ، فقد وجدتنى مضطرا إلى تجنب مثل هذه المعالجة ، لأسباب ،

منها أنها مكررة ، وأنا — بطبعى — أنفر من التكرار ، وأنشد الجديد والتجديد ، حتى لو خانني الحظ فيه ، ومنها أن إعدادى المدنى فى التعليم ، لم يكن مساعداً لى على أن أفعل كما يفعلون ، لأن رصيدى من هذا الكلام محدود ، وما أضطر إلى الحصول عليه منه ، أحصل عليه بشق النفس — يعلم الله ، ولأنى إذا أردت أن أقتفى آثارهم ، فإن على أن (أنقل) من غيرى ، أو (أسرق) من هـذا الغير ، مع (تلفيق) للكلام ، ليبدو كلام الغير كلامى ، وما كانت هذه أخلاقياتى فى الكتابة عموما ، وقد تعودت أن أشير فى هامش كل صفحة ، إلى مصدر أفكارى ، فهكذا الأمانة العلمية كما تعلمتها ، وهكذا أخلاق الإسلام كما أعرفها .

يضاف إلى ذلك ، أن مثل هذه المعالجة ، تخرج على الخط العام للسلسلة ، وهو إظهار أن الإسلام — فى كل قضية من قضاياه — قادر على مواجهة (تحديات العصر) ، بل إنه أقدر من غيره ، على مواجهة هذه التحديات .

ومن ثم كانت المعالجة العقلانية ، أو المعالجة العلمية ، هى المناسبة .

والمعالجة العلمية تفرض أن يوضع كل شىء (تحت المجهر) ، ليفحص من جديد ، بلا قيد مسبق ، وبلا تحيز مسبق لوجهة نظر ضد أخرى .

وكان هـذا هو النهج الذى نهجته فى هذا الكتاب الثامن ، ومن أجله ، أعيد ترتيب الأفكار ، بما يحقق الهدف ، وبرزت إلى السطح أمور ، لم نتعود أن نراها تبرز عند الحديث عن الأسرة ، واحتلت أمور أخرى منزلة ثانوية ، وكنا قد تعودنا أن نراها تبرز على السطح ، عند هذا الحديث .

وأرجو أن أكون بهـذه (المعالجة الجديدة) ، قد وفقت فى إبراز ما أردت — منذ البداية — إبرازه ، وأن يقع هذا الكتاب — الثامن — من نفس قارئه ، موقعاً مناسبا لما بذل فيه من جهد ، وأن يجعل الله هذا العمل مقبولا عنده ، فمنه — وحده — سبحانه — أرجو حسن الجزاء ؟

القاهرة فى : — رجب ١٣٩٩ هـ .
— يونية ١٩٧٩ م .

دكتور عبد الغنى عبود

الفصل الأول

معنى الأسرة

تقـــديم :

ربما بدا هذا العنوان ، المختار لهذا الفصل الأول من الكتاب ، للوهلة الأولى ، غريبا ، على أساس أن (معنى الأسرة) معروف ، لا يحتاج إلى إشارة أو توضيح ، أو تضييع وقت .

ولقد بدا لى ذلك أول الأمر بالفعل ، حتى تأكدت من أهمية البدء به .

ذلك أنى تعودت عند الشروع فى كتاب ، أن أخطط له ، وأن أعمل على الوقوف على مختلف الجوانب المتصلة به ، ومن بينها الجانب اللغوى بطبيعة الحال ، لأجد — من خلال هذه الجوانب — الجانب المناسب ، الذى أستطيع أن أقتحم منه ، مجاهل الدراسة كلها .

وبدأت التخطيط لهذا الكتاب ، ورحت أدور حوله ، على عادتى مع كتبى .

ولفت نظرى — فى جولتى مع المعاجم اللغوية المختلفة — أن لكلمة (الأسرة) معنيين ، أحدهما هو المعنى القريب ، الذى يتعارف عليه الناس جميعاً ، فى شتى أنحاء الأرض ، والثانى هو المعنى البعيد ، الذى دفعنى إلى اختيار عنوان هذا الفصل .

وفى الوقت الذى تتفق فيه معاجم اللغات على المعنى القريب ، نجدها

تختلف فى المعنى البعيد ، الذى يعد — فى الواقع — أصل هـذا المعنى القريب ، كما سنرى ، وهذا الاختلاف يصل إلى حد التناقض .

ويقف وراء هـذا الاختلاف ، الذى يصل إلى حد التناقض ، ظروف اجتماعية كثيرة ، سنراها من خلال فصول هذا الكتاب .

وربما لفت النظر ، أن التناقض ، فى هـذا المعنى البعيد (للأسرة) ، قائم فعلا ، بين مجموعتين كبريين من اللغات ، هما مجموعة اللغات الشرقية ، ومجموعة اللغات الغربية .

ومن ثم كان مناسباً أن نستعرض معنى كلمة الأسرة ، فى اللغة العربية ، كممثل للغات الشرق ، وفى اللغتين الانجليزية والفرنسية ، كممثل للغات الغرب .

المعنى الشرقى للأسرة :

لو استعرضنا معاجم اللغة العربية — على سبيل المثال — لوجدنا أن (الأسرة) مشتقة — فى أصلها — من (الأسر) .

و (الأسر) — لغة — يعنى « القيد » . يقال : « (أسره) — أسراً وإساراً : قيده ، و (أسره) أخذه أسيراً »(١) .

ويشير الرازى إلى (أصل) كلمة الأسر هذه ، فيقول : « (أسر) قتبه ، من باب ضرب : شده بالإسار ، بوزن الإزار ، وهو القد ، ومنه سمى (الأسير) ، وكانوا يشدونه بالقد ، فسمى كل أخيذ أسيراً ، وإن لم يشد به »(٢) .

---

(١) المعجم الوسيط — قام باخراجه : ابراهيم مصطفى وآخرون — وأشرف على طبعه : عبد السلام هارون — الجزء الأول — مجمع اللغة العربية — ١٣٨٠ هـ — ١٩٦٠ م ، ص ١٧ .

(٢) مختار الصحاح ، للشيخ الامام ، محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازى — شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر — ١٣٦٩ هـ — ١٩٥٠ م ، ص ٢٧ .

فأصل الأسر ، هو القيد برباط ، ثم اتسع معناه ، فصار يشمل أى قيد فيما بعد ، برباط ، أو بدون رباط .

وقد يكون هـذا القيد أو الأسر ، طبيعياً ، لا فكاك منه ، كما نرى فى حالة الخلق ، حيث يولد الإنسان أسيراً لمجموعة من الصفات الفسيولوجية ، كالطول والقصر ، والنحافة والامتلاء ، ولون البشرة والعينين ... إلخ . ولذلك يقال :

« (أسره) الله ، خلقه ، وبابه ضرب ، و (شددنا أسرهم) ، أى خلقهم »(١) ، أو « شد الله أسره : أحكم خلقه »(٢) .

وقد يكون هذا القيد أو الأسر ، صناعياً أو مصطنعاً ، كأسر عدو فى معركة حربية مثلا ، حيث كان قبل الأسر حراً ، وقد يعود إلى حريته مرة ثانية ، بعد فترة .

كذلك قد يكون هـــذا القيد أو الأسر ، أسراً إجبارياً ، لا فكاك للإنسان منه ، كما نرى فى المعنيين السابقين للأسر ، وقد يكون أسراً اختيارياً ، يرتضيه الإنسـان لنفسه ، بل ويسعى إليه ، لأنه بدونه يكون مهدداً .

ومن هذا (الأسر) الاختيارى ، اشتقت الأسرة ، موضوع الكتاب ، حيث نجد « الأسرة : الدرع الحصينة ، والأسرة أهل الرجل وعشيرته ، والأسرة الجماعة ، يربطها أمر مشترك »(٣) .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢٧ .
(٢) المعجم الوسيط ــ الجزء الأول (المرجع الأسبق) ، ص ١٧ .
(٣) المرجع السابق ، ص ١٧ .

فالأسرة — بمعناها القريب — لون من ألوان الأسر أو القيد ، إلا أنه أسر اختيارى، يسعى إليه الإنسان، لأنه يجد فيه (الدرع الحصينة) ، ويتحقق له — من خلاله — (الصالح المشترك) ، الذى لا يتحقق للإنسان بمفرده ، دون أن يضع نفسه — اختيارياً — فى هذا الأسر ، أو القيد .

ولذلك — أيضاً — نجد « (أسرة) الرجل ، رهطه ، لأنه يتقوى بهم » (١) .

وفى الوقت الذى نجد أصل (الأسرة) فى اللغة العربية ، وفى غيرها من اللغات الشرقية ، هو (القيد)، بكل ماتحمله هذه الكلمة من ظلال وإيحاءات نفسية ، توحى (بالعبء) الملقى على الإنسان ، ومدى (ثقل) هذا العبء — نجد الأسرة فى الإسلام ، لا تحمل هذا المعنى على الإطلاق .

ومن ثم لم ترد كلمة (الأسرة) إطلاقاً — بهذا اللفظ — فى القرآن الكريم، وإنما نجد كتاب الله المحكم ، يستخدم كلمة (الأهل) ، بمعنى الأسرة هذا .

ذلك أن اعتبار (الأسرة) قيداً ثقيلا ، يثقل كاهل الإنسان ، ويشل حركته ، أمر يليق بأعراب بدائيين جاهليين قساة غلاظ ، يؤثرون الحرية والانطلاق ، ويحبون — فى سبيلهما — التحرر من كل قيد .

ولقد كانت النظرة إلى هذه الأسرة ، مناسبة للحياة البدائية فى الشرق قبل الإسلام ، ولكنها لم تعد بعده مناسبة ، لأنه لا حرية بلا مسئولية ، كما يقول فقهاء السياسة ، وإنما الحرية قرين المسئولية ، وعلى قدر المسئولية ، تكون الحرية، وإلا تحولت الحياة إلى غابة، تليق بالحيوان، ولكنها لا تليق بالإنسان .

---

(١) مختار الصحاح (المرجع الأسبق) ، ص ٢٧ .

ومن ثم لم يدع القرآن الكريم لفظ (الأسرة) ، ويستخدم مكانها لفظ (الأهل) ، عبثاً ولهواً ، وإنما لحكمة أرادها الله سبحانه — سنراها فى الفصل الأخير من الكتاب .

إن الأسرة — فى المنظور الإسلامى — ليست قيداً وعبئاً ، وإنما هى (حتمية) نفسية ، كنا سنرى فى الفصل التالى من الكتاب ، ومن ثم كان مناسباً أن يعبر عنها (بالأهل) ، لا (بالأسرة) .

ذلك أن (الأسرة) مشتقة من الأسر والقيد كما سبق ، ومن ثم فهى توحى بالثقل ، وتدل على الضيق والتبرم ، وليست الأسرة - فى الإسلام - قيداً ، وإنما هى راحة نفسية ، وسكينة ، وطمأنينة ، بدونها لا يستطيع الإنسان أن يحيا حياة إنسانية حقة ، وإنما هو يحيا حياة أقرب إلى حياة الحيوان . (فالأهل) - فى اللغة العربية - مشتق من الفعل (أهل) ، على وزن (رضى) ، بمعنى « أنس »(١) — أى استراح وهدأ واطمأن — يقال : « (آنسه) موانسة : لاطفه وأزال وحشته »(٢) .

إلا أن الراحة النفسية والسكينة والطمأنينة ، أمور لاتنال بمجرد التمنى، وإنما هى تنال بقدر مايبذل المرء - فى سبيلها - من أعباء ، وما يتحمله - من أجلها — من مسئوليات .

ومن ثم كانت (الأهلية) أيضاً بمعنى (المقدرة) ، يقال : استأهل الشىء ، بمعنى « استوجبه واستحقه » ، و « أهل الشىء: أصحابه » ، « ويقال : هو أهل لكذا : مستحق له » — « والأهلية للأمر : الصلاحية له » (٣) .

---

(١) المعجم الوسيط — الجزء الأول (المرجع الأسبق) ، ص ٣١ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٢٩ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٣١ .

ومن هذه الزاوية أيضاً ، تسمى الزوجة أهلا ، فيقال : أهل « فلانة : تزوجها » ، و « (الأهل) الأقارب والعشيرة . والأهل الزوجة » (١) .

ذلك أنه ليس كل (رجل) قادراً على أن يكون (زوجاً) ، لأن الزواج يتطلب مؤهلات ، جسدية ومادية ونفسية وعقلية وخلقية . . لا يقدر عليها كل إنسان ، ومن ثم كان القادر عليها ، أهلا لها .

وهكذا ، نجد أن الإسلام ، عندما يعدل (مسار) الأسرة على هذا النحو ، إنما يضع الأمور حيث يجب أن توضع ، فيجعل الأسرة مسئولية من مسئوليات الإنسان ، إلا أن الإنسان يقبل هذه المسئولية عن رضا وطواعية ، بحثاً عن الراحة والسكينة والطمأنينة ... كمطلب إنساني عزيز .

فهو (تعديل) حدث ، لتناسب الأسرة (الطبيعة) الإنسانية ، أو (فطرة الله) ، التي فطر الناس عليها ، وليس تعديلا من أجل التعديل وحده .

وهكذا نجد (الأسرة) ، في التراث الشرقي ، قبل الإسلام وبعده ، تعني مسئوليات والتزامات ، ينهض بها الفرد ، نحو المجموع ، مقابل ما يحصل عليه هذا الفرد ، من وراء المجموع ، من مكاسب وامتيازات .

والأسرة — بهذا الفهم — بعيدة كل البعد ، عن المعنى الغربي للأسرة ، كما سنرى .

المعنى الغربي للأسرة :

في الوقت الذي تشتق فيه (الأسرة) في التراث الشرقي ، من (المسئولية) ، نجدها تشتق في التراث الغربي من مجرد (الألفة) ، أو (التعارف) .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣١ .

ويطلق على الأسرة فى اللغة الإنجليزية لفظ Familly ، وهى مشتقة - فى الإنجليزية - من كلمة Familliar ، بمعنى « معروف جيداً » ، أو « شهير »(١) .

وإذا كان (المحور) الأساسى للأسرة ، هو ما بين أفرادها من (معرفة)، أو (تعارف) ، فإن الأسرة بمعناها القريب ، تكون أسرة من هذا المنظور ، قبل أى شيء آخر، ولذلك لانجد لفظ الأسرة Familly فى اللغة الإنجليزية، يقتصر على الأسر الآدمية وحدها ، وإنما هو يمتد ويتسع، ليشمل كل جماعة، بين أعضائها مثل هذا التعارف — فنجد « الأسرة : مجموعة الأعضاء ، التى يضمها منزل واحد ، من آباء وأطفال وخدم »(٢) — أو نجد « (الأسرة) ، هى الأب والأم والأطفال - أو الأطفال من أبوين ، أو مجموعة من الناس، ينتسبون إلى أب واحد فى الماضى »(٣) — أو هى تعنى « العائلة - السلالة - القبيلة - الطائفة - الطبقة - النسب - رباط القرابة » (٤) .

وقد تكون هذه الأسرة - فى الغرب - « مجموعة حيوانات ، من أنواع

---

(1) The Concise Oxford Dictionary, of Current English, Edited by : H. W. FOWLER and F. G. FOWLER, based on : The Oxford Dictionary; Fourth Edition, Revised by : E. Mc Intosh, Oxford, at the Clarendon Press, 1951, p. 428.

(2) Ibid., p. 428.

(3) WEST, MICHAEL PHILIP and ENDICOTT, JAMES GARETH : The New Method English Dictionary; Revised Edition, with Illustrations, Longmans, Green and Co., London, 1947, p. 116.

(٤) قاموس النهضة ، فى اللغتين الانجليزية والعربية — وضعه : اسماعيل مظهر — راجعه : محمد بدران ، وابراهيم زكى خورشيد — الطبعة الأولى — مكتبة النهضة المصرية ، ص ٥٥١ .

مختلفة ، يضمها قفص واحد» (١) ،وقد تكون « الأسرة من الشجر »(٢).

وقد تتسع الأسرة – بعد ذلك – لتخرج تماماً ، عن معنى (الأسرة) القريب المعروف ، حيث نرى « الأسرة مجموعة أمم ودول متقاربة » (٣).

والفرد — فى هذه الأسرة الغريبة — إنساناً كان أو حيواناً أو نباتاً أو أمة ، يجد نفسه (مضطراً) إلى الارتباط بها ، لأن الأسرة هناك ، من « أسر : شد بالسير (أى بالإسار) » (٤) .

والفرد ـ فى هذه الأسرة ـ كما يبدو ـ مرتبط بأسرته ارتباط مصلحة ، وهو مستعد ـ كما يبدو ـ أن يغير ارتباطه هذا ، فى أية لحظة ، إذا ظهرت مصلحة جديدة ، أو إذا تغيرت الظروف من حوله . فلا (عواطف إنسانية) نبيلة ، وراء هذا (الارتباط) .

أما فى اللغة الفرنسية ، فإن الأسرة تسمى Famille ، وهى ـ كالكلمة الانجليزية ـ لا تقف عند حد الأسرة ، بل تتسع لتشمل أية أسرة ، (كالأسرة اللغوية) ، التى تعنى « الكلمات ، التى من أصل واحد » (٥) .

وأصل الكلمة الفرنسية Famille ، كأصل الكلمة الانجليزية Familly ، يعود إلى الألفة والمعرفة ، فهى ترتد إلى أصلها Famillier ،

---

(1) The Concise Oxford Dictionary of Current English; Op. Cit., p. 428.

(2) WEST, MICHAEL PHILIP and ENDICOTT, JAMES GARETH; Op. Cit., p. 116.

(3) The Concise Oxford Dictionary of Current English; Op. Cit., p. 428.

(٤) الياس انطون الياس ، وادوار ا. الياس : القاموس العصرى ، عربى / انكليزى — الطبعة التاسعة — المطبعة العصرية — ١٩٧٠ ، ص٣٠ .

(5) SAISSE, LOUIS et CHEHATA, ISKANDAR : Vocabulaire Francais-Arabe; Longman, Green and Co. Ltd., London, 1951, p. 151.

بمعنى « أنيس — مألوف » (١) .

وقد يكون هذا « الأنيس المألوف » ، قطة أو كلباً ، وقد يكون زوجة أو ابنة أو ابناً .

ولم يكن غريباً ، أن تحتل الكلاب — على سبيل المثال — فى المجتمعات الغربية المعاصرة ، منزلة فى حياة الزوجات ، تفوق منزلة الأزواج ، وأن تحتل القطط — مثلا — فى نفس المجتمعات ، منزلة فى حياة الأزواج ، تفوق منزلة الزوجات . ذلك أن الكلب يعاشر الزوجة ويعايشها ، أكثر مما يعاشرها ويعايشها زوجها ، الذى تجرفه الحياة بعيداً عن المنزل ، فترة طويلة ، بحيث لا يأتى إلى المنزل إلا لينام ، من شدة الإجهاد والتعب .

وطالما كان الزوج عائداً إلى البيت لينام ، فإن زوجته لاتهتم به ، وإنما تهتم به قطته ، التى تقبل عليه هاشة ، تخفف عنه تعب اليوم ، بموائها ، وهزها لذيلها ، وتمسحها به .

وهكذا نجد أن (الأسرة) ، فى التراث الغربى ، لا تدل على شىء من (الارتباط) و (التفاعل) ، ولا توحى بشىء من (تحمل المسئولية) ، حتى ولو كان تحملا فيه شىء من الجبر والإلزام ، لهذه المسئولية ، مثلما تدل على ذلك وتوحى به تلك الأسرة ، فى التراث الشرقى .

وقد كانت دلالة الكلمة هنا ، ودلالتها هناك ، مشتقة من ظروف حياتية هنا ، تختلف عن تلك الظروف الحياتية هناك ، ثم كان لهذه الدلالة — بعد ذلك — تأثير واضح فى المسار التاريخى هنا ، يختلف اختلافاً كبيراً ، عن تأثيرها فى المسار التاريخى هناك .

---

(1) Ibid., p. 151.

ولنتتبع هذه الظروف الحياتية هنا وهناك .. أولا .

الظروف الحياتية والأسرة :

لا يقف تأثير البيئة التي يعيش فيها الإنسان ، عند حد الأسرة وحدها ، وإنما يتعداها ، ليشمل كل شيء يتصل بهذا الإنسان .

ومن قديم ، تنبه الدارسون والباحثون ، إلى تلك (العلاقة العضوية) القائمة بين الإنسان وبيئته ، أي بين الإنسان ، والظروف الحياتية التي يعيش فيها ، فقد لاحظ العلامة العربي ، عبد الرحمن بن خلدون (٧٣٢—٨٠٨ هـ = ١٣٣١ — ١٤٠٥م) ، من قديم ، أن أهل الصحراء ، « في شظف العيش ، مثل أهل الحجاز ، وجنوب اليمن ، ومثل الملثمين من صنهاجة ، الساكنين بصحراء المغرب ، وأطراف الرمال ، فيما بين البربر والسودان » ، « إنما أغذيتهم وأقواتهم الألبان واللحوم ، ومثل العرب أيضاً ، الجائلين في القفار » ، « أحسن حالا في جسومهم وأخلاقهم ، من أهل التلول ، المنغمسين في العيش ، فألوانهم أصفى ، وأبدانهم أنقى ، وأشكالهم أتم وأحسن ، وأخلاقهم أبعد عن الانحراف ، وأذهانهم أثقب في المعارف والإدراكات » (١) .

وهذا الذي لاحظه ابن خلدون ، منذ أكثر من خمسة قرون ، لا زال العلماء المحدثون يلاحظونه ، فهم يلاحظون أن « طقس البلد ، يتحكم في مصادره الطبيعية ، كما يتحكم إلى حد كبير ، في أعمال الناس وتوزيع السكان ، وفي نفسيات الناس ، وطريقة حياتهم » (٢).

---

(١) العلامة عبد الرحمن بن خلدون : المقدمة ، من كتاب العبر ، وديوان المبتدأ والخبر ، في أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر — المطبعة الشرفية — ١٣٢٧ هـ ، ص ٩٨ .

(2) JAMES, ALOUZA : Commerce, Stage I, An Introductory Textbook on Business Economy; Ninth Edition, Sir Isaac Pitman & Sons, Ltd., London, p. 14.

وإلى الظروف الجغرافية والطبيعية ، القاسية فى برودتها ، فى أوربا ، فى مقابل الدفء والحرارة فى أفريقيا وبلاد الهند ، يعزو جروف ساموبلى داو ، تلك الموجات البربرية القادمة من الشمال ، إلى كل منهما ، كما يشهد بذلك التاريخ (١) .

وإلى هذه الظروف أيضاً ، يعزو المرحوم عباس العقاد ، غلبة النزعة الفلسفية على بلاد كبلاد الإغريق ، وغلبة النزعة العلمية العملية ، على البلاد ذات الحضارات القديمة ، كمصر والعراق ، «فالهند ومصر وبلاد ما وراء النهرين ، وبلاد الدولة الرومانية ، كانت على درجة عالية من الحضارة ، وعلى حظ وافر من العلوم والصناعات ، ولكنها لم تتسع لشيوع الفلسفة ، كما اتسعت لها بلاد اليونان ، فى عصر من عصورها ، قبيل ميلاد المسيح ، وهى مع ذلك لم تبلغ من الحضارة والعلم والصناعة ، مبلغ البلاد ، التى قامت فيها الدول الكبرى ، وقل فيها شيوع الفلسفة ، ونبوغ الفلاسفة» .

«والغالب ، أن الدول الكبيرة ، وهى الدول التى تقوم عادة على الأنهار الكبيرة ، تستقر فيها سلطة دينية متوارثة ، كالسلطة السياسية ، وأن هذه السلطة الدينية ، تستأثر بمباحث العقيدة ، ومباحث ما وراء الطبيعة ، ولا تسمح لأحد بأن يزاحمها فى المعارف ، التى تتعلق بالأرباب ، وأسرار الخلق ، وأصول الحياة ، أو أصول الوجود كله على التعميم» (٢).

وعلى العكس من ذلك ، الدول الصغيرة ، التى لا توجد فيها دولة قوية ،

---

(١) جروف ساموبل داو : كتاب المجتمع ومشاكله (مقدمة لمبادىء علم الاجتماع) — ترجمة ابراهيم رمزى — المطبعة الأميرية ببولاق — ١٩٣٨ ، ص ١٧ .

(٢) عباس محمود العقاد : التفكير فريضة اسلامية — الطبعة الأولى — المؤتمر الاسلامى — دار القلم ، ص ٦٥ ، ٦٦ .

قادرة على فرض سلطتها السياسية على شعبها ، أو على فرض عقيدة دينية على هذا الشعب ، كبلاد اليونان .

بل إن التكوين الفسيولوجى للناس — فى نظر العلم الحديث — يتأثر — بالدرجة الأولى — بطبيعة الأرض ، مثلما نرى فى « فسيولوجية الإسكيمو ، وفسيولوجية السود ، الذين رحلوا إلى أمريكا ، رغم بعدهم عن بلادهم أكثر من ثلاثمائة سنة ، وفسيولوجية البيض ، الذين نزحوا إلى بيئات استوائية حارة ، وعاشوا فيها أكثر من أربعمائة سنة » (١).

ويعزو الطب الحديث ، ذلك التغير الفسيولوجى ، متأثراً بظروف البيئة ، إلى أن الله قد « خلق الإنسان من تراب الأرض ، ولهذا السبب ، تتأثر وجوه نشاطه الفسيولوجية والعقلية تأثراً كبيراً ، بالتكوين الجغرافى للبلد ، الذى يعيش فيه ، وطبيعة الحيوانات والنباتات ، التى يطعمها عادة . كذلك يتوقف بناؤه ووظائفه ، على اختياره لعناصر معينة ، من بين الأطعمة النباتية والحيوانية ، الموضوعة تحت تصرفه » (٢) .

كما يعزوه الطب الحديث ، إلى قدرة (أجهزته الداخلية) على (التكيف) ، لتناسب ظروف البيئة ، فقد لوحظ أن « الإنسان فى المناطق القطبية سمين ، مكتنز بالدهن ، تماماً مثل الدب والحوت ، ليقى نفسه غائلة البرد ، وهو فى المناطق الاستوائية الحارة ، نحيل هزيل أسود ، وكأنما اخترع لجلده مظلة ، تقيه الشمس » (٣) .

---

(1) HANS, NICHOLAS : Comparative Education, A Study of Educational Factors and Traditions; Routledge and Kegan Paul Limited, London, 1958, p. 63.

(٢) الكسيس كاريل : الانسان ، ذلك المجهول — تعريب شفيق أسعد فريد — مكتبة المعارف — بيروت — ١٩٧٤ ، ص ١٠٥ .

(٣) مصطفى محمود : لغز الحياة — الطبعة الخامسة — دار العودة — بيروت — ١٩٧٤ ، ص ٦٤ .

فلم يكن غريباً ، والحال هذه ، أن يختلف الإنسان ، وأن تختلف النظم الإنسانية ، من مكان إلى مكان ، تبعاً لاختلاف الظروف والأحوال الجوية خصوصاً ، أو الجغرافية على وجه العموم ، « فالأحوال الجوية كانت ولا تزال ، ذات تأثير عظيم ، في حياة الإنسان ، الاجتماعية والاقتصادية »(١) — وأن تكون من بين هذه النظم الإنسانية ، التي تختلف من مكان إلى مكان ، نظام الأسرة .

ولذلك يرى الدارسون ، أن البلاد الأنجلو سكسونية الباردة ، حيث « طبيعة الجزر والوديان ، والسهول والأنهار ، تجعل منها وحدة ، تدفع نحو تضافر الشعوب هناك ، وتضامن الناس في مواجهة البرودة ، وقسوة الطبيعة ، كما تشجع الشعب في عقد الخناصر ، لتكوين كتلة سياسية اقتصادية ، قائمة على العقلية الجماعية والتعاون ، ولا يكتب لحياتهم الاقتصادية النمو ، إلا في ظل تكتلهم وتعاونهم »(٢) .

هذا بينما نرى حوض البحر الأبيض المتوسط ، مما يشجع على تكوين النفسية « ذات الطابع الفردي »(٣) .

ومن ثم يكون (ذوبان) الكيان الفردي في البلاد الأوربية الغربية - الأنجلوسكسونية ، في الكيان القومي العام ، واعتبار هذا (الكيان القومي العام) أسرة واحدة ، (تذوب) فيها الأسر الصغرى ، ذوبان الكيانات الفردية ،

---

(١) الدكتور أحمد محمد ابراهيم : الاقتصاد السياسي — الجزء الأول — الطبعة الثالثة — المطبعة الأميرية ببولاق — ١٩٣٥ ، ص ١٠٤ .

(٢) الدكتور أحمد سويلم العمري : بحوث في المجتمع العربي (دراسات سياسية) — مكتبة الأنجلو المصرية — ١٩٦٠ ، ص ٦٨ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٦٨ .

« ويخضع فيها الجميع لقانون واحد »(١) ، أمراً منطقياً ، كما يكون أمراً منطقياً أيضاً ، أن تبدو تلك النزعة الفردية الاستقلالية ، فى البلاد الآسيوية والأفريقية ، وفى بلاد حوض البحر الأبيض المتوسط ، وذلك لأن هذه المناطق الأخيرة ، « واسعة جداً ، وتشمل على مناخات ، وعلى أجيال وأنواع كثيرة للبشر ، وهى غنية مخصبة فى وسائل المعيشة »(٢) .

فالأسرة فى الفهم الشرقى عبء ، لأنها تحول دون الانطلاق ، الذى تدعو إليه الطبيعة ، والأسرة فى الفهم الغربى لاوظيفة لها ، لأنها تذوب فى فى إطار أكبر ، هو الإطار الوطنى أو القومى .

وظيفة الأسرة :

للأسرة فى حياة الفرد وظيفة واحدة أساسية ، هى توفير الأمن والطمأنينة للفرد ، المنتمى إلى هذه الأسرة .

وفى المجتمعات الشرقية ، توفر (الأسرة الصغرى) — أو الأسرة المعروفة — للفرد ، هذا الأمن ، رغم أنها — فى بعض الأحيان — تحد من نشاطه ، وقدرته على الحركة ، والمرونة فى هذه الحركة ، ومن ثم رأيناه (يضطر) إليها .

---

(1) BENIANS, SYLVIA : From Renaissance to Revolution, A Study of the Influence of Political Development of Europe; Methuen and Co., Ltd., London, 1923, p. 87.

(٢) أبو الحسن الندوى : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين — الطبعة العاشرة — مطابع على بن على — الدوحة — قطر — ١٣٩٤ هـ — ١٩٧٤ م ، ص ١٧٧ .

وفى المجتمعات الأوربية ، توفر (الأسرة الكبرى) ، أو الوطن ، للفرد ، هذا الأمن ، ومن ثم تذوب (الأسرة الصغرى) ، فى كيان هذه (الأسرة الكبرى) .

ومن المغالطات الشائعة فى مجال التربية ، القول بأن « علاقة الدولة بشئون التربية والتعليم ، عند الإغريق القدماء » ، « قد انقسمت » ، « إلى نوعين ، تميزت بأحدهما اسبرطة ، وتميزت بالثانى أثينا »(١) ، حيث نرى الدولة تتدخل فى شئون التعليم فى اسبرطة(٢) ، بينما نراها لا تتدخل فى هذه الشئون فى أثينا (٣) — وذلك كترجمة للديموقراطية فى أثينا ، وللديكتاتورية فى اسبرطة .

وهى مغالطة ، يقول بها كل المشتغلين بالتربية ، لأن التربية لم تكن تسير فى أثينا سيراً عشوائياً ، كما قد يبدو للوهلة الأولى ، وإنما كان هناك (رأى عام) قوى ، يوجه التربية ، حيث وجدت ، شأنها فى ذلك شأن التربية فى اسـبرطة ، التى كانت (الدولة) ، تحل فيها ، محل هذا (الرأى العام) .

فالإنسان فى ظل الديموقراطية ليس حراً حرية مطلقة ، كما يحلو للبعض أن يفهم ، وإنما هو (مقيد) بالقوانين والنظم والتقاليد ، تقييداً يغله من أعماقه . بينما الإنسان فى ظل الديكتاتورية ، يخرج كثيراً على القوانين والنظم ، كلما سنحت له سانحة ، وما أكثر ما تسنح للإنسان هذه السانحة .

---

(١) الدكتور وهيب ابراهيم سمعان : دراسات فى التربية المقارنة — الطبعة الأولى — مكتبة الانجلو المصرية — ١٩٥٨ ، ص ٣٧ .

(2) BUTTS, R. FREEMAN : A Cultural History of Western Education, Its Social and Intellectual Foundations; Second Edition, Mc Graw-Hill Company, New-York, 1955, p. 35.

(3) SMITH, WILLIAM A. : Ancient Education; Philosophical Library, New-York, 1955, p. 132.

ولم تكن جريمة سقراط (٤٦٩ — ٣٩٩ ق . م) ، التى أدت به إلى الإعدام ، سوى أنه خرج على العرف السائد فى أثينا ، فألب الكبار فيها عليه ، فاستحق هذا المصير الأسود .

فأين هذه الحرية الأثينية ، التى يضرب بها المثل إذن ؟

وقد خصصنا الكتاب السابق من السلسلة كله ، لمناقشة مثل هذه القضايا المغلوطة ، فى عقولنا نحن المعاصرين .

وفى ظل هذا النمط (الجماعى) ، الذى ساد أثينا ، كما ساد اسبرطة ، نرى أفلاطون(٤٢٧ - ٣٤٨ق . م)— رغم عبقريته واقتداره الفكريين — يرى — فى جمهوريته — أن « الحب الحقيقى » ، « هو الحب بين الرجال ، أى ما يسمى فى المصطلح الحديث بالجنسية المثلية homosexuality ، ومن المعترف به ، أن الجنسية المثلية ، كانت شائعة فى المجتمع اليونانى القديم ، لأسباب قد يكون منها ، أن الشاب لم تكن لديه أية فرصة ، لتكوين علاقات شخصية وثيقة ، إلا مع رفاقه فى الحرب ، وفى الدراسة ، أو فى الأسواق ، أو الأماكن العامة ، وهم دائماً من الرجال » . « ومن المعترف به ، أن شخصيات يونانية كبيرة ، قد أعربت عن احترامها لهذا النمط من العلاقات الجنسية ، مثل يوريبيدس وسولون »(١) .

أى أن الحياة اليونانية — الاسبرطية والأثينية على السواء — قد حطمت حياة (الأسرة الصغرى) ، شأنها فى ذلك شأن الحياة فى غيرها من المجتمعات الأوربية الأخرى .

---

(١) جمهورية أفلاطون — ترجمة ودراسة الدكتور فؤاد زكريا — راجعها على الأصل اليونانى : الدكتور محمد سليم سالم — الهيئة المصرية العامة للكتاب — ١٩٧٤ ، ص ١٠٣ — من الدراسة .

غير أن هذا التحطيم قد تم فى اسبرطة بفعل الدولة ، بصراحة ووضوح ، بينما تم هذا التحطيم ذاته فى أثينا ، بأيدى المجتمع الأثينى ، وبفعل كل ابن من أبنائه .

أما فى المجتمعات الشرقية ، فإن هذا الأمن لا يتحقق للإنسان ، إلا من خلال (الأسرة الصغرى) ـ أو الأسرة المعروفة، لأن اتساع الأرض ، يحول دون وجود سلطان ملموس ، للدولة ، أو (للأسرة الكبرى) .

ولقد تطورت بعض المجتمعات الشرقية القديمة ، كما سنرى فيما بعد ، بحيث صار للدولة كيانها ، ولكن هذا الكيان ، لم يكن على حساب الأسرة، كما تم فى الغرب ، بل كان عبر هذه الأسرة(١) ، كما حدث فى الهند والصين ، ومصر وما بين النهرين ، على سبيل المثال ، حيث صار رئيس الدولة بمثابة رب هذه (الأسرة الكبرى)، الذى لا تختلف وظائفه كثيراً ، عن وظائف رب (الأسرة الصغرى)، وهى رعاية مصالح أبناء هذه الأسرة، « وبفضل هذه الرعاية ، صار حفر القنوات لتيسير الزراعة ، ووضعت القوانين، لتحديد العلاقات ، وانبثقت مؤسسات ، دينية واقتصادية وسياسية ، لها تشريعاتها — وكلها هدفت إلى تنظيم العمل التبادلى بين الناس ، لخيرهم واستمرارهم »(٢) .

ومن ثم صارت الأسرة التى تحقق للفرد الأمن ، فى البلاد الشرقية ، هى (الأسرة الصغرى) ، أو الأسرة المتعارف عليها — موضوع هذا الكتاب ، وصارت الأسرة التى تحقق هذا الأمن ذاته للفرد ، فى البلاد

---

(١) دكتور عبد الغنى عبود : دراسة مقارنة لتاريخ التربية — الطبعة الأولى — دار الفكر العربى — ١٩٧٨ ، ص ٨٥ .

(٢) دكتور سعد مرسى أحمد ، ودكتور سعيد إسماعيل على : تاريخ التربية والتعليم — عالم الكتب — ١٩٧٢ ، ص ٤٨ .

الغربية ، هي (الأسرة الكبرى) ، أو الدولة ، وعلى رأسها رئيسها بطبيعة الحال .

ولكن (الأسرة الصغرى) تغدو — رغم ذلك — عبئاً على الفرد ، لا بد من تحمله ، من أجل هذا الأمن المنشود ، كما أن (الأسرة الكبرى) - هي الأخرى - لا تحقق للإنسان إلا الأمن الخارجي ، أما الأمن الداخلي ، المستقر في أعماق الكيان الإنساني ، فيظل مهدداً .

وتغدو الأسرتان — الغربية والشرقية — رجعيتين ، إذا قورنتا بالأسرة المسلمة ، كما تغدوان عاجزتين عن تحقيق الأمن الحقيقي للإنسان ، على النحو الذي تحققه الأسرة المسلمة ، على نحو ما سنرى في الفصل الأخير من الكتاب .

الأسرة كمجتمع صغير :

وفي ظل الفهم الشرقي والفهم الغربي لوظيفة الأسرة ، ضاع مفهوم الأسرة كمجتمع صغير . . ضياعاً تاماً .

زال (التراحم)، الذي يجب أن يسود الحياة في هذه الأسرة ، وحل محل هذا التراحم شيء جديد ، أبعد ما يكون عن هذا التراحم .

ولما كانت الأسرة في المجتمعات الشرقية ، (عبئاً) على رب الأسرة ، فقد اتسم رب الأسرة الشرقية (بالاستبداد) ، من أقدم العصور ، واتسم أفراد هذه الأسرة (بالسلبية) .

وفي ضوء هذه الملامح الرئيسية ، وزعت (الأدوار) في هذه الأسرة الشرقية ، فصار الأب حاكما بأمره ، وصارت الأم مغلوبة على أمرها . وفي ضوئها أيضاً ، عومل الأطفال ، وربوا أو نشئوا ، ليضطلعوا - مستقبلا - بما أعدوا - أساسا - له ، فأعد الولد ليكون الحاكم

بأمره مستقبلا ، القادر على تحمل هذا (العبء) ، وأعدت البنت لتكون العنصر السلبي ، المغلوب على أمره فى الحياة ، ومن ثم كانت مثاليتها هى أن تسمع . . وتطيع ، بينما كانت مثالية أخيها — رغم صغر سنه — هى أن يأمر وينهى . . ويطاع .

ويرى جودسل ، أن « التقليد الأعمى للوالدين ، كان يلعب دوراً واضحاً ، فى هذه التربية »(١) ، فقد كانت كل قبيلة ، « تحاول تربية أبنائها ، وفق النمط ، الذى كان كبارها يسيرون عليه »(٢) .

وعندما تقدمت بعض المجتمعات القديمة ، بحيث (استقرت) الأسر فى القرى ، وتركت حياة التنقل ، وتملكت الأرض ، وصارت الأسرة (عوناً) للرجل ، بعد أن كانت (عبئاً) عليه . . بدأت المرأة تحظى ببعض أهميتها ، حيث « منحت المرأة فى كريت ، نصيباً من الحرية والسيادة ، ولم يكن ذلك موجودا فى الثقافات الشرقية ، إلا فى مصر »(٣) .

ورغم ذلك ، ظل (الماضى) يطارد المرأة ، فظلت تعتبر (عبئاً) على الرجل ، رغم أنها صارت أكبر (عون) له .

ولا نستطيع أن نحكم ، ما إذا كان الرجل هو الذى (أراد) لنفسه هذه

---

(1) GOODSELL, WILLYSTINE : A History of the Familly, as a Social and Educational Institution; The Macmillan Company, New-York, 1923, p. 42.

(٢) الدكتور وهيب ابراهيم سمعان : الثقافة والتربية فى العصور القديمة ، دراسة تاريخية مقارنة (دراسات فى التربية) — دار المعارف بمصر — ١٩٦١ ، ص ٦٠ .

(3) SMITH, WILLIAM A. : Ancient Education; Op. Cit., p. 89 - Quoted :

Traver, Albert A., History of Civilizaton, Volume I, The Ancient Near East and Greece, p. 138.

(السيادة) على المرأة ، أو (القوامة) عليها ، أم أن المرأة هى التى أرادت لنفسها هذه (الذيلية) . . أم أنها (الفطرة) التى فطر الله الناس عليها ، فوضعت المرأة نفسها حيث يجب أن توضع ، ووضعت الرجل حيث يجب أن يوضع ، لتستقيم حياة هذه الأسرة الشرقية ، وقد استقامت هذه الحياة بالفعل قروناً ، ولازالت ، رغم مايوجه إلى هذه الأسرة اليوم من انتقادات عنيفة ، (ينعق) بها دعاة الحضارة أو مدعوها ، فى العالم الغربى ، و(ينعق) بها أذيالهم ، فى قلب هذا العالم الشرقى ، و (تنعق) بها قبل ذلك وبعده ، أجهزة الدعاية ، التى لاتردد إلامثل هذه الآراء الغربية ، فيما تكتب ، وفيما تقول ، وفيما تغنى . . .

ولنا إلى هذه القضية عود ، فى نهايات الكتاب .

وهذا الذى (يطارد) المرأة فى الأسرة الشرقية ، لا يزال يطارد بقية أفراد الأسرة ـ غير الأب ، حيث نرى « الأسرة فى اليابان ، عظيمة الأهمية ، ونموذج تكوينها ينعكس فى الغالب على الجماعات الأخرى ، ومن أهم الروادع الاجتماعية عنده ، الخوف من ارتكاب ما يجلب العار على الأسرة »(١) ، وحيث نرى « للصغار وظيفة أساسية فى الشرق ، وهى مساعدة الكبار » ، وحيث « التأكيد دوماً على واجب الصغير نحو أبيه ، خاصة إذا كان كبير السن »(٢) .

---

(١) آرثر تيد مان : اليابان الحديثة ــ ترجمة وديع سعيد ــ مراجعة على رفاعة الأنصارى ــ رقم (٢٢٢) من (الألف كتاب) ــ مكتبة الأنجلو المصرية ، ص ٢ .

(2) FORSTER, LANCELOT : The New Culture in China, With an Intoroduction, by: Sir MICHAEL E. SADLER; George Allen & Unwin Ltd., London, 1936, p. 109.

ورغم أن فورستر ، يفرق بين الصين واليابان ، فى هذا المجال ، من حيث أن الدين السائد فى اليابان ، «يخلق الولاء والطاعة ، الواجب نحو الأمة ، فى نفس كل مواطن » ، بينما « قوة الصين كشعب ، تكمن فى نظام الأسرة بها ، وضعفها كأمة ، يعود إلى غياب سلطة مركزية بها »(١) ، فإن المتأمل لا يسعه إلا أن يؤكد ، أن العناصر الثقافة اليابانية ، مأخوذة بكاملها من العناصر الثقافية الصينية ، لما بين البلدين من تقارب أيديولوجى ، منذ أقدم العصور ، حيث «تدين اليابان ثقافياً للصين ، التى استعارت منها الأبجدية ، والديانة البوذية ، التى استعارتها الصين نفسها من الهند »(٢) . وقد «اقتبست اليابان كثيراً من المؤسسات السياسية والاقتصادية الصينية . وما أن جاء القرن السابع الميلادى ، حتى أصبحت اليابان جزءاً من الحضارة الصينية ، واستمر نقل اليابان عن الصين ، وتقليدها »(٣) .

ومن ثم تكون أهمية الأسرة فى اليابان ، هى التى قادت إلى أهمية الدولة ، حيث اعتبرت الدولة (أسرة كبرى) ، كما اعتبرت فى الصين تماماً .

دليل ذلك ، أن الصين — عبر تاريخها الطويل — تعدت الولاء (للأسرة الصغرى) ، إلى الولاء للدولة ، ومن ثم كان رئيسها — دوماً — ذا سلطات مطلقة ، حتى لقد وصف بأنه « (ابن السماء) » بحكم نيابته عن الخالق ، ويستمد سلطانه مما يتصف به من الفضيلة والصلاح ويليه فى السلطان أمراء أو أعيان ،

---

(1) Ibid., pp. 50, 51.

(2) MUKHERJEE, L. Comparative Education, Third Edition, Allied Publishers, India, 1975, p. 271.

(٣) ج. سنجلتون : المدرسة اليابانية — ترجمة الدكتور محمد قدرى لطفى وآخرين — عالم الكتب — ١٩٧٢ ، ص ٦ — من مقدمة الترجمة .

بعضهم بحكم مولدهم ، وبعضهم بحكم تربيتهم وتدريبهم ، وهم يصرفون أعمال الدولة . ثم يأتى الشعب ، وواجبه فلاحة الأرض ، ويعيش فى أسر أبوية ، ويتمتع بالحقوق المدنية ، ولكنه لا رأى له ، فى تصريف شئون الدولة »(١).

فهى تفرقة تبدو على السطح ، بالنظرة السريعة ، ولكنها لا أساس لها ، إذا نحن تعمقنا فى القضية .

ومثلما وزعت (الأدوار) على أفراد الأسرة الشرقية ، على هذا النحو : الأب له كل شيء ، وبقية أفراد الأسرة فى خدمته ، مقابل ذلك (الأسر) الذى أوقع نفسه فيه بسببهم ، سواء كانت هذه الأسرة محدودة الأعضاء ، كما نرى فى حالة الأسرة المتعارف عليها ، أو كانت أسرة كبرى ، تضم ملايين البشر . . . وزعت نفس (الأدوار) ، على نفس الأسرة الغربية ، على النحو الذى يتفق وفهم الأسرة فى الغرب .

وقد رأينا فيما سبق ، أن مفهوم الأسرة فى الغرب ، هو (الدولة) ، أو الكيان القومى العام ، وأن الرابطة التى تربط بين أفراد (الأسرة الصغرى) ، لا تعدو أن تكون رابطة (تعارف) ، بين مجموعة من الناس ، تعيش معاً ، كتلك الرابطة التى تقوم بين مجموعة من الناس فى مجال العمل ، أو مجموعة من الناس ، فى ناد من النوادى — بينما تم تقديس الدولة ، فى المجتمعات الشرقية ، (من خلال) هذه الأسرة الصغرى .

ونتيجة لذلك ، رأينا العلاقة بين الرجال والنساء ، فى هذه المجتمعات الغربية ، علاقة لها بعد محدد ، هو (إنتاج أطفال)— لخدمة الدولة . ورأينا « التأكيد فى الغرب ، على واجب الأب نحو الطفل »(٢) ، فى مقابل (واجب الابن نحو الأب) ، الذى رأيناه فى التراث الشرقى فيما سبق .

---

(١) دكتور سعد مرسى أحمد ، ودكتور سعيد اسماعيل على (مرجع سابق) ، ص ٥٢ .

(2) FORSTER, LANCELOT, Op. Cit., p. 109.

وقد يصل الأمر إلى حد (إشاعة النساء) ، من أجل (إنتاج الأطفال)، كما رأينا فى اسبرطة القديمة ، وكما رأينا فى (جمهورية أفلاطون) فيما سبق، وكما نرى فى (البيان الشيوعى) ، الذى يشيع البغاء علناً ، بحجة أنه مشاع فى البلاد الرأسمالية، ولكن بصورة غير علنية، حيث «لا يكتفى البورجوازيون، بأن تكون تحت تصرفهم نساء البروليتاريين وبناتهم — هذا عدا البغاء الرسمى — بل يجدون لذة خاصة ، فى إغواء بعضهم لنساء بعض .

ليس الزواج البرجوازى فى الحقيقة والواقع ، سوى إشاعة النساء المتزوجات . فقصارى ما يمكن أن يتهم به الشيوعيون إذن ، هو أنهم يريدون، كما يزعم ، الاستعاضة عن إشاعة النساء المستترة بالرياء ، والمغطاة بالمداجاة، بإشاعة صريحة رسمية »(١) .

ونذكر هنا ، بأن هذا البيان الشيوعى قد صدر أول الأمر ، فى ألمانيا ، سنة ١٨٤٨ ، فى أوج الصراع الذى تفجر فى الغرب ، بين العمال وأصحاب الأعمال ، وبأن الشيوعية كلها ، كما تبدو مقتضبة فى هذا البيان ، ومفصلة فى كتاب (رأس المال) بعد ذلك ، وفى الكتابات الشيوعية الحديثة ، التى كتبها غير ماركس ، إنما « هى أثر مباشر للنظام (الرأسمالى) الحديث »(٢). وأن « الماركسية مدينة للغرب فى فكرها ... فإن ماركس لم يأت بجديد ، وإنما من التلفيق بين ما قاله هيجل ، وما قاله فيورباخ ، أقام فلسفته » ، على أساس « مادية (فيورباخ) ، وجدلية (هيجل) » (٣) .

---

(١) ماركس وانجلس : بيان الحزب الشيوعى — دار التقدم — موسكو — ١٩٦٨ ، ص ٦٢ ، ٦٣ .

(٢) عبد الرحمن عزام : الرسالة الخالدة — الطبعة الأولى — مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — ١٣٦٥ هـ — ١٩٤٦ م ، ص ١٢٥ .

(٣) د. على محمد جريشة ، ومحمد شريف الزيبق : أساليب الغزو الفكرى للعالم الاسلامى — الطبعة الأولى — دار الاعتصام بالقاهرة — ١٣٩٧ هـ — ١٩٧٧ م ، ص ١١٣ .

الفصل الثانى

المعنى الطبيعى للأسرة

تقــديم :

رأينا فى الفصل السابق، أن للأسرة فى الشرق ، معنى يختلف عن معناها فى الغرب ، وأن هذا الاختلاف ، إنما يعود إلى (الظروف الحيانية) للأسرة ، التى تختلف فى الشرق ، عنها فى الغرب ، منذ القديم .

ولكن ذلك لا يعنى ، أن الأسرة تعنى ماتعنيه فى الشرق ، أو ما تعنيه فى الغرب ، أو أنها تعنى شيئاً وسطا بين ما تعنيه هنا ، وما تعنيه هناك .

فقضية العلاقة بين الإنسان ، والمجتمع الذى يعيش فيه ، وظروف البيئة التى يقع تحت تأثيرها، قضية قديمة ، لم نر (قدرة) الإنسان فيها تبدو ، فى (تكييف) نفسه ، وأجهزته ، لتتلاءم مع هذه الظروف ، بشكل (تذوب) فيه ذاته ، و (تمحى) معالم شخصيته ، من خلال قدرة أجهزته الداخلية على التطور ، لتلائم هذه الظروف ، وإلا انقرض ومات ـ وإنما قدرة الإنسان تبدو، من خلال (قدرته) على التطور المحدود، لفترة من الزمن ، يستطيع خلالها أن (يخضع) ظروف هذه البيئة ، ويسيطر عليها ، ويتحكم فيها ، ويوجهها لما يناسبه ، ويحقق أهدافه .

وإذا كان معنى الأسرة ، كما رأينا فى الفصل الأول ، قد استمد ملامحه من فترة ما قبل الميلاد ، حيث كان الإنسان لا يزال فى مرحلة (التطور المحدود ، لفترة من الزمن) ، فإن استمرار هذا المعنى حتى القرن العشرين ، هو المأساة — كما سنرى عبر فصول الكتاب التالية .

وهى مأساة، لأنه معنى (فرضته) الظروف، ولكنه مخالف لمعنى الأسرة الطبيعى، كما سنراه فى هذا الفصل، ومن ثم كان استمرار هذا المعنى، سبباً من أسباب (شقاء) الإنسان المعاصر، على نحو ما سنرى فى فصول الكتاب المختلفة.

وهنا، يبدو الإسلام فى إشراقته — شأنه دائماً — سواء فى المعنى الذى حدده للأسرة، وفى الوظائف التى ألقاها عليها مجتمعة، والوظائف التى ألقاها على كل فرد من أفرادها، وهو معنى لم تصل إليه حضارة قديمة، فى الشرق، ولا فى الغرب، ولم تصل إليه الحضارة المعاصرة، ولن تصل إليه، إلا إذا هى عادت إليه.

وتنبع (قيمة) هذا المعنى الإسلامى للأسرة، من مسايرته لهذا المعنى الطبيعى لها، كما سنراه فى هذا الفصل.

معنى الأسرة الطبيعى :

ولن نلجأ فى تحديد هذا المعنى، إلى معاجم اللغة، كما فعلنا فى الفصل السابق، وإنما سنلجأ - فى تحديده - إلى معجم الحياة، ومعجم العقل والمنطق، والمعجم العلمى، فهى التى ستقودنا — حتما — إلى هذا (المعنى الطبيعى للأسرة).

والأسرة، كما نراها باختصار، هى مجموعة من الأفراد، يعيشون تحت (سقف واحد). فهى — فى معناها - قريبة من معنى (الأمة)، التى تعيش تحت (سماء واحدة).

ومثلما (يتنوع) أبناء الأمة، بين حاكم ومحكوم، وبين رئيس ومرءوس، وبين كبار وصغار، وبين رجال ونساء، وبين مهندسين واطباء، وبين عمال

وفلاحين . . دون أن يؤدى هذا التنوع إلى (تفتيت) الأمة الواحدة ، بل على العكس ، يؤدى إلى زيادة كفاءتها . . فإن هذا (التنوع) ذاته ، موجود على مستوى الأسرة ، ومجرد وجوده ، نعمة من نعم الله عليها ، على نحو ما سنرى ، مثلما رأينا فى كتابنا السابق من السلسلة ، أن هذا التنوع نعمة من نعم الله الكبرى على المجتمع الإنسانى ، أو على الأمة، وأن المأساة الحقيقية، إنما تكمن فيما يسمى (بالمساواة بين الناس) ، بمعنى (صب) أبناء المجتمع جميعا ، فى (قالب) واحد (١) .

وفى هذا (التنوع) ، الذى نراه على مستوى الأسرة ، وعلى مستوى الأمة ، بل وعلى مستوى الجنس الإنسانى كله ، نجد النجاح الحق ، يكمن فى أن تتوفر لكل فرد من أفراد الأسرة ، مثلما تتوفر لكل فرد من أفراد الأمة ،فرصة أن يعطى ،وأن يأخذ ، وأن يكون — فيما يعطى وفيما يأخذ — متفقا مع ظروفه الخاصة به ، والوظائف التى أعد لها فى الحياة ، وما منحه فى هذه الحياة ، من مواهب وملكات . . وإمكانيات .

وهكذا يكون المعنى (الطبيعى) للأسرة ، مغايرا تماما لذلك المعنى (الحياتى) لها ، والذى فرضته عليها ضغوط الحياة ، والذى رأيناه فى الفصل الأول من الكتاب ، والذى رأيناه - فى الشرق - يعنى القيد والأسر (٢) ، وفى الغرب يعنى مجرد التعارف (٣) .

أى أن معناها يكون مستمداً من (طبيعة) أعضائها ، لا من (ضغوط الحياة) عليهم وعليها .

---

(١) دكتور عبد الغنى عبود : قضية الحرية ، وقضايا أخرى — الكتاب السابع من سلسلة (الاسلام وتحديات العصر) — الطبعة الأولى — دار الفكر العربى — ١٩٧٩ ، ص ٦٨ — ٧٢ .

(٢) ارجع الى ص ١٨ وما بعدها من الكتاب .

(٣) ارجع الى ص ٢٢ وما بعدها من الكتاب .

ذلك أن ضغوط الحياة على الأسرة ، لا يمكننا أن ننكر أثرها فى تشكيل هذه الأسرة ، إلا أننا لا يمكننا أن نعتبر الأسرة تقف من هذه الضغوط موقفاً سلبياً . فكما تترك ضغوط الحياة بصمتها على الأسرة ، تترك الأسرة بصمتها على هذه الضغوط أيضاً ، متمثلة فى تكييفها ، والتصدى لها ، ومواجهتها ، حتى تتم سيطرة الأسرة عليها .

ذلك إذا عادت هذه الأسرة إلى فطرتها . . ولم تدع هذه الفطرة ، تدوسها أقدام هذه الضغوط .

ولا يمكن أن يفهم المعنى الطبيعى للأسرة ، دون العودة إلى طبيعة الرجل ، وطبيعة المرأة ، وطبيعة الأطفال ، وهى العناصر الطبيعية ، التى تتكون منها أية أسرة .

ورغم ما يبدو بين هذه العناصر الثلاثة من تفاوت واختلاف ، فإن هذه العناصر الثلاثة (إنسانية) ، ومعنى (إنسانيتها) ، أن (الإنسان) يكمن فى أعماق كل منها ، فيجمع بينها ، ويقلل ما بينها من أوجه اختلاف وتفاوت .

ولا يمكن فهم (إنسانية) الإنسان هنا ، فى ضوء الحضارة الحديثة ، ومنجزاتها العلمية، لأن الحضارة الحديثة كلها تقوم على (حيوانية) الإنسان، لا على (إنسانيته) (١) ، وإنما يمكن فهم هذه (الإنسانية) ، فى ضوء الإسلام وحده .

---

(١) دكتور عبدالغنى عبود : الانسان فى الاسلام ، والانسان المعاصر — الكتاب الرابع من سلسلة (الاسلام وتحديات العصر) — الطبعة الأولى — دار الفكر العربى — ١٩٧٨ ، ص ١٢٥ .

و « الإنسان يحتل — فى العقيدة الإسلامية — منزلة ، لا تعلو عليها سوى منزلة الله سبحانه » (١) ، فقد خلقه الله سبحانه — يوم خلقه — ليكون خليفة له فى الأرض ، وزوده (بالوسائل) ، التى يستطيع أن يقوم بها بمهام ذلك الاستخلاف :

— « وإذ قال ربك للملائكة : إنى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال : إنى أعلم مالا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة ،فقال: أنبئونى بأسماء هؤلاء ، إن كنتم صادقين . قالوا: سبحانك ، لاعلم لنـــا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العزيز الحكيم . قال : يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم ، قال : ألم أقل لكم : إنى أعلم غيب السموات والأرض ، وأعلم ماتبدون وما كنتم تكتمون ؟ » (١) .

وبدون فهم هذه (العقيدة الإسلامية) ، « يصعب فهم ما أحدثه الإسلام من تغير فى النفسية العربية ، ثم من تغير فى شبه الجزيرة العربية ، وفى العالم أجمع ، بعد سنوات قليلة من ظهوره » ، فيها تحول هؤلاء الأعراب ، « من (جاهليين) ، إلى حماة للحضارة ، ومتشربين لها ، ثم مساهمين فيها بعد ذلك» (٢) .

---

(١) دكتور عبد الغنى عبود : العقيدة الاسلامية ، والأيديولوجيات المعاصرة — الكتاب الأول من سلسلة (الاسلام وتحديات العصر) — الطبعة الأولى — دار الفكر العربى — ١٩٧٦ ، ص ٧٢ ، ٧٣ .

(٢) قرآن كريم : البقرة — ٢ : ٣٠ — ٣٣ .

(٣) دكتور عبد الغنى عبود : « التربية ومحو الأمية الايديولوجية » — **تعليم الجماهير** — مجلة متخصصة ، تصـدر عن الجهاز العـربى لمحـو الأمية وتعليم الكبار — السنة الثالثة — العدد السادس — مايو ١٩٧٦ ، ص ٣١ .

كان الإنسان — قبل الإسلام — حيواناً ، فرد الإسلام إليه (إنسانيته)، فشاد حضارة قوامها التقدم المادى ، وقوامها العدل والحق والخير أيضاً . . ثم جاءت الحضارة الحديثة ، فحققت تقدماً مادياً لا يمكن إنكاره ، ولكنها أكدت (حيوانية) الإنسان ، فكان ما يعيشه الإنسان المعاصر من قلق مدمر، رغم التقدم المادى ، الذى يتمتع به[1] .

وطالما كان الإنسان — بحكم تكوينه — خليفة الله فى الأرض ، فوظيفته الأساسية فى الحياة ، هى أن (يعطى) .

وهنا الفرق الأساسى بين الإنسان (الإنسان) ، وبين الإنسان (الحيوان) .

الإنسان (الإنسان) ، أو الإنسان المسلم ، يحب أن يعطى ، تقرباً إلى الله ، ووضعاً لنفسه حيث يحب - ويجب - أن يوضع، والإنسان (الحيوان) لا يحب إلا أن يأخذ ، شأنه فى ذلك شأن الحيوان — أى حيوان . فالحيوان لا يعطى ، إلا إذا اضطر إلى الإعطاء ، أو استكره عليه ، بأية وسيلة من وسائل الاضطرار ، أو الاستكراه ، ومن ثم زرع الله فى (تركيبة) الحيوان — والطير — غريزة أصيلة فيه ، هى حب الأبناء ، التى (تضطره) إلى أن يعطى أبناءه ، ويفتديهم ، دون ما تفكير فى هذا الذى يعطيه ، وسببه — عكس الإنسان، الذى يستطيع — بعقله — أن يعطى .. أو يحرم .

وطالما كانت الأسرة ، التى ينتمى إليها هذا الإنسان ،أسرة إنسانية ،

---

(١) دكتور عبد الغنى عبود : اليوم الآخر والحياة المعاصرة — الكتاب الخامس من سلسلة (الاســلام وتحــديات العصر) — الطبعة الأولى — دار الفكر العربى — يونية ١٩٧٨ ، ص ١٥٠ — ١٥٢ .

فإنها يجب أن تقوم على العطاء ، قبل أن تقوم على غيره — فالأب يعطى أمناً ، والأم تعطى حباً وعطفاً .

وقد يقول قائل : وما الذى يستطيع الأبناء أن يعطوه هنا ؟

وأستطيع أن أدعى أن الأطفال يعطون، أكثر مما يعطى الآباء والأمهات . إنهم يعطون بسمة ، وبدون تلك البسمة ، ربما لم يستطع الأب أن يوفر ذلك الأمن ، ولا الأم أن توفر ذلك الحب والعطف . ذلك أن البسمة ، التى يعطيها الابن ، لا تعدو أن تكون أداة (ربانية) بارعة ، قادرة على أن تمحو كل أثر من آثار الإجهاد، الناتج عن سعى الأب لتوفير الأمن ، وسعى الأم لمنح الحب والعطف .

والبسمة التى تمسح الإجهاد والتعب ، هى تلك البسمة التى تنبع طبيعية — من قلب الطفل ، لأن الطفل لا يعرف النفاق والرياء ، وإنما هو مرآة صافية، لنفس صافية . وبسمة الرضا لا تنبع من قلب الطفل ، إلا إذا (أحس) بأنه يعيش فى كنف أب، يوفر الأمن فعلا ، أو يسعى لتوفيره ، وأم تعطى الحب والعطف فعلا ، أو تسعى لإعطائهما .

فكل فرد من أفراد الأسرة الإنسانية قادر على العطاء ، وهو راض سعيد ، بل إنه بدون هذا العطاء ، لا يحس بأن للحياة طعماً ، وذلك سر ضيق الأطفال المدللين ، وتبرمهم بالحياة . . رغم أنهم يحصلون على كل ما يحبون أن يحصلوا عليه .

ويقسم علماء النفس المحدثون ، حاجات الطفل — على سبيل المثال — إلى حاجات فسيولوجية (تتعلق بالجسد وحاجاته) ، وحاجات نفسية ، منها « الحاجة إلى الحب والمحبة » ، و « الحاجة إلى الرعاية الوالدية والتوجيه » ،

و « الحاجة إلى إرضاء الكبار » ، و « الحاجة إلى إرضاء الأقران » ، و « الحاجة إلى التقدير الاجتماعى » ، و « الحاجة إلى الحرية والاستقلال » ، و « الحاجة إلى تعلم المعايير السلوكية » ، و « الحاجة إلى تقبل السلطة » ، و « الحاجة إلى التحصيل والنجاح » ، و « الحاجة إلى تأكيد واحترام الذات » ، و « الحاجة إلى الأمن » ، و « الحاجة إلى اللعب »(١) .

أى أنها مجموعة من الحاجات ، التى يستطيع الطفل — من خلالها — من وجهة نظر علماء الأنثروبولوجى — أن (يتشرب) ثقافة مجتمعه ، (فيسمو) إلى مستوى هذه الثقافة ، لأن ثقافة المجتمع — فى نظرهم — « تسمو » «فوق مستوى الفرد » فى قدرتها على تخليد نفسها ، وعلى البقاء بعد انقراض أى من الشخصيات التى تسهم فيها ، أو جميع الشخصيات ، التى سبق أن أسهمت فيها »(٢) .

فالإنسان — فى نظر هؤلاء العلماء — مجرد « حيوان ، أوكيان Organism ، رغم أنه — أيضاً — مخلوق متحضر ، له تاريخ ، وقيم اجتماعية »(٣) ، ورغم أننا — كآدميين — على حد تعبير كاتز — « نريد بوجه عام ، أن يعترف بنا المجتمع ، ويكافئنا ، فإننا نتأثر بقوة ، بالناس الذين يحيطون بنا مباشرة ، وبالجماعات المتجانسة ، والتى نشترك فى عضويتها ، سواء بصورة رسمية ، أو غير رسمية » ، وأنه « كثيراً ما تقمع أنانية الفرد ، فى سبيل التطابق

---

(١) دكتور حامد عبد السلام زهران : علم نفس النمو (الطفولة والمراهقة) — الطبعة الثانية — عالم الكتب — ١٩٧٢ ، ص ٢٦٩ — ٢٧١ .

(٢) رالف لنتون : دراسة الانسان — ترجمة عبد الملك الناشف — منشورات المكتبة العصرية — صيدا — بيروت — ١٩٦٤ ، ص ٣٨٥ .

(3) KROEBER, A. L. : Anthropology (Race, Language, Culture, Psychology, Prehistory); Revised Edition, Harcourt, Brace and Company, Inc. 1948, p. 1.

مع معايير الجماعة »، وأن « قدراً كبيراً من المعايير الاجتماعية لثقافتنا » اكتسبناها عن طريق العضوية، رسمية كانت أو غير رسمية، في جماعات كثيرة، من مجتمعنا »(١) .

ومن ثم تتحدد مثاليات التربية، في هذه المجتمعات المتقدمة، على أساس « تمكين الفرد من أن يكون أكثر اتصالا بالحياة الثقافية، للمجتمع الذى يعيش فيه »(٢)، لأن التربية — عندهم — « هي عملية الارتباط بالثقافة، والتلاؤم معها »(٣) .

ومعنى ذلك، أن محور سلوك الفرد، هو أن (ينافق) مجتمعه، وصولا إلى (رضا) هذا المجتمع، وأنه (قابل) للثقافة، وليس (صانعاً) لها .

وهذا القول، غير متفق إطلاقاً مع (الطبيعة الإنسانية)، ومن ثم رددنا عليه، في كتابنا الرابع من السلسلة، عن (الإنسان)(٤)، وإنما الذى يتفق مع هذه (الطبيعة)، هو أن الإنسان (صانع) للثقافة، أو هو (فاعل) فيها، مثلما هو (قابل) لها .

---

(١) دانيل كاتز : « أثر الجماعة في الاتجاهات والسلوك الاجتماعي » — ترجمة الدكتور مختار حمزة — الفصل الثامن من : **ميادين علم النفس النظرية والتطبيقية** — باشراف ج. ب. جيلفورد — والترجمة باشراف الدكتور يوسف مراد — المجلد الأول — الميادين النظرية — دار المعارف بمصر — ١٩٥٥، ص ٣٢٣ — ٣٣٥ .

(2) BUTTS, R. FREEMAN, Op. Cit., p. 15.

(3) READ, MARGARET : Education and Social Change in Tropical Areas; Thomas Nelson and Sons Ltd., Edinburgh, 1956, p. 96.

(٤) دكتور عبد الغنى عبود : الانسان في الاسلام والانسان المعاصر (مرجع سابق)، ص ٧٥ .

وهو عندما يقبل ، وعندما يفعل ، إنما يقبل ويفعل ، من منطق إحساسه الدفين ، الذى ركبه الله سبحانه فيه ، وهو أنه (خليفة) لله فى الأرض .

وحتى الطفل الرضيع ، فى تصورى ، عندما يبتسم ، لا يعبر عن رضا وسعادة ، داخلية .. بقدر ما يحس بأنه يعطى تلك البسمة ، التى يطلبها والداه منه ، فيحسون — من خلالها — بالرضا والسعادة .

فكل فرد من أفراد الأسرة يعطى ، ولكن عطاءه يختلف عن عطاء الآخرين ، بحسب مواهبه وقدراته وإمكانياته الطبيعية ، كما أن كل فرد من أفراد الأسرة يأخذ ، بحسب مواهبه وقدراته وإمكانياته الطبيعية أيضاً . وقد شاءت قدرة الله ، أن تستمر حياة الأسرة ، من خلال هذا الأخذ والعطاء .. لأنهما أخذ وعطاء ، (تتكامل) بهما الأسرة ، وتكون ضرورة .. إنسانية .

سنن كونى :

يرد لفظ (الإنسان) فى القرآن الكريم ، كما يرد فى الكتابات الأخرى ، القديمة والمعاصرة ، فيدل على (جنس) الإنسان ، فى ماضيه وحاضره ومستقبله ، كما يدل على (جنسه) ، فى الشرق و الغرب ، وفى العالم الثالث . أى أن لفظ الإنسان يدل على الإنسان — كل إنسان — بغض النظر عن ظروف الزمان والمكان ، التى يعيش فيها هذا الإنسان .

ويرد لفظ (الحيوان) أو (الطير) أو (الحشرات) ، ليدل على (جنس) بعينه من هذه المخلوقات ، له سمات معينة ، جعله الله سبحانه عليها .

ومن ثم ، فالسمات العامة للإنسان ، هي هي ، منذ خلق الله آدم ، وحتى اليوم ، لم يؤثر فيها تأثيراً جوهريا ، اختلاف (ظروف) الحياة فى مجتمع ، عنها فى مجتمع آخر ، ولا غلبة الحضارة على الإنسان المعاصر ، وافتقار الإنسان القديم إليها .

وفى داخل هذا النمط العام ، الذى يسمى (الإنسانية) ، نرى (اختلافات) محدودة ، مرجعها الاختلافات فى (تكوين) هذا الإنسان ، بحسب نوعه (ذكر أو أنثى) ، أو بحسب سنه (طفل — غلام — شاب — رجل أو امرأة — شيخ) .

ومرجع هذه الاختلافات التكوينية ، هو الاختلاف فى (الوظيفة) الملقاة على كل فرد من أفراد الأسرة ، وما يطلب إليه أن يعطيه لغيره من الأفراد ، وما يفرض فيه أن يأخذه من غيره من الأفراد ، بحيث يتحقق ذلك (التكامل) ، فى حياة الأسرة .

ودون هذه الاختلافات جميعاً ، ماتراه من اختلاف بين الرجل والمرأة ، أو بين الذكر والأنثى .

وقد رأينا فى كتابنا الثالث ، من كتب السلسلة ، أن هذا الكون الذى نعيش فيه ، لم يخلق عبثاً ، كما يقول بذلك الماديون ، وإنما خلق بحكمة وعناية ودقة . . فائقة ، تدل — بما لا يدع مجالا للشك — على الإله الخالق ، وعلى قدرة هذا الإله سبحانه ، حيث يعيش الإنسان فى هذا الكون ، فى « مصنع متكامل متشابك ... معقـــد غاية التعقيد ، يتأثر فيه الإنسان بما فى داخله من عالم . . الميكروبات ، وبما حوله من عوالم : الحيوان والنبات ، والهواء ، والشمس والقمر ، كما يتأثر بما حول مجموعته الشمسية ، من مجموعات شمسية أخرى ، فى داخل مجرتنا ، وبما حول مجرتنا من مجرات ، تملأ هذا

الكون ، اللا محدود » (١) .

كما رأينا — فى هذا الكتاب الثالث — أن قدرة الله الخالق سبحانه ، تبدو أوضح ماتبدو ، فى ذلك (التكامل) القائم ، بين عناصر هذا الكون ، وبه نرى « هذا المصنع الكونى الضخم ، على هذا النحو من التعقيد ، وعلى هذا النحو من البساطة ، فى نفس الوقت » (٢) ، كما نرى فيه (الكل) ، يعتمد فى حياته على (الكل) ، وكما نرى فيه (الكل) ، يتكون من عناصر واحدة . . بنسب مختلفة (٣) ، حيث تتراص هذه العناصر — على حد تعبير الدكتور عبد المحسن صالح — « بطرق هندسية ، وتتشابك بقوانين خاصة ، وتتجه بمسافات محددة ، وتتعرج بزوايا معينة ، وكأن هناك مهندسا يصمم مدينة مثالية ، قائمة بذاتها ، مستخدماً فى ذلك أحجاراً (ذرات) ، ليبنى منها عمارات (جزيئات) ، وتتجمع العمارات ، على هيئة مترابطة منسقة ، لتخلق مدينة ، تسرى فيها الحياة . . هى النواة » .

« وما أروع منظر الخليـة الحيـة ، وأنت تنظر إليها من خلال الميكروسكوب ، فتجد النواة تتوسطها ، أو فى ركن منها ، ثم تجد السيتوبلازم الحى يدور حولها ، ويطوف برحابها » .

« وفى نواة الخلية أسرار ، لا تقل شأنا عن أسرار السماوات . وكلتاهما على أية حال . . سر تطويه المسافات الشاسعة ، التى تفصلنا عن نجوم السماء ، وسر تطويه دقة أحجار البناء ، فى نواة الخلية وماحولها ، فلا نعرف : كيف

---

(١) دكتور عبد الغنى عبود : الاسلام والكون — الكتاب الثالث من سلسلة (الاسلام وتحديات العصر) — الطبعة الأولى — دار الفكر العربى — مايو ١٩٧٧ ، ص ٣٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٧ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٣٣ .

بنيت السماء ، ولا كيف تراكبت الذرات فى الخلية ، وإلا لكنا عرفنا سر الحياه »(١) .

وفى هذا الكون الواسع ، البسيط غاية البساطة ، والمعقد غاية التعقيد ، نرى الحياة تسير على أساس (الازدواج) ، الذى لاتتم به حياة، إلا بسالب وموجب .

ولا يمكن — فى السنن الكونى — أن تكون للسالب حياة بدون الموجب، ولا للموجب حياة بدون السالب ، وإنما تتحدد سلبية السالب ، وإيجابية الموجب . . باجتماعهما معاً .

وقد حدد هذا السنن الكونى ، رب الكون سبحانه :

— « ومن كل شيء خلقنا زوجين ، لعلكم تذكرون » (٢) .

وهذا السنن الكونى ، ينطبق على الإنسان ، انطباقه على غير الإنسان ، من خلق الله الكثير :

— « أيحسب الإنسان أن يترك سدى ؟ ألم يك نطفة من منى يمنى ؟ ثم كان علقة فخلق فسوى . فجعل منه الزوجين : الذكر والأنثى ؟ »(٣) .

— « وأنه خلق الزوجين : الذكر والأنثى . من نطفة إذا تمنى » (٤) .

---

(١) الدكتور عبد المحسن صالح : دورات الحيـاة — رقم (٧٦) من (المكتبة الثقافيـة) — دار القـلم بالقـاهرة — اول ينـاير ١٩٦٣ ص ٢٨ — ٣١ .

(٢) قرآن كريم : الذاريات — ٥١ : ٤٩ .

(٣) قرآن كريم : القيامة — ٧٥ : ٣٦ — ٣٩ .

(٤) قرآن كريم : النجم — ٥٣ : ٤٥ ، ٤٦ .

ويقضى هذا السنن الكونى ، أن يكون السالب سالباً ، والموجب موجباً .

ولو اجتمع موجب وموجب فى مجال الكهرباء مثلا ، لكانت شرارة مدمرة ، وإحراق .

ولو اجتمع سالب وسالب فى مجال الكهرباء نفسه ، لكان موات .

وإنما الحياة الصالحة ، أن يجتمع السالب والموجب معاً ، فتكون (الطاقة) ، التى يمكن أن تستمد من هذه الكهرباء ، والتى يمكن أن تستغل بطرق شتى ، فى أغراض متعددة ، كلها مفيدة .

ومن ثم يقضى هذا السنن الكونى ، أن تختلف (طبيعة) الرجل عن (طبيعة) المرأة ، لتتحقق — من خلال هذا الاختلاف — حياة إنسانية ، فيها ثراء ، وإلا كانت هذه الحياة مدمرة ، أو كانت غير حياة على الإطلاق .

وهذا الاختلاف الكبير ، الذى نراه بين الرجل والمرأة ، نرى اختلافات دونه — كما سبق - بين الكبير والصغير ، مثلا ، بحسب الاختلاف فى (كفاية) الأجهزة الداخلية ، وقدرتها على القيام بوظائفها ، لا الاختلاف فى هذه الأجهزة ذاتها .

وهو اختلاف له وظيفته فى حياة الأسرة ، تماماً كما أن الاختلاف فى مواهب أبناء المجتمع ، له وظيفته فى حياة الأمة ، كما رأينا عند حديثنا عن (معنى الأسرة الطبيعى) ، فيما سبق .

وفى ظل هذه الاختلافات الطبيعية بين أبناء الأسرة ، يكون المعنى الشرقى للأسرة ، بما يحمله من (استبداد) رب الأسرة ، والمعنى الغربى لها ، بما يحمله من (المصلحة) ، التى تربط بين أفرادها — يكون هذان المعنيان ، عاجزين عن الوصول إلى معنى (متحضر) للأسرة ، كما نرى المعنى الإسلامى

لها ، كما يكونان — فى الوقت ذاته — عقبة فى سبيل قيام الأسرة بوظيفتها الطبيعية ، سواء بالنسبة لأفرادها ، وبالنسبة للمجتمع الكبير ، الذى تعيش فيه .

ذلك أن استبداد الأب ، قد يوفر لأفراد الأسرة استقرارا ، كما يوفر لهم هدوءا ، كما يوفر لهم حماية وأمنا ، ويوفر لهم — بجانب ذلك — ما يجب أن يتوفر لهم من مصدر رزق ثابت ، يتحقق — من خلاله — الاطمئنان على اليوم وعلى الغد ، ولكن هذا الاستبداد ، رغم ما يوفره لأفراد الأسرة من متطلبات رئيسية ، يسلبهم ما هو أهم من ذلك ، وهو ما ينشدونه من حب وعطف .

ذلك أن الطعام والشراب والكساء ، وغيرها من متطلبات الحياة ، ليست المطلب (الأساسى) لأفراد الأسرة ، وإنما هى مطالب (ثانوية)، بجانب هذا المطلب الأساسى ، وهو الحب والرحمة ، بدليل أن أفراد الأسر الفقيرة يعيشون سعداء ، برغم نقصان كل هذه المتطلبات المادية ، بينما يشقى كثير من أفراد الأسر الغنية ، بانشغال الأب بعمله مثلا ، رغم أنه — من خلال هذا الانشغال - يوفر لأفراد أسرته ، كل متطلباتهم المادية .

أى أن القيمة الحقيقية لرغيف العيش وهو يقدم ، هى ذلك الحب الذى يحمله معه ، من مؤديه ، أكثر مما هى القيمة الغذائية لهذا الرغيف ذاته .

وفى ظل علاقة (المصلحة) ، التى تسود أفراد الأسرة الغربية ، يزول هذا المعنى الكبير — معنى الحب . وقد تتحقق - فى ظل هذا المفهوم - قيم نبيلة ، كالاعتماد على النفس ، والمشاركة والتعاون بين جميع أفراد الأسرة ، ولكنها قيم ليست ذات قيمة تذكر ، إذا قورنت بضياع تلك القيمة الأساسية ، التى تغنى عن غيرها ، ولا يغنى عنها غيرها .

ذلك أن الاعتماد على النفس ، والمشاركة والتعاون بين أفراد الأسرة ، يمكن أن يتحققا فى ظل الحب والتعاطف ، كما يمكن أن يتحققا بمعزل عنهما أيضاً ، ولكنهما لو تحققا فى ظلهما ، يكون لهما معنى إنسانى أكبر ، وتكون لهما استمرارية ، ويكون لهما حماس لا يفتر .

اختلاف ، لا تفاضل :

رأينا - فى كتابنا الرابع من السلسلة - أن (الشخصية) ، أو (الذات الإنسانية) ، ليست أكثر من سلوك كتلى معقد ، فى داخله تتحدد « مجموعة من المميزات ، الجسمانية والحركية والعقلية والمزاجية والاجتماعية . . والروحية أيضاً .

ومن خلال هذا السلوك الكتلى المعقد ، المادى والروحى ، والنفسى والاجتماعى ، تعرف الشخصية ، فى خارج إطارها المادى ، وبه تترك (بصمتها) على ما حولها ومن حولها » (١) .

كما رأينا ، أن تكوين هذه الشخصية ، « يخضع لعوامل يرثها الإنسان ، كما يخضع لعوامل احتكاك الإنسان ببيئته الخارجية » (٢) ، ومن ثم كانت « من أشد معانى علم النفس تعقداً وتركيباً ، لأنه يشمل جميع الصفات ، الجسمانية والوجدانية والعقلية والخلقية ، فى حالة تفاعلها بعضها مع بعض ، وتكاملها فى شخص معين ، يعيش فى بيئة اجتماعية معينة » (٣) .

---

(١) دكتور عبد الغنى عبود : الانسان فى الاسلام ، والانسان المعاصر (مرجع سابق) ، ص ١١٢ .

(٢) الدكتور احمد زكى صالح : علم النفس التربوى — الطبعة الثامنة — مكتبة النهضة المصرية — ١٩٦٥ ، ص ٧٠ .

(٣) الدكتور يوسف مراد : مبادىء علم النفس العام — من (منشورات جماعة علم النفس التكاملى) — الطبعة الرابعة — دار المعارف بمصر — ١٩٦٢ ، ص ٣٦٣ .

ومن ثم كانت الشخصية كالبصمة ، تدل على صاحبها وحده ، ولا يمكن أن تدل على غيره ، « بمعنى أننا قلما نجد ذاتين إنسانيتين متشابهتين ، رغم أن (المادة الأولية) لكل منهما ، واحدة » (١) .

فهى ليست مسالة اختلاف بين رجل وامرأة ، أو بين ذكر وأنثى ، وإنما هى اختلاف بين كل الناس ، يؤدى إلى تفاوت بين كل إنسان ، وغيره من الناس .

وقد يكون هذا الاختلاف كبيراً ، وقد يكون صغيراً ، ولكنه اختلاف موجود على أية حال .

ومثلما يزيد هذا الاختلاف ، بين (جنس) الإنسان و (جنس) الحيوان ، وبين الجنسين و (جنس) الطيور . . أو الأسماك . . أو الحشرات . . فإنه لابد أن يزيد — ولكن بدرجة أقل — بين الرجل والمرأة ، بحكم الاختلاف (الفسيولوجى) بينهما . . تماماً كذلك الاختلاف الفسيولوجى الأوضح ، بين الإنسان عموماً ، والحيوان مثلا .

وهو اختلاف لا يشرف هذا ، أو يحط من قدر ذاك ، لأنه اختلاف يمكن كل منهما من أن يقوم بوظيفته المرسومة له ، فى حياة الإنسان ، تماماً مثلما نجد الاختلاف بين الإنسان وغيره من مخلوقات الله ، اختلافاً يمكن كل مخلوق من هذه المخلوقات ، من أن يقوم بدوره المقدر له ، على خريطة الهرم الكونى الواسع .

ويكاد كتابنا الثالث من كتب السلسلة (الإسلام والكون) ، أن

---

(١) دكتور عبد الغنى عبود : « التعليم مدى الحياة فى الاسلام » — المقولة الثانية من : فى **التربية المعاصرة** — الجزء الأول — الطبعة الأولى — دار الفكر العربى — ١٩٧٧ ، ص ٤٩ .

يدور كله حول هذا الهرم الكونى الواسع ، وتنوع (الأدوار) فيه ، بما يؤدى — فى النهاية — إلى ذلك التكامل الرائع الأخاذ، فى حياة كل المخلوقات، التى تملأ هذا الكون الواسع .

ومن ثم يكون القول بالمساواة بين الرجل والمرأة ، قولا يدل على (خلل عقلى)، لأنه لا مساواة بالفعل ، لا بين الرجل والمرأة ، ولا بين رجل ورجل، وإنما هناك اختلاف واضح ، يؤكده العلم الحديث .

وقضية المساواة ، يمكن أن تضر بالرجل والمرأة معاً ، لأنها ضد منطق الأشياء ، وقد أضرت بهما ـ بالفعل ـ فى المجتمعات المتحضرة ، التى أخذت بها ، لأسباب تاريخية ، سنراها فيما بعد .

ومن ثم — أيضاً — يكون القول (بالتفاضل) ـ نتيجة لهذا الاختلاف ـ قولا يدل على (خلل عقلى) أيضاً ، لأن التفاضل لا يمكن أن يقوم على أساس الاختلاف فى النوع ، والاختلاف فى المواهب والملكات والإمكانيات الطبيعية المتاحة ، وإنما هو يمكن أن يقوم — ولا بد أن يقوم — على أساس (مدى) استغلال هذه المواهب والملكات والإمكانيات المتاحة . . استغلالا يعود بالخير ، على النفس ، وعلى الجميع .

ولا شك فى أن العالم أفضل من الجاهل ، وفى أن الغنى أفضل من الفقير ، وفى أن القوى أفضل من الضعيف .

ولكن هذا (الفضل) فى كل حالة ، لا يعود إلى العلم ، أو إلى الغنى ، أو إلى القوة ، وإنما هو يعود إلى أن الإمكانيات المتاحة للعالم ، أكثر من الإمكانيات المتاحة للجاهل ، وفى أن الإمكانيات المتاحة للغنى ، أكثر من الإمكانيات المتاحة للفقير ، وفى أن الإمكانيات المتاحة للقوى ، أكثر من الإمكانيات المتاحة

الضعيف . . وهكذا ، فلو كان العالم أو الغنى أو القوى خيراً ، فإنه يكون أقدر على نشر هذا الخير ، من الجاهل والفقير والضعيف .

ولكن : لنفرض أن العالم أو الغنى أو القوى . . شرير — فكيف يكون الأمر ؟

لا شك فى أن العلم أو الغنى أو القوة هنا . . ستكون نقمة وخطراً .

أى أن الفضل لا يعود إلى العلم أو الغنى أو القوة ، فى حد ذاتها، وإنما هو يعود إلى (كيفية) توجيهها واستغلالها . . للصالح الخاص ، وللصالح العام على السواء .

ومن ثم يكون (التفاضل) على أساس الذكورة والأنوثة . . تفاضلا مختلا، لأنه تفاضل لا يقوم على الأساس الصحيح، الذى يجب أن يقوم عليه التفاضل، وهذا الأساس الصحيح ، هو استغلال المواهب والإمكانيات المتاحة . . مهما كانت محدودة . . فى صنع حق وخير وجمال ، تكون بها الحياة — بالفعل — إنسانية .

وقد تكون المرأة أقدر على ذلك كله من الرجل ، وهنا تكون أفضل منه . . ولكنها قد لا تكون .

وقد يكون الرجل أقدر على ذلك كله من المرأة، وهنا يكون أفضل منها . . ولكنه قد لا يكون .

إلا أن (الرجل) لن يكون قادراً على القيام بوظائفه، إلا إذا كان رجلا، وإلا إذا استجاب لدوافع (الرجولة) فيه ، كما أن (المرأة) لن تكون قادرة على القيام بوظائفها ، إلا إذا كانت امرأة ، وإلا إذا استجابت لدوافع (الأنوثة) فيها .

وكم هى سيئة فى عيوننا وفى ضمائرنا . . المدنية الغربية الحديثة ، وما أدت إليه من تخنث الرجل ، وتشبه النساء بالرجال . . حيث (مسخت) الجنسين، فلم يعد أى منهما قادراً على الاستمتاع بحياته ، والقيام بوظائفه الحيوية ، التى خلق لها .

ويرى المرحوم عباس العقاد ، أن هذا الاختلاف « بين الذكورة والأنوثة ، لايقف عند حد الإنسان ، وإنما هو يتعداه إلى الحيوان أيضاً ، « فكل ما فى طبيعة الجنس (الفزيولوجية) فى أصل التركيب ، يدل على أنه علاقة بين جنس يريد ، وجنس يتقبل، وبين رغبة داعية ورغبة مستجيبة، تتمثلان على هذا النحو فى جميع أنواع الحيوان ، التى تملك الإرادة، وترتبط بالعلاقة الجنسية ،وقتاً من الأوقات . .

وعلى وجود الرغبة الجنسية عند الذكور والإناث، لا تبدأ الأنثى بالإرادة والدعوة ، ولا بالعراك للغلبة على الجنس الآخر ، وليس هذا مما يرجع فى أصوله إلى الحياء ، الذى تفرضه المجتمعات الدينية ، ويزكيه واجب الدين والأخلاق ، بل يشاهد ذلك بين ذكور الحيوان وإناثها ، حيث لا يعرف حياء الأدب والدين .

فلا تقدم الإناث على طلب الذكور ، بل تتعرض لها ، وتتبعها ، وتسيطر عليها باختيارها ، ولا تزال الأنثى بموقف المنتظر ، لنتيجة العراك عليها بين الذكور ، ليظفر بها أقدرها على انتزاعها .

وأدل من ذلك على طبيعة السيطرة الجنسية ، أن الاغتصاب إذا حصل ، إنما يحصل من الذكر للأنثى ، ولا يتأتى أن يكون هناك اغتصاب جسدى ، من أنثى لذكر ، وأن غلبة الشهوة الجنسية ، تنتهى بالرجل إلى الضراوة والسطوة ، وتنتهى بالمرأة إلى الاستسلام والخشية »(١).

---

(١) عباس محمود العقاد : المرأة فى القرآن ــ دار الاسلام بالقاهرة ــ ١٩٧٣ ، ص ١٣ .

ومن ثم يفرض المنطق ، أن يظل هذا (التنوع) موجوداً ، وأن يدعم، طالما كانت فيه مصلحة الجنس البشرى ، وفيه سعادة الرجل والمرأة معاً ، كما أن فيه سعادة بقيـة أعضاء الأسرة ، من أطفال ، ومن كبار فى السن ، لأنها (سنة) الحياة ، كما أرادها خالق الحياة والأحياء سبحانه ؛ وهو بخلقه أعلم .

والخروج على هـذه السنة ، خروج على كل أسباب السعادة ، كما تشهد بذلك الحياة فى المجتمعات الغربيـة المتقدمة ، بعد أن رفعت المرأة شعار (المساواة) ، واستجاب لها المجتمع ، فراحت المرأة اليوم ـ نفس المرأة ـ تنادى بالعودة إلى (عصر الحريم) ، كما كانوا يحبون أن يطلقوا عليه . . فقد ثبت للمرأة أن (عصر الحريم) هو عصر المرأة ، لأن المرأة ، بعيدا عن المطبخ ،و(مملكة)المنزل .. التى تخرج الأجيال الصالحة للحياة ، لا تستطيع أن تكون رجلا ، وليس من صالحها أن تكون رجلا . . لأنها خلقت امرأة ، ومن صالحها أن تعيش امرأة ، بعد أن زودها ربها بإمكانيات النساء ومواهبهن ، ولم يمنحها أية إمكانية من إمكانيات الرجال .

ويقول العلم الحديث ، بأن هذه الطبيعة مختلفة بالفعل ، فليس الاختلاف بين الذكورة والأنوثة ، مجرد اختلاف بين أجهزة الذكورة وأجهزة الأنوثة . . ولكنه اختلاف بينهما ، تتبعه اختلافات . . فى التكوين الداخلى ، وفى إفرازات الغدد والهرمونات ، وتتبعه — نتيجة لذلك — اختلافات فى وظائف الأعضاء ، وقدرات هذه الأعضاء ، واختلافات فى الإمكانيات العقلية . . والانفعالية والمزاجية ، فقد « ثبت للعلم الحديث ، أن المرأة تختلف عن الرجل ، من عدة نواحى :

— فمن الناحية التشريحية والتركيبية — تختلف المرأة عن الرجل ، فى الطول والوزن ، فالرجل أثقل وزناً ، وأطول قامة » .

« وبالنسبة للصدر ، نجد أن صدر المرأة أضيق منه عند الرجل بكثير ، وعظام اليدين والأكتاف تكون أضعف عندها ، وشكلها ليس مستقيماً تماماً » .

« ومن الناحية الفسيولوجية (الوظيفية) ، فإننا نجدها تتخذ شكلا يتناسب والاختلافات التشريحية ، فنجد أن كبد الرجل ودمه ، يحتويان على كمية أكبر من الحديد » .

« ومن الناحية السيكلوجية (النفسية) ، نجد أن العاطفة عند المرأة ، قد بلغت حداً ميز تصرفاتها وشعورها ، عن نظيرتها عند الرجل ، وهذه هبة من عند الله ، الذى قدر كل شيء ، فأحسن تقديره ، إذ أن الوظيفة الرئيسية للمرأة ، هى تربية الأطفال ، وتنشئة الأجيال ، وهذا يتطلب كثيراً من العطف والحنان ، يعجز الرجل عن توفيرها لابنه »(١) .

ولذلك يرى الدكتور ألكسيس كاريل ، الطبيب الفرنسى الشهير ، أن « الاختلافات الموجودة ، بين الرجل والمرأة ، لا تأتى من الشكل الخاص للأعضاء التناسلية ، ومن وجود الرحم والحمل ، أو من طريقة التعلم ، إذ أنها ذات طبيعة أكثر أهمية من ذلك . . إنها تنشأ من تكوين الأنسجة ذاتها ، ومن تلقيح الجسم كله ، بمواد كيمائية محددة ، يفرزها المبيض . ولقد أدى الجهل بهذه الحقائق الجوهرية ، بالمدافعين عن الأنوثة ، إلى الاعتقاد بأنه يجب أن يتلقى الجنسان تعليما واحداً ، وأن يمنحا قوى واحدة ، ومسئوليات متشابهة ،

---

(١) محمد الهادى الحاج : « هل تتساوى المرأة بالرجل ؟ » — **العلم والايمان** — مجلة علمية شهرية ، تصدرها وزارة الاعلام والثقافة ، بالجمهورية العربية الليبية — ١٣٩٦/١ — ١٩٧٦/١ ، ص ٩٤ ، ٩٥ .

والحقيقة أن المرأة تختلف اختلافاً كبيراً عن الرجل . فكل خلية من خلايا جسمها تحمل طابع جنسها.. والأمر نفسه صحيح بالنسبة لأعضائها.. وفوق كل شيء بالنسبة لجهازها العصبي . فالقوانين الفسيولوجية غير قابلة للين ، مثل قوانين العالم الكوكبي .. فليس فى الإمكان ، إحلال الرغبات الإنسانية محلها . ومن ثم فنحن مضطرون إلى قبولها كما هى .

فعلى النساء أن ينمين أهليتهن ، تبعاً لطبيعتهن ، دون أن يحاولن تقليد الذكور ، فإن دورهن فى تقدم الحضارة ، أسمى من دور الرجال ، فيجب عليهن ألا يتخلين عن وظائفهن المحددة »(١).

ثم يختم الدكتور كاريل كلامه هذا بقوله : « فهناك اختلافات لا تنقض بين الجنسين .. ولذلك فلا مناص من أن نحسب حساب هذه الاختلافات، فى إنشاء عالم متمدين » (٢) .

الأسرة والمجتمع :

الأسرة مجتمع صغير ، كما رأيناه أكثر من مناسبة ، فيما سبق ، فى هذا الفصل ، وفى الفصل الذى سبقه .

والأسرة — كمجتمع صغير — لها كل مقومات هذا المجتمع ، من حيث تنوع أفراده ، وتنوع وظائف هؤلاء الأفراد ، ومن حيث أنها (كيان) مترابط ، تجمع بين أعضائه (مصالح مشتركة) ، ولابد لهذا الكيان ، من رأس مدبر ، يقود القافلة كلها ، إلى أمام .

والأسرة مجتمع صغير ، وهى — فى الوقت ذاته — الخلية الأولى للمجتمع الكبير ، ولا وجود للمجتمع الكبير .. بدونها .

---

(١) ألكسيس كاريل (مرجع سابق) ، ص ١٠٨ ، ١٠٩ .
(٢) المرجع السابق ، ص ١١١ .

وبعبارة أخرى : إن الملامح العامة للحياة فى المجتمع الكبير ، إنما تتشكل خيوطها الأولى ، فى داخل الأسرة ، ثم يتلقف المجتمع الكبير الإنسان ، وقد شكل على النحو الذى تريده الأسرة ، لا على النحو الذى يريده المجتمع ، بالضرورة .

فعلى قدر التماسك بين أفراد الأسرة — مثلا — يكون التماسك بين أفراد المجتمع ، وعلى قدر تفككها ، يكون تفكك هذا المجتمع ، وعلى قدر ما يشيع بين أفراد الأسرة ، من حب أو تباغض ، ومن تعاون أو تنافر ، ومن تسلط واستسلام ، أو تعاون وتآزر ، نجد ذلك كله ينتقل من البيت المغلق ، إلى المجتمع المفتوح ، فيكون أسلوبا اجتماعيا عاما ، لاسياسة أسرية محدودة .

وكم من دعوات اجتماعية كريمة ، تحطمت على عتبات الأسرة ، وكم من محاولات للهدم والتدمير ، تصدت لها الأسرة .

ومن تلك القيم ، التى تنتقل من الأسرة إلى المجتمع ، علاقة الكبير بالصغير ، والصغير بالكبير . . سواء كان هذا الكبير أبا ، أو جدا ، أو أخاً كبيراً . . أو رئيساً فى العمل ، أو رئيس دولة .

وللشيوخ « مكانتهم المرعية فى المجتمعات الشرقية ، ولقد دعا الإسلام إلى تقديرهم واحترامهم » . . « وتضعف هذه المكانة ، فى المجتمعات الغربية المعاصرة ، لأنها تؤمن بالقوة والسرعة ، والجاذبية الجنسية ، وهى صفات لا تتوفر لجيل الشيوخ » (١) .

---

(١) دكتور فؤاد البهى السيد : الأسس النفسية للنمو ، من الطفولة الى الشيخوخة — الطبعة الرابعة — دار الفكر العربى — ١٩٧٥ ، ص ٤٢٩ .

وإذا كان احترام الصغير للكبير ، جزءاً من تقاليد الأسرة الشرقية من قديم ، دعمه الإسلام ، وذلك بسبب ظروف هذه الأسرة ، كما رأيناها فى الفصل الأول ، فى الوقت الذى لا نراه فى الأسرة الغربية ، للظروف التى أحاطت بهذه الأسرة ، كما سبق ـ فإن ذلك يعود بالدرجة الأولى إلى علاقة الكبار بالصغار ، والصغار بالكبار ، فى الأسرتين .

ثم تنتقل هذه العلاقة — فى الأسرتين ـ من مكانها المغلق ، الذى نشأت فيه ، إلى المجتمع الواسع الكبير ، متمثلة فى علاقات العمل ، بين الرئيس والمرءوس مثلا . . ما لم يحكم هذه العلاقات بديل آخر ، هو القانون ، أو التقاليد الاجتماعية ، أو الحاجة ، أو ما إلى ذلك ، كما نرى فى المجتمعات الغربية اليوم ، ولكنها تغدو وسائل عاجزة . . تتحطم أمام أى عائق يعترض سبيلها ، وما أكثر هذه العوائق .

ثم لا يجب أن ننسى أن الأسرة هى (المدرسة) الأولى للطفل ، من خلال ما (يتشربه) فيها ، من قيم ومهارات ومعلومات وسلوكيات . . ومن « قديم الأزمنة ، كانت الرقابة والإشراف على التعليم ، فى يد الأسرة ، التى كانت مسئولة عن تدريب أطفالها ، والتعود على عادات القبيلة »(١) ، و « كان التقليد الأعمى للوالدين فى بعض العادات ، يلعب دوراً كبيراً فى ذلك »(٢) ، وكان هذا التقليد ، « يصاحب بقليل من التعليم ، أو يتم بلا تعليم على الإطلاق »(٣) .

وإلى الدور التربوى ، الذى تقوم به الأسرة فى هذا المجال ، يعزو

---

(١) الدكتور وهيب ابراهيم سمعان : دراسات فى التربية المقارنة (مرجع سابق) ، ص ١٣ .

(2) GOODSELL, WILLYSTINE, Op. Cit., p. 42.

(3) Ibid., p. 44.

جودسل ، ذلك (الصمود) ، الذى صمده اليهود ، عبر تاريخهم الطويل ، رغم ما عانوه من اضطهاد وتفرق وتشتت ، عبر تاريخ اليهود الطويل ، فقد «كان المنزل هو المؤسسة التربوية الوحيدة للجماهير ، حتى عصر المسيح ، وكان الآباء هم المدرسين الأساسيين ، وكانت العلاقة بين الآباء اليهود وأطفالهم ، ذات طابع بطريركى . وفى يد الأب ، كانت توجد سلطة تامة ، فيما يتعلق بتدريب الأطفال ، وتوجيه حياتهم ، حتى بعد زواجهم ، إذ لايتم هذا الزواج إلا برغبة الأب . وكان الاحترام الكامل للوالدين ، مصحوباً بالطاعة العمياء ، مطلوبين من كل الأطفال اليهود ، منذ طفولتهم . وحتى فى الوقت الحاضر ، يعتبر الوفاء الشديد ، والعطف التام ، من الأطفال اليهود ، لآبائهم المسنين ، ظاهرين ، عكس ما نراه فى اتجاه الأطفال من الأجناس الأخرى ، نحو آبائهم » (١) .

« وعلى ذلك ، فقد كانت الأسرة اليهودية ، مدرسة ذات قيمة خلقية واجتماعية . وبوصف هذه الأسرة كانت تقوم ، على أساس أنها منظمة متماسكة قوية ، فإنها تقوم بوظائف محددة ، اجتماعية ودينية واقتصادية وتربوية ، فإن المنزل اليهودى كان يقوم بوظائف ، عكس الوظائف التى تقوم بها منازلنا الحديثة الفردية ، التى أوكلت هذه المهام كلها لوكالات متخصصة ، كالمدرسة والكنيسة والنوادى والمنظمات المختلفة ، الخاصة بالصغار » (٢) .

وقد كان هذا الدور الأساسى ، الذى قامت به الأسرة اليهودية وتقوم به ، هو الذى مكن اليهود ، من الإبقاء على « عاداتهم واعتقاداتهم حية ، طوال هذه العصور ، رغم ما خضع له اليهود ، منذ ثمانية عشر قرناً ، من

---

(1) Ibid., pp. 73, 74.
(2) Ibid., p. 76 .

فقدان لأرض يسكنونها ، وتشرد فى البلدان »(١) .

وهكذا،(بالأسرة اليهودية)، استطاع اليهود أن يخلقوا المجتمع اليهودى ، رغم أن أوصال هذا المجتمع ظلت ممزقة . طوال ثمانية عشر قرناً من الزمان ، حتى أتيح لهم — فى النهاية — لم هذه الأوصال الممزقة ، ليكونوا — من خلالها - المجتمع الإسرائيلى . . فى دولة إسرائيل .

والأسرة اليهودية، تعتبر من الأسر الشرقية،ومن ثم فهى تستمد مقوماتها الأساسية ، من تلك المقومات الأساسية، التى رأينا الأسرة الشرقية عموماً ، تقوم عليها(١) ، كما تتحدد العلاقات بين أعضائها ، فى ضوء تلك العلاقات ، التى رأيناها تتحدد فى هذه الأسرة الشرقية .

وحتى السمة الأساسية ، التى رأيناها تصبغ الأسرة الشرقية ، منذ أقدم عصورها ، وهى نزعة التعصب الجنسى والعنصرى ، استطاعت الأسرة الشرقية — على وجه العموم — أن تتحرر منها ، مع المتغيرات الدولية المعاصرة ، أما الأسرة اليهودية، فقد ظلت أسيرة لها ، مما كان سبباً فى كثير من المشاكل ، التى تعرض لها اليهود ، عبر تاريخهم الطويل .

إلا أن ثمة شيئاً واحداً ،تنفرد به الأسرة اليهودية ، عن الأسر الشرقية، وهو ذلك التكالب على المادة، بشكل لافت للنظر ، وهى سمة استمدتها هذه الأسرة ، من تاريخها الطويل . الذى لم تعرف فيه الاستقرار فى أرض ، ولا الإحساس بأمن، فصار هدفها فى الحياة ، أن تسيطر على المال ،وتحصل

---

(١) الدكتور عبد الله عبد الدائم : تاريخ التربية — من منشورات كلية التربية بجامعة دمشق — مطبعة جامعة دمشق — ١٩٦٠ ، ص ١٤ .

(٢) ارجع الى ص ١٩ ، ٢٠ من الكتاب .

عليه ، بكل سبيل ، تسد به ذلك (الفراغ) القاتل ، الذى يتركه فى النفس ، فقدان الأرض وفقدان الأمن معاً .

الأسرة كوحدة من وحدات المجتمع :

ينقسم المجتمع — أى مجتمع — إلى عدد من الوحدات ، يختلف عددها وأهميتها ، باختلاف (المنظور) ، الذى يتم على أساسه تقسيم المجتمع إلى وحدات .

فمن ناحية ، يمكن تقسيم المجتمع — من حيث العمالة — إلى عمال وفلاحين ونجارين وسباكين وأطباء ومهندسين ومدرسين ، وغيرهم . كما يمكن تقسيم كل فئة من هذه الفئات ، إلى وحدات أقل ، فنقول مثلا عمال زراعيون ، وعمال بناء وتشييد ، وعمال رصف طرق ، وعمال نظافة ، وهكذا .

ومن ناحية أخرى ، يمكن تقسيم المجتمع ـ من حيث الفئات العمرية ـ إلى شيوخ ، ورجال ، وشباب ، وأطفال ، ويمكن تقسيم كل فئة من هذه الفئات ، إلى وحدات أقل .

ومن ناحية ثالثة ، يمكن تقسيم المجتمع — من حيث المستوى الاقتصادى — إلى أثرياء ، ومتوسطين ، ومحدودى الدخل ، ومعدمين . . . وهكذا .

فكل مجتمع من المجتمعات ، القديمة والحديثة ، يتفتت على هذا النحو ، إلى ما لا ينتهى من التقسيمات .

ورغم ذلك ، فإن كل مجتمع من هذه المجتمعات ـ فى النهاية — يجتمع

تحت إطار كبير ، هو ذلك الذى يطلق عليه اليوم ، اسم (المجتمع) ، أو (الشخصية القومية) .

فلفظ المجتمع – على هذا الأساس – ليس « بالشيء البسيط الهين ، وإنما هو كائن حى كبير ، بما فيه من أفراد ، ، «وبما فيه من أنظمة وقوانين ، ومافيه «منشآت ومؤسسات ، ومابه من علاقات اجتماعية وسياسية واقتصادية ، وما به من عقائد وديانات ، وما بينه وبين العالم الخارجى من روابط وتفاعلات ، وما وصل إليه من درجة تقدم حضارى »(١) .

وهذا المجتمع ، ليس – فى الحقيقة – إلا (محصلة) لمجموع أبنائه ، أفراداً .. ووحدات – أو جماعات ، تماماً مثلما يترك هذا المجتمع – فى النهاية –(بصمته) على كل فرد من أفراده ، وعلى كل وحدة من وحداته ، أو جماعة من جماعاته .

ويمتاز أى تقسيم للمجتمع إلى فئات ، (بالتجانس) . . فيما عدا ذلك التقسيم له إلى أسر .

فهناك تجانس بين الفلاحين ، وتجانس بين العمال ، وتجانس بين النجارين .. كما أن هناك تجانساً بين الصغار ، وتجانسا بين الكبار .. وهكذا .

أما الأسرة ، فليس بين أعضائها مثل هذا التجانس ، وإنما هناك (تنوع) واضح ، حيث لا نجد فردا من أفرادها يشبه الآخر ، لا فى السمات ، ولا فى الإمكانيات المتاحة ، ولا فى الوظائف الملقاة على عاتقه ، فرب

---

(١) دكتور عبد الغنى النورى ، ودكتور عبد الغنى عبود : نحـو فلسفة عربية للتربيـة – الطبعـة الأولى – دار الفكر العربى – ١٩٧٦ ، ص ٤٨ ، ٤٩ .

الأسرة يختلف فى ذلك كله عن زوجته .. وهما معاً يختلفان فى ذلك كله عن الأبناء ، والأبناء يتفاوتون فى ذلك كلـــه ، بحسب الجنس ، وبحسب الترتيب العمرى للأبناء ، وغيرها .

ومن هذا (التنوع) ، يأتى (التكامل) فى حياة الأسرة ، وتأتى قدرتها على أن تكون أكثر (تمثيلا) للمجتمع ، من غيرها من الفئات الاجتماعية الأخرى ، التى تقوم على (التجانس) بين أعضائها .

ذلك أن حياة أى مجتمع ، تقوم على (التنوع) بين أبنائه، وأنها تتحطم ، إذا كانت هناك محاولات لإحداث (التجانس) ، بين هؤلاء الأبناء(١) .

ومن هنا كان الازدهار والتقدم والرقى .. فى ظل الديموقراطية ،وكان التخلف فى ظل الديكتاتورية ، لأن الديموقراطية تقوم على التنوع ، بينما تقوم الديكتاتورية على التوحيد والشمولية .

ومن ثم يمكن اعتبار الأسرة — كالمجتمع — مؤسسة اجتماعية ، كما يمكن اعتبارها مؤسسة سياسية واقتصادية ودينية وترفيهية وثقافية .

والأسرة — كالمجتمع — مؤسسة اجتماعية ، بمعنى أنها تتكون من مجموعة من البشر ، يعيشون تحت سقف واحد ، رغم مابينهم من (تنوع) أو (تفاوت) ، ومن مصلحتهم جميعاً أن يرتفع شأن هذه المؤسسة الاجتماعية، من كافة النواحى ،لأن ارتفاع شأنها، يعود على جميع أفرادها بالخير ،وانخفاض شأنها ينعكس أيضاً على جميع أفرادها ، شقاء وتعاسة ، وضيقا فى الموارد .

---

(١) عالجنا — بتوسع — هذه القضية ، فى كتابنا السابق من السلسلة، عند حديثنا عن قضية (المساواة) — ارجع الى :
— دكتور عبد الغنى عبــود : قضية الحرية ، وقضايا أخرى (مرجع سابق) ، ص ٧٤ — ٧٦ .

ويقوم نجاح الأسرة ، كمؤسسة اجتماعية ، على أساس ما يسود أفرادها من حب ، رغم ما بينهم من تنوع ، ففيهم الرجل البالغ — رب الأسرة أو ابنه الكبير — الذى يشقى ، ولكنه لا يشكو ، بل هو سعيد بشقائه . وفيهم الطفل الصغير ، الذى يستمتع ، أو يستهلك ، دون أن ينتج ، ورغم ذلك لا يحس بأنه (يتسول) ، أو بأنه (عبء) على غيره . . وفيهم كذلك الشيخ الفانى ، الضعيف المريض ، الذى يخدمه الجميع ويقدرونه ، ويسهرون على راحته . . رغم أنه طاقة مستهلكة ، غير منتجة ، ورغم أنه ـ بالفعل ـ عبء على جميع أفراد الأسرة.

ورغم ذلك كله . فالكل محب للأسرة ، والكل مقيد بها . . والكل يساهم فى دعمها ، سواء بالعمل أو بالكلام ، أو بالمشورة والرأى . . أو بحسن النية وحدها ، فالكل فيها — على نحو من الأنحاء — راع ، والكل مسئول عن رعيته ، على حد تعبير الحديث الشريف المشهور .

والأسرة — كالمجتمع ـ مؤسسة سياسية ، بمعنى أن لها كبيراً يقود ، لا يقل فيما يلقى عليه من أعباء وتبعات ومسئوليات ـ عن رئيس الدولة ، وقد يمارس هذا الكبير تسييره لأمور الأسرة ، بطريقة استبدادية ، لا يكون فيها رأى سوى رأيه ، ولا قرار سوى ما يتخذه ، وقد يمارس هذا الكبير تسييره لهذه الأمور ، بطريقة ديموقراطية ، تعتمد على الشورى .

وبقية أفراد الأسرة ، فى هذه المنظمة السياسية ، يكونون (مهتمين) بشئون الأسرة ، أو فاقدين لهذا الاهتمام بهذه الشئون ، حسب مسلك كبير الأسرة معهم ، فتصرفاتهم ليست إلا (رد فعل) لمسلك هذا الكبير .

ثم إن لهذه الأسرة أسرا أخرى مجاورة ، أو تربطها بها صلة قرابة ، وبين هذه الأسرة والأسر المجاورة أو القريبة علاقات . . شبيهة بتلك

العلاقات القائمة، أو التي يجب أن تقوم ، بين الدول المتجاورة ، أو التي تربطها بها روابط معينة ، كتلك الروابط التي تربط بين انجلترا والولايات المتحدة، أو بين انجلترا واستراليا ، أو بين البلاد العربية المختلفة ، أو بين البلاد الإسلامية ، وهكذا .

والعلاقات يمكن أن تتحدد على نحو معين ، بين هذه الأسرة ككل ، أو بين كل فرد من أفرادها ، وبين الأسر الأخرى ، ككل ، أو كأفراد ، تماماً كما تتحدد العلاقات على نحو معين ، بين الدول المتجاورة ، أو التي تربط بينها روابط .

وهكذا ، تكون النزعة العدوانية ، التي تبدو على شعب معين ، منشؤها الأسرة ، واستجابتها لضغوط الحياة عليها على نحو معين .. كما تكون نزعة الحب ، التي تسود أفراد المجتمع ، منشؤها الأسرة أيضاً . . كما تكون السلبية التي تبدو على أبناء مجتمع معين ، تجاه القضايا العامة . . منشؤها الأسرة أيضاً ، وهكذا .

ولا نريد أن نعزو الأمر كله إلى الأسرة ، وكأنها هي الفيصل في هذه القضايا جميعا ، والمؤثر الوحيد فيها . . وإنما يجب أن نتذكر ، أن الأسرة لا تعدو أن تكون (خلية) ، من الخلايا العديدة ، التي يتكون منها الكيان الاجتماعي الكبير . ومن ثم فالأسرة — فيما تسلك مع أفرادها — تكون متأثرة — في سلوكها هذا — بالإطار الاجتماعي العام .

وفي جو الديكتاتورية ، على سبيل المثال ، نجد الكبار في الأسرة ينصحون أبناءهم وذويهم ، بتجنب الحديث في السياسة ، وبألا يهتم الواحد منهم إلا بنفسه ، في خارج البيت ... أي أنهم يعلمونهم (السلبية)، لا من باب التسلط عليهم ، ولكن من باب الرحمة بهم .

ولكن يجب ألا ننسى ، أن الأسرة هنا ، هي التي تطبع أيضاً ، رغم أن البصمة الكبرى هنا ، هي بصمة الحكم ، وأسلوبه .

والأسرة — كالمجتمع كذلك — مؤسسة اقتصادية ، فكل فرد فيها منتج ، حتى ولو بدا — لقصار النظر — مستهلكا غير منتج .

ورب الأسرة ، هو الذى يبدو منتجا أمام العيون ، ومن ثم فلا جدال حول الدور الاقتصادى ، الذى يقوم به فى حياة الأسرة ، سواء كان يعمل عاملا أو فلاحا أو موظفاً أو رئيس دولة .. وسواء كان يزاول عملا حراً ، يديره بنفسه ، أو يزاول عملا ، يتبع فيه غيره ، مقابل ما يحصل عليه من أجر .

والزوجة فى البيت منتجة أيضاً ، بإدارتها شئون هذا البيت ، وبدونها ما تمكن رب الأسرة ، من أن يقوم بوظيفته الاقتصادية ، خارج المنزل ، الذى يعود إليه — بعد عناء العمل — ليجد (الجو) الذى يمسح كل نقطة عرق ، بذلت فى مجال العمل الخارجى .

يضاف إلى ذلك ، أن مسئولية المرأة عن إدارة البيت ، (تريح) زوجها من أعباء هذه الإدارة ، ليتفرغ تماما لعمله الخارجى .. وبدون هذا التفرغ للعمل الخارجى ، ما كان رب الأسرة لينتج فى عمله ، ولا ليكون قوة اقتصادية لها قيمة .

ويضاف إلى ذلك — أيضاً — أن قيام المرأة بأعمال المنزل ، (يوفر) لرب الأسرة مصروفات كبيرة ، كان عليه أن يدفعها ، لو تمت له بالخارج .. كتكاليف الطعام على سبيل المثال(١).

---

(١) تعتبر الحياة فى أوربا وأمريكا — على سبيل المثال — رخيصة جدا ، ومتيسرة ، فى حالة قيام البيت بأعباء هذه الحياة ، ولكنها — فى الوقت ذاته — تعتبر باهظة التكاليف ، لو تمت خارج البيت . فالوجبة الغذائية فى مطعم متواضع مثلا ، تتكلف أربعة أو خمسة أمثال نفس الوجبة ، لو طبخت فى البيت ، وذلك بسبب ادخال الأيدى العاملة ، التى انتجت هذه الوجبة فى المطعم ، مضافا اليها أرباحه بطبيعة الحال ، ضمن تكلفتها .

فالقول بأن المرأة (عالة) على الرجل ، إذا لم تعمل ، قول سخيف ، مردود عليه .

وأوضاع المرأة العاملة فى مصر ، على سبيل المثال ، تدل على أن هذه المرأة العاملة مظلومة وظالمة — فهى مظلومة بشقائها الذى تشقاه ، جريا وراء وسائل المواصلات ، وضغط العمل ، والأجر المتواضع ، الذى تنفق معظمه على ملابسها وانتقالاتها . . وعلى مظاهر حياتها .

وهى ظالمة ، لأنها تحرم بيتها من مال كثير ، كان يمكن أن توفره له ، لو أنها عادت إلى وظيفتها الطبيعية — فى البيت ، كما تحرم بيتها من وسائل الرعاية البسيطة ، لزوجها وأولادها .

وكثير من أبناء العاملات — فى مصر — فاشلون ، بسبب انشغال الأم عنهم .

أما الأبناء ، وكبار السن ، فهم قوة منتجة أيضاً ، وإن بدوا عكس ذلك .

وهم قوة منتجة ، بما يمنحونه للقوة المنتجة الحقيقية ، من زاد روحى ، ومن تفاؤل ، ومن رضا عن النفس . . تزيد طاقتهم الإنتاجية الحقيقية . . أضعافا مضاعفة .

الفصل الثالث

الزواج

تقـــديم :

الزواج – باختصار – هو تلك الصورة (المنظمة) ، التى يتم بها التقاء الرجل بالمرأة ، تحت سقف واحد ، ليتم – من خلال هذا الالتقاء – تحقيق حاجات معينة ، بيولوجية ونوعية ونفسية واجتماعية واقتصادية ، وحضارية .. لكل منهما منفردين ، ولهما مجتمعين ، وللمجتمع الذى يعيشان فيه ، وللإنسانية ككل .

أو هو « عقد ، يتفق بمقتضاه رجل وامرأة ، على أن يرتبطا معاً ، من أجل المعيشة المشتركة ، ومن أجل أن يتبادلا المودة والرحمة ، لخيرهما المشترك ، ولخير أولادهما ، وذلك فى حدود ما يقضى به القانون » .

« وغنى عن البيان ، أن القانون لا يسمح بقيام الزواج ، إلا بشروط معينة ، يحددها ، ويستهدف بها أن يكون الزواج أساساً صالحاً ، لقيام أسرة سليمة ، قوية الأركان »(١) .

وبدون فهم هذا الزواج ، وما يحققه من حاجات متنوعة ، على نحو ما سبق ، لا يمكن فهم ذلك (التطور) ، الذى مر به الزواج ، عبر عصور

---

(١) الدكتور عبد الفتاح عبد الباقى : القانون والحياة – رقم (٢٨) من (المكتبة الثقافية) – وزارة الثقافة والارشاد القومى – الادارة العامة للثقافة – دار القلم بالقاهرة – أول يناير ١٩٦١ ، ص ٧٦ .

التاريخ الإنسانى ، ولا (الانتكاسات) التى أصابته ، فى عصور تاريخية معينة ، ولا حتى اختلاف مفهوم (الأسرة) ، بين الشرق والغرب ، كما رأيناه طوال الفصل الأول من هذا الكتاب(١) ، ولا ذلك الاختلاف الذى نراه بشأنه ، بين الديانات السماوية الثلاثة ، الموجودة إلى اليوم : اليهودية والمسيحية والإسلام .

ولو تتبعنا التطور التاريخى للزواج ، سواء من خلال التطور التاريخى — أو الحضارى — للإنسان ، أو من خلال تطور الفكر الدينى له .. لوجدنا هذا التطور التاريخى له ، يدعم هذه الصورة (المنظمة) ، لالتقاء الرجل بالمرأة ، بحيث تستطيع الأسرة — من خلال هذا الالتقاء — القيام بوظائفها التى رأيناها من قبل ، والوفاء بما يراد لها أن تفى به ، من إشباع لمختلف الحاجات .

فقد كان الزواج — فى أول أمره — يشبع حاجة .. ليخفق — فى مقابلها — فى إشباع حاجات .. حتى جاء الإسلام ، فكان الزواج فيه — كما سنرى — هو الأقدر على إشباع كل الحاجات .

الزواج فى العصور البدائية الأولى :

لم تعرف العصور البدائية الأولى الزواج ، بمعنى حياة رجل وامرأة ، تحت سقف واحد ، فى صورة منظمة ، لتحقيق حاجات معينة .. وإنما عرفته بمعنى (التقاء) بين رجل وامرأة ، يتم به إشباع حاجة واحدة ، هى الحاجة البيولوجية ، متمثلة فى الغريزة الجنسية .

وكانت الحاجة الجنسية تشبع ، وكانت ثمرة تجنى من وراء هذا الإشباع ،

---

(١) ارجع الى ص ١٧ وما بعدها من الكتاب .

هى جنين فى البطن ، سرعان مايتحول إلى وليد ، مجهول الأب أو معروفه ، فتلك قضية لم تكن تعنى الإنسان فى هذه العصور البدائية الأولى ، وإنما الذى كان يعنيه ، هو أن هذا (الوليد) ، كان (قوة) مطلوبة ، ينتظرها الإنسان فى هذه العصور ، ليستعين بها على نوائب الدهر ، وما أكثر نوائب الدهر فى هذه الأيام ، وما أشد الحاجة وقتئذ ، إلى الأيدى العاملة .. أو التى تعد لأن تكون عاملة .

ومن ثم كانت المرأة فى هذه العصور قوة ، بما كان يمكن أن تحمله فى بطنها ، من (قوى) مذخورة ، تستعين بها القبائل ، فى مواجهة الحياة .

وسارت هذه المجتمعات البدائية الأولى شوطا فى طريق الحضارة ، فبدأ السعى فى ضم الطفل الوليد إلى أبيه ، وخلق (أسرة) ، يتم فى ـ حضانتها ـ تنشئة هذا الطفل الوليد ، وكان ذلك يتم أول الأمر ، بخطف الرجل لزوجته ، و (فرض) الحياة الجديدة عليها .

وكانت بداية تكوين الأسرة على هذا النحو ، بداية لخلق مأساة .

ذلك أن الخطف هنا ، خطف لمصدر من مصادر القوة ، ومن ثم فهو تهديد للأمن .

ولذلك كان هذا الخطف ، يتم بقوة مسلحة ، أو بغارة تشن ، لتجمع بين الأليفين البشريين .

وكان رد فعل هذه الغارة ، غارة مضادة ، حفاظاً على مصدر القوة هذا .

وكان لم شمل الأسرة ما أن يبدأ ، حتى تبدأ سلسلة من الحروب الدامية .

وكان لم شمل الأسرة هذا يتم ، فى جو الطبول ، طبول الحرب ، تحميه أسنة الحراب .

ولا زال دق الطبول تقليداً تسير عليه الأسر ، فى بداية مولدها ، وعلى وجه الخصوص ساعة الزفاف ، فى كل المجتمعات ، بعد أن ترسب فى أعماق الضمير البشرى ، أن الزواج إن هو إلا اغتصاب وسرقة ، لأغلى ما يملك المجتمع ، وهو الفتاة .. المنجبة .

ثم ترقى الأمر بعد ذلك ، فصار هذا (الاغتصاب) المكروه ، اغتصاباً (مشروعاً)، تعترف به القبيلة وترتضيه ، ولكن على مضض ، ولذلك كانت هناك كراهية للزواج فى خارج القبيلة ، فى هذه العهود المبكرة من حياة الإنسان على الأرض ، باعتباره (إهداراً) لطاقة القبيلة المتاحة ، وكانت الحروب تقوم بين القبائل ، إذا تم مثل هذا (العدوان) ، أو (الاغتصاب) .

وكانت القبائل تفضل ، عند زيادة عدد الإناث عن عدد الذكور فى القبيلة ، تعدد الزوجات ، على تزويج البنات فى قبائل أخرى ، باعتبار تعدد الزوجات يؤدى إلى أن تحل مشكلة نقصان عدد الذكور بالنسبة للإناث ، كما يؤدى إلى عدم (إهدار) الموارد الطبيعية المتاحة للقبيلة ، وعلى رأس هذه الموارد ، المرأة ، وما تأتى به من قوى بشرية . أما التزويج فى خارج القبيلة ، فإنه يؤدى إلى (إهدار) هذه الموارد .

بل إن القبائل ، كانت ترى من الواجب على كل رجل من رجالها — فى بعض الأحيان — أن يتزوج نساء كثيرات ، لأن مثل هذا الزواج ، يوفر للقبيلة قوى بشرية كثيرة ، تستعين بها فى حروبها . التى لا تتوقف ، ضد القبائل الأخرى .

وكان الرجال يقدرون فى القبيلة ، بقدر ما جمعوا من زوجات ، وما أتوا به من ولدان ، خاصة إذا كان هؤلاء الولدان من الذكور . . العاملين المحاربين ، المساعدين للقبيلة ، والمحافظين عليها ، والمدافعين عنها .

ولم يبدأ التفكير فى تزويج البنات فى خارج القبيلة ، إلا بعد رحلة طويلة مع الحرب وويلاتها ، حيث بدأ الإنسان (يتعب) من كثرة الحروب وطولها، وراح ينشد السلام ، فكان مثل هذا الزواج ، يعتبر لونا من ألوان (العلاقات الدبلوماسية) بين القبائل ، حيث تصبح القبيلة به حليفا للقبيلة، وعونا لها فى حروبها ، أو يصبح مثل هذا الزواج - على الأقل - ضمانا لسد جبهة من جبهات القتال ، حيث يسود السلام بين القبيلتين ، بما صار يربط بينهما من روابط دم .

الزواج فى الحضارات القديمة :

واستقر الإنسان على ضفاف الأنهار عادة ، بعد رحلة طويلة ، استمرت عدة آلاف من السنين ، ينتقل فيها هنا وهناك ، فردا أول الأمر ، ثم وسط جماعة تربطه بها رابطة دم ، فيما بعد . وأدى استقرار الإنسان على هذا النحو ، إلى تمكنه من أن يشيد حضارة .

وكان (استقرار)الإنسان على هذا النحو ، بداية استقرار نفسى ، أدى إلى تقدم علمى وحضارى، ليس هنا مجاله(١) ، تحقق فى مصر والهند والصين

(١) تعرضنا لهـذه الحضارات القديمة فى كتب كثيرة من كتب السلسلة ، خاصة كتاباها الأولان : العقيدة الاسلامية والأيديولوجيات المعاصرة — الله والانسان المعاصر ، ويمكن الرجوع اليهما لمزيد من المعلومات عن هذه الحضارات القديمة . كما يمكن الرجوع — لهـذا المزيد — الى كتب التاريخ القديم ، وكتب تاريخ التربية ، باللغتين العربية والانجليزية ، وبعض هـذه الكتب وارد ضمن قائمة المراجع .

وآشور وبابل ، كما أدى إلى (إعادة نظر) فى المسائل الاجتماعية ، كنتيجة من نتائج هذا التقدم الحضارى ، وذلك الاستقرار النفسى ، وفى مقدمة هذه المسائل الاجتماعية ، وضع الدولة - ذلك الوليد الجديد ، الذى فى ظله تحقق (الأمن) للمواطن ، داخلياً وخارجياً على السواء، وكذلك وضع الأسرة - ذلك الوليد الجديد والقديم معاً .

وهو وليد جديد ، لأن الأسرة بمفهومها الحديث ، كما رأيناه فى تقديمنا لهذا الفصل، تعتبر جديدة على حياة الإنسان ، الذى تعود أن (يندمج) فى مجموعة كبرى ، هى (القبيلة) ، فلم يعرف الزوج أو الزواج ، وإنما عرف (شقه) الثانى ، حين يحتاج إليه بيولوجيا فقط .

وهو وليد قديم ، لأن احتياج شق إلى الشق الثانى ، حتى ولو لم يتم اللقاء بين الشقين بصورة منظمة ، قديم قدم الحياة ذاتها ، لا بالنسبة للإنسان وحده ، ولكن بالنسبة لكل الكائنات الحية ، فهو سنن طبيعى فى الحياة ، كما رأينا فى الفصل الثانى ، عند حديثنا عن (المعنى الطبيعى للأسرة) (١) .

وهكذا نستطيع أن نقول : إن الإنسان قد قضى الشطر الأكبر من حياته ، فى عصور ماقبل الحضارة،على غير السنن الطبيعى لحياته الأسرية ، وقد وصل إلى هذا السنن ، بولوجه عصوره الحضارية ، وبداية إحساسه بآدميته ، ومعنى هذه (الآدمية) .

فالزواج — بمعناه المتعارف عليه الآن — وبأى مقياس من المقاييس — ظاهرة حضارية، لا تقل شأناً فى حياته ، عن مبتكراته الفكرية ، ومنجزاته التكنولوجية ، وإبداعاته الأدبية والفنية . ودعاوى (التحرر) من هذا الزواج ، تحت أى شعار ، دعاوى للرجوع بالإنسان ، عدة آلاف من

---

(١) ارجع الى ص ٥٠ — ٥٣ من الكتاب .

السنين ، إلى عهود البربرية الأولى ، قبل أن يعرف الإنسان الاستقرار ، وقبل أن يعرف للحضارة طعما .

ومثل هذه الدعاوى، ليست قاصرة على الزواج وحده ، فقد ظهرت فى أعقاب الثورة الصناعية فى الغرب مباشرة (منتصف القرن الثامن عشر) ، مدرسة فلسفية كبرى ، تسمى (المـــدرسة الطبيعية) ، كان من أعلامها الفيلسوف الفرنسى الشهير ، جان جاك روسو Jean Jacques Rousseau (١٧١٢ — ١٧٧٨) ، وعدد من الفلاســـفة المشهورين ، منهم باسيدو ، وهربرت سبنسر ، وسير برسى نن ، والعالم النفسى ماكدوجل McDougall ، والأديب الانجليزى الساخر ، برناردشو ، وكان محورها هو السخرية من هذه الحضارة الغربية ، والمناداة بالعودة إلى الطبيعة ، ومن هنا كان اسمها .

وليس معنى ذلك أن (المدرسة الطبيعية) فى الفلسفة ، ضد الزواج ، وضد المدنية والحضارة . ولـكن معناه أن الحضارة الغربية قد أنشأت الـكثير ، ولـكنها دمرت الأكثر والأهم ، ومن ضمن ما دمرته ، الأسرة ، ومن ثم تـكون العودة إلى الطبيعة هنا ، تعنى دعم الأسرة ، بوصفها سننا طبيعيا — لا تحطيم هذه الأسرة .

وإذا كان الإنسان البدائى ، قد خرج فى علاقته بالشق الآخر ، على هذا السنن الطبيعى ، تحت ضغوط الحياة من حوله ، فما أظن الإنسان الحديث واقعا تحت مثل هذه الضغوط ، وإنما هو إنسان (أفرغته) الحضارة الحديثة — بماديتها — من كل القيم الإنسانية ، فلم تبق منه إلا جسداً فارغا ، فـكان قلقه ، وكان أرقه ، وكان تدميره لـكل جميل فى هذه الحياة .. ومن ثم كانت الأسرة هدفا من الأهداف ، التى يتجه إليها لتدميرها .

وهو شر يتهدد الحضارة الحديثة كلها على أية حال ، ولا يقف خطره عند حد الأسرة .

وعلى النقيض من هذا المسلك ، الذى يسلكه الإنسان المعاصر مع الأسرة ، فى فترة (ذبول) الحضارة المعاصرة ، كان المسلك الذى سلكه الإنسان البدائى ، عندما بدأ يضع أقدامه على طريق الحضارة ، حيث بدأ يعرف معنى (الأسرة) ، كما بدأ يشق طريقه إلى الله ، ويعرف الدين ، ويعرف حقوق الغير عليه .

وقد عرف الإنسان الزواج ، بمجرد استقراره — كما سبق ، وبدأت المجتمعات المتحضرة القديمة . (تنظم) العلاقة بين الرجل والمرأة ، وكان هذا التنظيم — بطبيعة الحال — يختلف من مجتمع متحضر قديم إلى آخر ، باختلاف الظروف المؤثرة فى كل مجتمع من هذه المجتمعات .

ففى الصين القديمة ، حيث قسوة الطبيعة ، كانت الحاجة إلى الأسرة ، مبكرة فى ضمير الإنسان الصينى ، وبسبب قسوة الطبيعة أيضاً ، تطور مفهوم هذه الأسرة بسرعة ، من (الأسرة الصغيرة) التى تتكون من الأب والأم والأولاد ، إلى (الأسرة الكبيرة) - أو القبيلة ، إلى (الأسرة الكبرى) - او الدولة ، « فالصينى — بسبب الظروف الجغرافية القاسية التى أحاطت به من قديم — يحب للأسرة بأنواعها الثلاثة ، يحس بالولاء العميق لها ، ويتسم بالطاعة للمسئولين عنها ، فى أدب شديد ، وهو مستعد للبـــذل فى سبيلها ، والصبر فى بنائها ودعمها ، وإن بدا أحيانا عنيفا قاسيا ، إلا أن عنفه وقسوته ، من أجلها أيضاً .

وليس ذلك غريباً ، فقد كانت هذه الأسرة ، هى التى وفرت له (الأمن) ، الذى كان ينشده ، فى أحضان هذه الطبيعة القاسية »(١) .

---

(١) دكتور عبد الغنى عبود : دراسة مقارنة لتاريخ التربية (مرجع سابق) ، ص ٨٩ .

وإلى هذا (التقديس) للأسرة منذ أقدم العصور فى الصين ، يعزو الدارسون، نزعة (ولاء) الصينى لأسرته ، بأنواعها الثلاث، ونزعة (استبداد) رب هذه الأسرة، فيلاحظون أن الولاء للأسرة ، يعد « أبرز الظواهر التى يتسم بها تكوين الصين السياسى » ، وأن هذا الولاء ، هو الذى خلق « القدرة ، التى كان نواب الملك بالصين ، ينفذون بها سياسات الإدارة المركزية ، وذلك حين كانت حكومة بيكين نفسها ، ضعيفة وفاسدة ، وعديمة الكفاية »(١) .

فهو ليس استبداداً ، بالمعنى القريب للاستبداد ، حيث (يقهر) فرد بقية الأفراد، ويغلبهم على أمرهم، ولكنه استبداد (اختيارى) ، يهرع إليه الأفراد أنفسهم ويرتضونه .. سواء كان المستبد ، أبا ، أو رئيس قبيلة ، أو رئيس دولة .

ولم يكن غريباً ، أن تنتشر الكونفوشيوسية — كدين — فى الصين ، وأن « تدور حول هذا (الولاء للأسرة) » ، حيث ترى « أن هذا الولاء للأسرة ، أمر طبيعى فى حياة الناس ، وأنه هو الخلق والفضيلة ذاتهما » ، وأن « ضعف الولاء للأسرة » ، « هو الطريق إلى فساد الحكم وضياع المجتمع » (٢) .

وقد « ذهب كونفوشيوس الحكيم ، إلى ضرورة الطاعة العمياء من

---

(١) ك. م. بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية — ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد — مراجعة أحمد خاكى — من الفكر السياسى والاشتراكى — الجمهورية العربية المتحدة — وزارة الثقافة والإرشاد القومى — الادارة العامة للثقافة — دار المعارف بمصر — ١٩٦٢ ، ص ٧٠ .

(٢) دكتور عبد الغنى عبود : دراسة مقارنة لتاريخ التربية (المرجع الأسبق) ، ص ٩٠ .

المرأة للرجل ، ومن المحكوم للحاكم ، عن رضا تام . وهـذا اللون من الطاعة عبادة » .

كما « سميت المرأة فى كتب الصين القديمة (بالمياه المؤلمة) ، التى تغسل المجتمع ، أو تـكنسه ، من السعادة والمـال ، فهى شر، يستبقيه الرجل بمحض إرادته ، ويتخلص منه بالطريقة التى يرتضيها ، ولو بيعا ، كبيع الرقيق والمتاع، حتى كان بالصين ، ثلاثة ملايين جارية ، عام ١٩٣٧ »[١] .

والصين — من الناحية التاريخية — أحدث حضارة ، من أى بلد آخر ، ذى حضارة قديمة ، فقد بدأ تاريخها المدون سنة ٢٠٠٠ ق . م على سبيل المثال ، بينما دخلت الهند هذا التاريخ حوالى سنة ٣٠٠٠ ق . م ، ودخلته مصر سنة ٤٢٤١ ق . م ، وذلك بسبب اعتدال جو مصر، وخصوبة أرضها، وجريان نهر النيل وسط هذه الأرض ، مما جعلها (مركز تجمع) للهجرات البشرية ، منذ أقدم العصور .

أما الصين ، فهى على النقيض من ذلك ، من حيث هذه الميزات جميعاً .

وتقف الهند ، التى تقع جغرافيا بينهما ، حدا وسطا بين تطرف مصر فى عطائها ، وتطرف الصين فى قسوتها .

ولذلك ، نجد الأسرة أسبق إلى الوجود فى مصر ، لأن شعب مصر أسبق إلى الاستقرار من شعب الصين ، ومن شعب الهند أيضاً .

---

(١) عبد المتعال محمد الجبرى : المرأة فى التصور الاسلامى — الطبعة الرابعـة — مكتبـة وهبـــة — رمضان ١٣٩٨ هـ — اغسطس ١٩٧٨ م ، ص ١٥٦ .

ولذلك — أيضاً — نجد الأسرة المصرية ، أكثر تحضرا من الأسرة الصينية ، ولذلك نجد المرأة قد حصلت فى مصر — مثلا — « على شىء من حريتها وسيادتها ، وهو ما لم يكن موجودا فى الثقافات الشرقية »(١) . فقد كانت — كما رأيناها فى الصين — بجرد تابع ذليل للرجل ، يتصرف فيها — وفى بقية أفراد الأسرة — كما يشاء ؛ بوصفه ربا للأسرة .

ويكفى أن بعض النساء تولى حكم مصر ، لعل أشهرهن على الإطلاق: حتشبسوت ، التى حكمت مصر فى عصرها الامبراطورى ، خلفاً لوالدها تحتمس الأول ، الذى وسع رقعة مصر ، بعد طرد الهكسوس - وكذلك نفرتيتى ، وكليوباترة .

وباختصار ، عرفت مصر القديمة نظام الأسرة ، قبل أن تعرفه الهند والصين ، و « نالت النساء منزلة مرموقة فى المجتمع المصرى القديم ، فقد تساوت النساء مع الرجال ، فى الطبقة الواحدة ، التى ينتمون إليها ، وكانت آلهة منهن ، عبدها الشعب ، بل إن فى عقود الزواج شرط طاعة الزوج لزوجته ، كما كانت النساء يمتلكن ويورثن »(٢) .

وأصبحت الأسرة — فى مصر القديمة — قريبة مما هى عليه اليوم ، قريبة مما هى فى الفكر الإسلامى ، كما سنراه فيما بعد ، فى الفصلين الرابع والخامس من الكتاب ، حيث حدد « المصريون وضع الزوج فى الأسرة ، فختموا عليه أن يتكفل بضروريات زوجته وكمالياتها ، وارتضوا له أن

(1) SMITH, WILLIAM A., Op. Cit., p. 89, Quoted: Traver, Albert A.; History of Civilization, Volume I, The Ancient Near East and Greece, p. 138.

(٢) دكتور سعد مرسى أحمد ، ودكتور سعيد اسماعيل على (مرجع سابق) ، ص ٨١ .

يستخفى بفضائل زوجته عن نقائصها ، وشجعوه على أن يطريها ويلاينها . ولكن قدروا له أنه رب الأسرة أولا وأخيراً ، وأنه قوام على زوجته ، يوجهها ويهذبها، ويؤدبها حين الضرورة ، وعليه ألا يستكين لها ، فيما يمس كرامته ، ويتنافى مع سلامة رأيه » (١) .

وفى مقابل ما على رب الأسرة من (التزامات) ، قرروا له بعض الحقوق ، رأينا بعضها فيما سبق ، فيما يتصل بزوجته ، كما يمكن أن نرى بعضا منها على أبنائه ، حيث « افترض المجتمع له حقوقا واسعة على ولده ، أولها الطاعة والاحترام ، ولم يأب عليه أن يقوم سلوك ولده ، ويأخذه بالشدة إذا ضل ، ولم يعمل بنصائحه ، سواء بالضرب أو التأنيب ، أو التبرؤ منه جملة » (٢) .

«على أنه أياما كانت سلطة الأب المصرى على أولاده ، فهى جد معقولة ، إذا قورنت بأمثالها فى مجتمعات قديمة أخرى : فقد أباح الاسبرطيون الإغريق للأب، حق الإحياء والإماتة على ولده فى طفولته، وأباح الرومان للأب، حق رهن ولده وبيعه» (٣) .

ونستطيع أن نرى من حكم هؤلاء المصريين ، مدى نضجهم ونضج تفكيرهم ، فى هذا الموضوع ، فها هو (آنى) ، ينصح ابنه (جنس حتب)، بقوله : « لا تجعل من نفسك رئيساً على زوجك فى المنزل ، وبخاصة إذا كانت

---

(١) دكتور عبد العزيز صالح : الأسرة فى المجتمع المصرى القديم — رقم (٤٤) من (المكتبة الثقافية) — وزارة الثقافة والارشاد القومى — الادارة العامة للثقافة — دار القلم بالقاهرة — أول سبتمبر ١٩٦١ ، ص ٨ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٧٧ ، ٧٨ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٨١ .

قديرة فى عملها ، بل لاحظ أعمالها فى صمت ، وتعرف عليها ، وساعدها ، وبذلك تتجنب كل خلاف فى البيت »(١) .

أى أن الحضارات القديمة كلها عرفت الزواج ، لأنه أول الطريق إلى تكوين (الأسرة) ، ولأنه اعتراف من المجتمع بأهمية هذه الأسرة ، كوحدة أولى ، يقوم عليها البنيان الاجتماعى ، غير أن علاقة الرجل بالمرأة ـ بالزواج ـ قد تفاوتت ، بين التبعية الذليلة للرجل ، فى أول السير فى طريق الحضارة ، وبين حقوق تعطى للمرأة ، عندما يصل المجتمع إلى درجة معينة من الحضارة .

ولا نناقش الآن حقوق المرأة تلك ، وإنما نؤجلها إلى الفصول التالية ، فى المناسبات المختلفة ، التى نتعرض فيها لهذه الحقوق .

والحضارات القديمة حين عرفت الزواج ، عرفته فى ضوء تصور كامل للحياة والأحياء ، وللطبيعة وما وراءها ، ظهر من خلال (دين) ، يؤمن به أبناء المجتمع ، وإن كان هذا الدين وضعيا ... توصل إليه أحد أبناء المجتمع ، أو بعض أبنائه ، ولم تتنزل به من السماء رسالة .

أما عند الإغريق ، فقد كان الفهم الغربى للأسرة ، كما رأيناه فى الفصل الأول(٢) ، هو المسيطر ، ولذا لم تصل النظرة إلى المرأة ، رغم تقدم الإغريق حضارياً ، إلى ما وصلت إليه فى مصر والصين ، فقد كان الإغريق «يعدونها

---

(١) محرم كمال : الحكم والأمثال والنصائح ، عند المصريين القدماء ـ رقم (٧١) من (المكتبة الثقافية) ـ وزارة الثقافة والارشاد القومى ـ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ـ دار القلم بالقاهرة ـ ١٥ أكتوبر ١٩٦٢ ، ص ٩٤ .

(٢) ارجع الى ص ٢٢ ، ٢٣ من الكتاب .

رجساً من عمل الشيطان »(١)، و« كانت الأساطير Mythology اليونانية ، قد اتخذت من امرأة خيالية ، تسمى (باندورا) Pundora ، ينبوع جميع آلام الإنسان ومصائبه »(٢) ، وعاملوها — فى التربية — كما يعامل« العبيد ، وغير الأثينيين »(٣) .

الزواج فى اليهودية :

اليهودية دين سماوى ،ومع ذلك فهى أبعد ما تكون عن ديانات السماء .

ذلك أنها ليست ديناً واحداً من ديانات السماء، وإنما هى سلسلة طويلة من الديانات ، التى نزلت على بنى إسرائيل ، وأن هذه الديانات المتعددة ، قد حرفت على نحو معين ، وصبت جميعا فى قالب واحد ، يعكس النفسية الإسرائيلية ، ويحقق أهداف بنى إسرائيل ، على حساب الجنس البشرى كله(٤) .

ومن ثم كانت اليهودية - كدين - انتكاسة بالبشرية ، وبالفكر البشرى ، إلى مرحلة متأخرة من مراحل البدائية ، هى المرحلة القبلية ، التى كان الدين — فيها — دين القبيلة وحدها، والإله إلهها وحدها، والدنيا كلها لها ، وليس لغيرها — معها — فى الحياة — نصيب .

---

(١) محمد عطية الابراشى : مكانة المرأة فى الاسلام — دار الشعب — ١٩١٧ ، ص ٥ .

(٢) أبو الأعلى المودودى : الحجاب — دار التراث العربى ، ص ٨ .

(٣) دكتور سعد مرسى أحمد : تطور الفكر التربوى — عالم الكتب — ١٩٧٠ ، ص ١٢٨ .

(٤) ونتبه هنا ، الى أننا قد خصصنا لبنى اسرائيل كتابا من كتب السلسلة ، ربما كان الكتاب الحادى عشر أو الثانى عشر ، وما نوجزه هنا عن بنى اسرائيل واليهودية ، نرآه مفصلا فى هذا الكتاب باذن الله .

فاليهود — على حد تعبير المرحوم عباس العقاد — « قبيلة لم تتطور » ، « فهى فى حالة العزلة الاجتماعية ، وما يلازمها عند البدو من عزلة (العصبية) ، بالدم والسلالة »(١) ، ومن ثم كانت « اليهودية ، أو الإسرائيلية » — « كما يدل عليها اسمها — أشبه بالعصبية ، المحصورة فى أبناء إسرائيل ، منها بالدعوة العامة لجميع الناس »(٢) ، « وهى لهذا تشبه الهندوكية والشنتية ، فى أنها ديانة مقفلة ، أى ليست من ديانات الدعوة ، وإنما تختلف بأن الهندوكية والشنتية ، كلتاهما ديانة شعب مستقر فى وطنه ، منذ عهد بعيد ، وأن اليهود تعرضوا للشتات غير مرة »(٣) ، وأنهم — بتحريفهم الكتب السماوية ، وصبها فى قالب واحد ، يسيرون عليه ، ويلتزمون به حرفيا — يرون أن « اليهود شعب واحد ، يتميز بصفات عرقية سامية » ، وأن « العلاقة مع الشعوب والأمم الأخرى — الجوييم — علاقة عداء ونفور ، فى إطار ما يسمى بمعاداة السامية »(٤) ، ومن ثم كان « التقوقع اليهودى » ، « هو أحد الأسلحة ، التى تستخدمها الصهيونية ، تحقيقاً لأغراضها » ، مضافا إليه « اصطناع وسيلة الإرهاب والعنف ، عندما تتاح أول فرصة لاصطناعها »(٥) .

---

(١) عباس محمود العقاد : الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين — رقم (٣٠٩) من (المكتبة الثقافية) — الهيئة المصرية العامة للكتاب — ١٩٧٤ ، ص ٥٦ .

(٢) عباس محمود العقاد : عبقرية محمد — دار الكتب الحديثة — القاهرة — ١٣٨٥ هـ — ١٩٦٦ م ، ص ٣٢ .

(٣) عباس محمود العقاد : ما يقال عن الاسلام — دار الهلال — ١٩٧٠ ، ص ٣٦ .

(٤) العنصرية الصهيونية ، فى الفكر والتطبيق — جامعة الدول العربية — الأمانة العامة — الادارة العامة لشئون فلسطين — يوليو (تموز) ١٩٧٦ ، ص ١٢ ، ١٣ .

(٥) دكتور زكى نجيب محمود : ثقافتنا فى مواجهة العصر — الطبعة الأولى — دار الشروق — يناير ١٩٧٦ ، ص ٣٠٥ .

وفى إطار هـذا الدين اليهودى الغريب ، نرى الزواج فى اليهودية أغرب .

وتنظر التوراة إلى المرأة على أنها أساس كل البلايا فهى التى أخرجت الجنس البشرى كله من جنة عدن، بأكلها من الشجرة التى حرمها الله عليها وعلى زوجها فى الجنة : « فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل ، وأنها بهجة للعيون ، وأن الشجرة شهية للنظر . فأخذت من ثمرها وأكلت ، وأعطت رجلها أيضاً معها فأكل »(١) .

وعندما غضب الله — فى نظر التوراة — من آدم وعاتبه ، « فقال آدم : المرأة التى جعلتها معى ، هى أعطتنى من الشجرة فأكلت ، فقال الرب الإله للمرأة ، ما هذا الذى فعلت ؟ فقالت المرأة : الحية غرتنى فأكلت »(٢) .

ثم كانت النتيجة ، أن عاقب الله المرأة عقابا مضاعفاً ، « وقال للمرأة : تكثيراً أكثر أتعاب حبلك . بالوجع تلدين أولادا . وإلى رجلك يكون اشتياقك ، وهو يسود عليك »(٣) .

ومن منطق (سيادة) الرجل على المرأة هذا ، نرى كل الشرائع المتصلة بالزواج ، فى الفكر الدينى اليهودى .

فللرجل حق اتخاذ أكثر من زوجة ، ومن حقه أن يكره من زوجاته من يشاء ، وأن يحب منهن من يشاء :

---

(١) العهد القديم : سفر التكوين — ١ : الاصحاح الثالث : ٦ ، ٧ .

(٢) العهد القديم : سفر التكوين — ١ : الإصحاح الثالث : ١٢ : ١٣ .

(٣) العهد القديم : سفر التكوين — ١ : الاصحاح الثالث : ١٦ .

- «إذا كان لرجل امرأتان، إحداهما محبوبة، والأخرى مكروهة...»(١).

ومن حق الرجل — رغم ذلك — أن يتخذ سرارى وإماء وجوارى :

— «إذا خرجت لمحاربة أعدائك ، ودفعهم الرب إلهك إلى يدك ، وسبيت منهم سبيا ، ورأيت فى السبي امرأة جميلة الصورة ، والتصقت بها ، واتخذتها لك زوجة ؛ فحين تدخلها إلى بيتك، تحلق رأسها ، وتقلم أظفارها ... وإن لم تسر بها ، فأطلقها لنفسها»(٢) .

وللرجل — كذلك — حق طلاق زوجته ، متى شاء ، ولأى سبب :

— «إذا أخذ رجل امرأة ، وتزوج بها ، فإن لم تجد نعمة فى عينيه ، لأنه وجد فيها عيب شيء، وكتب لها كتاب طلاق ، ودفعه إلى يدها، وأطلقها من بيته . ومتى خرجت من بيته ، ذهبت وصارت لرجل آخر ؛ فإن أبغضها الرجل الأخير ، وكتب لها كتاب طلاق ، ودفعه إلى يدها ، وأطلقها من بيته ، أو إذا مات الرجل الأخير الذى اتخذها له زوجة ... »(٣) .

وتكاد المرأة — فى الفكر الدينى اليهودى — أن تكون مسلوبة الإرادة تماماً ، فهى لابد أن تتزوج الرجل الذى يتقدم إليها ، وهى تنتقل من يد هذا الرجل إلى يد أخيه ، إذا مات ولم يكن له ولد :

- «إذا سكن إخوة معا ، ومات واحد منهم ، وليس له ابن ، فلا تصر امرأة الميت إلى خارج ، لرجل أجنبى . أخو زوجها يدخل عليها، ويتخذها لنفسه زوجة ، ويقوم لها بواجب أخى الزوج ، والبكر الذى تلده ، يقوم باسم أخيه الميت ، لئلا يمحى اسمه من إسرائيل . وإن لم يرض الرجل أن يأخذ امرأة أخيه ، تصعد امرأة أخيه إلى الباب إلى الشيوخ ، وتقول : قد

---

(١) العهد القديم : سفر التثنية — ٥ : الاصحاح الحادى والعشرون : ١٥ .

(٢) العهد القديم : سفر التثنية — ٥ : الاصحاح الحادى والعشرون : ١٠ — ١٤ .

(٣) العهد القديم : سفر التثنية — ٥ : الاصحاح الرابع والعشرون : ١ — ٣ .

أبى أخو زوجى أن يقيم لأخيه اسما فى إسرائيل. لم يشأ أن يقوم لى بواجب أخى الزوج . فيدعوه شيوخ مدينته ، ويتكلمون معه ، فإن أصر وقال : لا أرضى أن أتخذها ، تتقدم امرأة أخيه إليه أمام أعين الشيوخ ، وتخلع نعله ، وتبصق فى وجهه ، وتصرخ وتقول : هكذا يفعل بالرجل الذى لا يبنى بيت أخيه . فيدعى اسمه فى إسرائيل : بيت مخلوع النعل » (١) .

ولست أرى هناك بدائية فى الزواج ، أكثر من هذه البدائية التى ترفعت عنها ، حتى القبائل البدائية الأخرى – غير اليهودية .

وهى حالة واحدة، يكره الرجل فيها على الزواج من امرأة ، لا إكراما للمرأة ومواساة لها ، ولكن إكراما لرجلها الذى فقدته ، ومن أجل حقه فى أن يكون له اسم يخلد فى إسرائيل، حتى ولو كان هذا الابن الذى سيخلده، سيكون من أخيه (الزوج الجديد) ، لا منه هو .

الزواج فى المسيحية :

وعلى قدر ما أطلقت اليهودية يد الرجل فوق المرأة ، كبلت المسيحية هذه اليد تماما ، رغم أن المسيحية ـ عقائديا ـ رد فعل لليهودية ، ورغم أنها ـ تاريخيا ـ بنتها البكر ، وكثيراً ما تأتى البنت على نقيض أمها .

ونظرة المسيحية إلى المرأة ، ليست بأفضل من نظرة اليهودية إليها ، فالمرأة فى المسيحية ، هى سبب كل خطايا البشر ، بما ركب فيها من شر فطرى أصيل.

ولسنا نجد فى الأناجيل المعترف بها من الكنيسة ، شيئاً يتصل ببدء الخليقة، وذلك لأن هذه الأناجيل ، تعتبر ـ فى الفكر الدينى المسيحى ـ هى (العهد الجديد) ، المكمل (للعهد القديم) ـ أى (التوراة) ـ كتاب اليهود. ومن

---

(١) العهد القديم : سفر التثنية ـ ٥ : الاصحاح الخامس والعشرون : ٥ ـ ١٠ .

ثم فذكر القصة فى (سفر التكوين) - كما رأيناها من قبل (١) - يغنى عن ذكرها فى (العهد الجديد) ، ولكننا نجد فى هذه الأناجيل المعترف بها من الكنيسة ، صدى لها فى الزواج المسيحى ، على نحو ما سنرى .

ولا نجد القصة موجودة - مفصلة - إلا فى (إنجيل برنابا)، الذى لا تعترف به الكنيسة ولا تقره ، وتفصيلات القصة فيه ، هى أن الله عندما رأى « الإنسان وحده ، قال : (ليس حسنا أن يكون وحده) . فلذلك نومه ، وأخذ ضلعا من جهة القلب ، وملأ الموضع لحما ، فخلق من تلك الضلع حواء ، وجعلها امرأة لآدم ، وأقام الزوجين سيدى الجنة » (١) ، وجعلهما يتمتعان بكل مافيها من خير ، فيما عدا « التفاح والحنطة »(٢) . « ودخل الشيطان الجنة عن طريق حية . . . » ، « وضعت الشيطان بجانب حواء ، لأن آدم زوجها كان نائما . فتمثل الشيطان للمرأة ملاكا جميلا ، وقال لها : (لماذا لا تأكلان من هذا التفاح وهذه الحنطة ؟) . أجابت حواء : (قال لنا إلهنا : إنا إذا أكلنا منها ، صرنا نجسين ، ولذلك يطاردنا من الجنة) . فأجاب الشيطان : إنه لم يقل الصدق . فيجب أن تعرفى أن الله شرير وحسود . ولذلك لا يحتمل أندادا ، ولكنه يستعبد كل أحد . وهو إنما قال لكما ذلك ، لكيلا تصيرا ندين له »(٤) .

واستيقظ آدم ، واستطاعت حواء أن تقنعه بالأكل من التفاح والحنطة ، فعصى أمر ربه ، فاستحقا - كلاهما - لعنة الله :

---

(١) ارجع الى ص ٨٩ من الكتاب .
(٢) انجيل برنابا : الفصل التاسع والثلاثون : ٢٩ — ٣٥ .
(٣) انجيل برنابا : الفصل التاسع والثلاثون : ٣٦ .
(٤) انجيل برنابا : الفصل الأربعون : ١١ — ١٩ .

ـــ « فقال الله لآدم : (لتكن الأرض ملعونة بعملك ، لأنك أصغيت لصوت امرأتك، وأكلت الثمر. لتنبت لك حسكا وشوكا . ولتأكل الخبز بعرق وجهك . واذكر أنك تراب ، وإلى التراب تعود) .

وكلم حواء قائلا : (وأنت التى أصغيت للشيطان ، وأعطيت زوجك الطعام ، تلبثين تحت تسلط الرجل ، الذى يعاملك كأمة ، وتحملين الأولاد بالألم) » (١) .

ومن هنا نظرة المسيحية الزرية إلى المرأة على وجه العموم ، والتى كان من آثارها ، تفضيل الحياة بالنسبة للرجل . . بعيداً عن هـــذه المرأة ، بلا زواج ، « فحسن للرجل أن لا يمس امرأة »(٢) ، « لأنى أريد أن يكون جميع الناس كما أنا . لكن كل واحد له موهبته الخاصة من الله . الواحد هكذا ، والآخر هكذا .

ولكن أقول لغير المتزوجين وللأرامل : إنه حسن لهم ، إذا لبثوا كما أنا » (٣) ـ على حد تعبير بولس الرسول ، فى رسالته إلى أهل كورنثوس .

ثم يوضح بولس الرسول، فلسفة هذا البعد عن الزواج ، بقوله : إن « غير المتزوج يهتم فى ما للرب : كيف يرضى الرب ، وأما المتزوج فيهتم فى ما للعالم: كيف يرضى امرأ . إن بين الزوجة والعذراء فرقا . غير المتزوجة تهتم فى ما للرب ، لتكون مقدسة، جسدا وروحا،وأما المتزوجة، فتهتم فى ما للعالم: كيف ترضى رجلها ؟ » (٤) .

---

(١) انجيل برنابا : الفصل الحادى والأربعون : ١٢ ـ ١٨ .

(٢) العهد الجديد : رسالة بولس الأولى الى أهل كورنثوس ـ ٧ : الاصحاح السابع : ١ .

(٣) العهد الجديد : رسالة بولس الرسول الأولى الى أهل كورنثوس ـ ٧ : الاصحاح السابع : ٧ ، ٨ .

(٤) العهد الجديد : رسالة بولس الرسول الأولى الى أهل كورنثوس ـ ٧ : الاصحاح السابع : ٣٢ ـ ٣٤ .

ويبدو أن (منكرى) المسيحية،عندما وجدوا(استحالة) تحقيق مطلبهم هذا ، أباحوا الزواج(على مضض) ، على أن يكون هذا الزواج بواحدة ، أو على حد تعبير متى ، فى إنجيله :

— « قال له تلاميذه : إن كان هكذا أمر الرجل مع المرأة ، فلا يوافق أن يتزوج . فقال لهم : ليس الجميع يقبلون هذا الكلام ، بل الذين أعطى لهم . لأنه يوجد خصيان ولدوا هكذا من بطون أمهاتهم ، ويوجد خصيان خصاهم الناس ، ويوجد خصيان خصوا أنفسهم ، لأجل ملكوت السموات . من استطاع أن يقبل فليقبل » (١) .

أو على حد تعبير بولس الرسول، فى رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس ، السابق الإشارة إليها :

— « ولكن إن لم يضبطوا أنفسهم (أى غير المتزوجين والأرامل ، المشار إليهم فى الإشارة رقم٣ بالصفحةالسابقة) ، فليتزوجوا . لأن التزوج أصلح من التحرق » (٢) .

فهو زواج للضرورة ، خير منه عدم الزواج .

وما دام الزواج زواج ضرورة ، فليكن بزوجة واحدة فقط :

— « ولكن لسبب الزنا ، ليكن لكل واحد امرأته ، وليكن لكل واحدة رجلها »(٣) .

---

(١) العهد الجديد : انجيل متى — ١ : الاصحاح التاسع عشر : ١٠ — ١٢ .

(٢) العهد الجديد : رسالة بولس الرسول الأولى الى أهل كورنثوس — ٧ : الاصحاح السابع : ٩ .

(٣) العهد الجديد : رسالة بولس الرسول الأولى الى أهل كورنثوس — ٧ : الاصحاح السابع : ٢ .

ثم بنيت فلسفة الزواج فى المسيحية، على أساس هذا الواقع الجديد، الذى توصل إليه مفكرو المسيحية وفلاسفتها، رغما عنهم. فالرجل والمرأة يصيران — بعد الزواج — جسدا واحدا :

— «... وقال : من أجل هذا ، يترك الرجل أباه وأمه ، ويلتصق بامرأته ، ويكون الاثنان جسدا واحدا ، إذا ليسا بعد اثنين ، بل جسد واحد، فالذى جمعه الله ، لايفرقه إنسان» (١) . وطالما صار الرجل والمرأة جسدا واحدا ، جمعه الله، فإن فراقهما يغدو محرما ، كما يغدو محرما كذلك ، اجتماع أحد الجسدين بجسد آخر ، تحت سقف الزوجية :

— «كل من يطلق امرأته ويتزوج بأخرى يزنى . وكل من يتزوج بمطلقة من رجل ، يزنى» (٢) .

وتعترض مفكرى المسيحية وفلاسفتها مشكلة الزنا ، إذا ضبطت المرأة متلبسة به ، فماذا يكون موقف الزواج فى هذه الحالة ؟ إنه لابد أن ينهار :

— «وقيل : من طلق امرأته ، فليعطها كتاب طلاق . وأما أنا فأقول لكم : إن من طلق امرأته إلالعلة الزنى ، يجعلها تزنى . ومن يتزوج مطلقة، فإنه يزنى» (٣) .

أما تفصيلات الحياة الزوجية ، فيبدو أن مفكري المسيحية وفلاسفتها، لم يجدوا لديهم وقتا ، ليشغلوا أنفسهم بها ، خاصة وأنهم اضطروا إلى إباحة الزواج — كما سبق — تحت حكم الضرورة .

---

(١) العهد الجديد : انجيل متى — ١ : الاصحاح التاسع عشر : ٥ ، ٦ .

(٢) العهد الجديد : انجيل لوقا — ٣ : الاصحاح السادس عشر ١٨ .

(٣) العهد الجديد : انجيل متى — ١ : الاصحاح الخامس : ٣١ .

الزواج فى الاسلام :

وتبقى المرأة فى المسيحية ، كما كانت فى اليهودية ، شرا ، وإن اختلف (أسلوب) التعامل مع هذا (الشر) ، فى المسيحية ، عنه فى اليهودية .

ثم يأتى الإسلام ، ليصحح مسار الفكر الدينى الذى اختل ، بتغييره النظرة إلى الإنسان كله ، رجلا كان أو امرأة ، عربيا كان أو غير عربى ، أبيض كان أو أسود — وبتغييره النظرة إلى المجتمع ، والعلاقات التى يجب أن تربط بين أفراده ، مؤمنين كانوا أو كفارا أو كتابيين . . أو منافقين مذبذبين — وبتغييره النظرة الإنسانية إلى الأشياء — كل الأشياء ، بما يتفق وهذه النظرة الربانية ، إلى الإنسان والكون والحياة ، ومابعد الحياة .

وتأتى مسألة الزواج فى الفكر الدينى الإسلامى ، فإذا بها أخطر المسائل والقضايا ، لأنها تتصل بالرجل المسلم ، وبالمرأة المسلمة ، وبالمجتمع المسلم ، ولأنها تتصل (بالمستقبل) الإسلامى ، اتصالها (بحاضر) الرجل والمرأة . . من خلال (الإنسان) الصغير ، الذى يتم (تشكيله) ، فى إطار هذه الأسرة .

والرجل — فى الإسلام — كالمرأة ، من حيث التكريم والتشريف ، ومن حيث الوظائف المكلف بها كل منهما ، ومن حيث المسئوليات الملقاة عليه ، وكثيراً ما يأتى التكليف بالأعباء ، موجها إليهما معا :

— « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة ، إذا قضى الله ورسوله أمراً ، أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله ، فقد ضل ضلالا مبينا »(١) .

---

(١) قرآن كريم : الأحزاب — ٣٣ : ٣٦ .

— « والمؤمنون والمؤمنات ، بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، ويطيعون الله ورسوله ، أولئك سيرحمهم الله ، إن الله عزيز حكيم . وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار . . . »(١) .

— « المنافقون والمنافقات ، بعضهم من بعض ، يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ، ويقبضون أيديهم ، نسوا الله فنسيهم ، إن المنافقين هم الفاسقون . وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم ، خالدين فيها . . . »(٢) .

كما يأتى الثواب والعقاب يوم القيامة ، للرجل وللمرأة معا :

— « ومن يعمل من الصالحات ، من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، فأولئك يدخلون الجنة ، ولا يظلمون نقيرا »(٣) .

— « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم ، بأحسن ما كانوا يعملون »(٤) .

وكثيراً ما يأتى الخطاب والتكليف والحديث كله ، موجها إلى الرجال ، ومقصود به الجنس البشرى كله ، من رجال ونساء :

— « ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن ، فلا يخاف ظلما ولا هضما »(٥) .

---

(١) قرآن كريم : التوبة — ٩ : ٧١ ، ٧٢ .
(٢) قرآن كريم : التوبة — ٩ : ٦٧ ، ٦٨ .
(٣) قرآن كريم : النساء — ٤ : ١٢٤ .
(٤) قرآن كريم : النحل — ١٦ : ٩٧ .
(٥) قرآن كريم : طه — ٢٠ : ١١٢ .

— « فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن ، فلا كفران لسعيه ، وإنا له كاتبون »(١) .

— « هو الذى خلقكم ، فمنكم كافر ومنكم مؤمن ، والله بما تعملون بصير »(٢) .

— « أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا ؟ لا يستوون . أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فلهم جنات المأوى ، نزلا بما كانوا يعملون . وأما الذين فسقوا فمأواهم النار ، كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها ، وقيل لهم : ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون . ولنذيقنهم من العذاب الأدنى ، دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون »(٣) .

والقرآن الكريم ، حينما يخاطب الجنس البشرى كله ، رجاله ونساءه ، من خلال توجيه الخطاب للمذكر ، إنما يفعل ذلك من منطق (المساواة) التامة بين الرجل والمرأة ، كما يؤمن بها الإسلام ، وحينما يوجه حديثه للرجال والنساء ، منفصلا أحدهما عن الآخر ، إنما يفعله من باب (التأكيد) ، من خلال زيادة (التفصيل) ، تأكيداً لأهمية الأمر الذى يتحدث عنه .

وأحيانا يوجه القرآن الكريم خطابه وحديثه إلى الرجال دون النساء ، أو إلى النساء دون الرجال ، إذا كان الحديث يتصل بأعباء ومسئوليات ومهام ، يكلف بها (جنس) الرجال وحده ، أو (جنس) النساء وحده :

— « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ، ويحفظوا فروجهم ، ذلك أزكى

---

(١) قرآن كريم : الأنبياء — ٢١ : ٩٤ .
(٢) قرآن كريم : التغابن — ٦٤ : ٢ .
(٣) قرآن كريم : السجدة — ٣٢ : ١٨ — ٢١ .

لهم ، إن الله خبير بما يصنعون . وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن، ويحفظن فروجهن ، ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها. وليضربن بخمرهن على جيوبهن ، ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن ، أو آبائهن ، أو آباء بعولتهن ... »(١) .

بل إن النساء — فى بعض الأحيان — يكن — فى نظر الإسلام — خيراً من الرجال ، فامرأة فرعون — على سبيل المثال — خير عنده من فرعون :

— « وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون ، إذ قالت : رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ، ونجنى من فرعون وعمله ، ونجنى من القوم الظالمين »(٢).

وليس الأمر قاصراً على امرأة فرعون وفرعون ، بل إنه يتعداهما إلى كل النساء المؤمنات ، والرجال الكفار ، فالمرأة المؤمنة — على العموم — خير — فى نظره — من رجل غير مؤمن :

— « ... ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم ... »(٣) .

فالأساس — فى الإسلام — أنه لا تفرقة بين رجل وامرأة ، بسبب (الجنس) ، وإنما هناك (فرص متكافئة) للرجل وللمرأة على السواء ، بمقتضاها يمكن أن يفضل الرجل المرأة ، وأن تفضل المرأة الرجل .

ومقياس الفضل هنا ، هو هو المقياس الذى يمكن أن يفضل فيه الرجل رجلا مثله ، والمرأة امرأة مثلها ، وهو أن يحس الرجل — والمرأة —

---

(١) قرآن كريم : النــور — ٢٤ : ٣٠ ، ٣١ .
(٢) قرآن كريم : التحريم — ٦٦ : ١١ .
(٣) قرآن كريم : البقرة — ٢ : ٢٢١ .

بالعبودية لله ، ويسير على الفطرة التى فطره الله عليها ، فى ترجمة هذه (العبودية) إلى واقع حى ، فى الحياة اليومية ، من خلال تعامله مع الناس والأشياء .

فالمسألة لا تحتاج إلى بطولة عسكرية ، أو اقتدار سياسى ، أو عبقرية عقلية أو علمية ، أو نبوغ من أى نوع ، وإنما هى تحتاج إلى أن يعيش الرجل ، وأن تعيش المرأة ، لما خلق — وخلقت — له فى هذه الحياة ، وأن يقوم برسالته — وتقوم برسالتها — التى خلق — وخلقت — لها فى الحياة ، على النحو الذى يحقق بالفعل ، هذه العبودية لله ، بمعنى الانصياع لأوامره ، والسير على هدى تعاليمه .

الفصل الرابع

الأسرة المسلمة

تقـــــديم :

تبدأ الأسرة المسلمة بمجرد عقد الزواج ، فالزواج هو (المعبر) الأساسى إلى تكوين الأسرة ، وليست هناك أسرة — فى الإسلام — قبل هذا العقد .

والزواج فى الإسلام ، ليس مجرد (عقد بين طرفين) ، كما هو الحال فى الزواج فى الحضارة المعاصرة ، أو فى بعض الحضارات السابقة ، سواء كان هذا العقد مكتوبا (أو موثقا) ، أو شفويا — وإنما هو (اتفاق) بين أسرتين ، يشهد عليه المسلمون جميعا ، من حضر منهم ، والحاضر - فيه - يعلم الغائب .

ورغم أن الزواج أمر يهم المجتمع الإسلامى ، أكثر مما يهم طرفى العقد — الزوج والزوجة ، والأسرتين اللتين ينتسبان إليهما ، فإن الأساس فيه ، هو هذان الطرفان ، فرضا الزوج بزواجه من شريكة عمره ، ورضاها عن هذا الشريك ، يعد الأساس الذى يقوم عليه عقد الزواج ، وبدونه ، يعد هذا العقد (باطلا) .

ذلك أن « الأسرة لبنة من لبنات الأمة » ، « وإذا كانت الأسرة لبنة من لبنات الأمة ، فالزواج هو أصل الأسرة ، به تتكون ، ومنه تنمو » .

« ومن هنا - أيضاً - يأخذ الزواج نفس العناية ، التى تأخذها الأسرة ،

إن لم تكن أقوى وأشد »(١) .

وسوف نرى مدى هذه العناية بالزواج فى الإسلام ، ونرى أن هذه العناية لم تكن احتفاء بالزواج ذاته ، بوصفه مصدر فرحة ، بمولد أسرة جديدة ، بقدر ما كانت احتفاء بالأسس التى يقوم عليها هذا (الوليد) الجديد ، حتى ينمو فى جو صحى ، فيستطيع أن يحقق ما يفرض عليه أن يحققه من أهداف ، لطرفى الزواج ، المتعاقدين فيه ، وهما الزوج والزوجة نفساهما ، وللمجتمع كله ، التى تعتبر الأسرة نواته الأولى ، وللجيل الجديد من المسلمين ، الذين سيتمخض عنهم هذا الزواج .

الخطبـــة :

قلنا إن (الرضا والقبول) ، هما الأساس الأول ، الذى يقوم عليه الزواج فى الإسلام ، والرضا والقبول ، يتطلبان (تعارفا) بين من يعتزمان الزواج ، قبل إتمام هذا الزواج .

وتحل الحضارة الحديثة مشكلة التعارف هذه ، بأن تجعل الزواج — إن سميناه زواجا — يتم من خلاله ، دون ما واسطة بين الفتى والفتاة ، ودون ما (حد) يقف عنده هذا التعارف .

فرفع كل القيود ، التى تحول دون الاختلاط بين الفتى والفتاة ، هو الأساس ، الذى تقوم عليه هذه الحضارة الحديثة ، فى الشرق وفى الغرب على السواء ، ومن ثم فالفتى والفتاة يتعارفان مباشرة ، بعلم المنزل ، أو من وراء ظهره . وعندما يلتقى فتى وفتاة ، فى مقتبل العمر ، ليتعارفا ، على هذا النحو (المتسيب) ، فإن الوقوف بهذا التعارف عند (حد) . . يكون مستحيلا .

---

(١) الامام الاكبر محمود شلتوت : الاسلام عقيدة وشريعة — الطبعة التاسعة — دار الشروق — ١٣٩٧ هـ — ١٩٧٧ م ، ص ١٤١ ، ١٤٢ .

والمتأمل للإحصائيات الواردة من غرب أوربا والولايات المتحدة، حيث بلغت هذه الحضارة ذروتها، لا يسعه إلا أن يرى مدى (خطورة) هذا الاختلاط (المتسيب)، الذى يضيع فيه دور الأسرة، فى عملية الزواج .

إن هذه الإحصائيات ، تدل على زيادة نسبة البنات الحوامل، بشكل متزايد، فى هذه البلاد، فلقد بلغت هذه النسبة، بين « تلميذات المدارس الثانوية الأمريكية » على سبيل المثال « فى إحدى المدن، ٤٨ من المائة »(١) — وهذه المدينة هى مدينة دينفر، عاصمة ولاية كولورادو .

وتطور هذه النسبة فى الولايات المتحدة ، من العقد الأخير من القرن الماضى، وحتى منتصف هذا القرن، يدلنا بوضوح على خطورة المشكلة، فالجدول التالى (٢)، يوضح أن نسبة البنات الحوامل، فى سن الدراسة

التاريخ	النسبة فى المئة
سنة ١٨٩٠	٦ ٪
« ١٩٠٠	١٠ ٪
« ١٩١٠	١٠ ٪
« ١٩٢٠	١٤ ٪
« ١٩٣٠	١٤ ٪
« ١٩٤٠	٢٠ ٪
« ١٩٤٦	٣٠ ٪
« ١٩٤٨	٤٠ ٪

(١) سيد قطب : السلام العالمى والاسلام — الطبعة السادسة — دار الشروق — ١٣٩٤ هـ — ١٩٧٤ م، ص ٧٤ .

(٢) عن المرجع السابق، ص ٧٥ .

الثانوية ، قد ارتفعت من ٦ ٪ سنة ١٨٩٠ ، إلى ٤٠ ٪ سنة ١٩٤٨ ، وأن الزيادة فى النسبة مطردة ، وأن نموها كان مخيفاً فى اطراده ، بعد الحرب العالمية الأولى ، وأنه كان أكثر إخافة بعد الحرب العالمية الثانية ، وأن اطراد النسبة على هذا النحو ، مع التقدم الحضارى ، وما أدى إليه من تحلل ، سيجعل هذه البلاد "غربية المتقدمة ، يأتى عليها يوم ، لاتعرف فيه (الأسرة) ، بمعناها الذى عرفته فى فترات ما قبل حضارتها الراهنة ، أو بمعناها الذى عرف فى الشرق ، فى القديم أو فى الحديث .

وفرق بين هذا (الرضا والقبول) ، الذى نراه فى الحضارة الغربية ، والرضا والقبول الذى نراه فى الإسلام .

ففى الحضارة الغربية ، يتم (الرضا والقبول) ، من خلال الطرفين (المتعاقدين) ، وهما الزوج والزوجة مباشرة ، دون ماتدخل من الأسرتين اللتين ينتميان إليهما .

وفى مثل هذه السن المبكرة ، حيث لاخبرة بالحياة ، ولا إمكانية لمعرفة الخطأ والصواب ، وحيث ضيق النظرة المستقبلية إلى الحياة عموما ، بسبب (قلة التجارب) ، يكون (الجنس) ، هو المدخل الوحيد إلى (التعارف) بين الطرفين ، وإلى تحقق (الرضا والقبول) بينهما .

ولم يكن غريباً أن يمارس الجنس على أوسع نطاق ، بمجرد بلوغ سن المراهقة ، وأن ينتشر بين تلاميذ وتلميذات المرحلتين الإعدادية والثانوية ، على نحو ما رأينا من قبل ، وأن تدفع الأسر أبناءها وبناتها إلى ممارسته ، وأن تكون ممارسة الجنس قبل الزواج ، شرطاً ضروريا من شروطه ، بالنسبة

للفتاة ، لأن من لا تمارسه ، تعد — فى نظر الشباب — عديمة الخبرة Not experienced ، وأن يمارس الجنس تحت إشراف المدرسة، والهيئات التعليمية .

وعندما يستقر فى ضمير الفتى والفتاة، أن الجنس هو (محور) الحياة الزوجية، فإن كيان الأسرة لابد أن يبنى عليه فى المستقبل ، وأن ينهار هذا الكيان بسرعة ، على نحو ما سنرى عند الحديث عن الطلاق ، فى الفصل الخامس .

أما فى الإسلام ، فإن (الرضا والقبول) يتمان من خلال الأسرتين .

صحيح أن رأى الطرفين هو الفيصل فى القضية ، ولكن هذا الرأى يكون من خلال الأسرتين أيضاً .

وفى ذلك — ولا شك — ضمان لأن توضع أسرة المستقبل على أسس قوية متينة ، لايبدو فيها الزوجان ، وكأنهما يواجهان الحياة فردين ، بمعزل عن الكبار ، ذوى الخبرة فى الحياة ، وإنما هما يواجهانها فردين مستقلين ، ولكنهما بعض من هذا المجتمع الكبير ، المحيط بهما .

ولم يكن غريباً ، أن يكون والد الزوج أو الزوجة ، والدا لأحد طرفى العقد، وحما للطرف الآخر، وأن تكون الأم أما وحماة ، لا أن يكون أبا مفروضا بحكم القانون ، وأما يفرضها القانون أيضاً ، إذا ترجمنا إلى اللغة العربية هذين اللفظين ترجمة حرفية ، حيث الحم يسمى Father in law، والحماة تسمى Morher in law .

والحما — فى اللغة العربية — مشتق من الحماية ، بمعنى « منعه ودفع عنه » (١) .

---

(١) المعجم الوسيط — الجزء الأول (مرجع سابق) ، ص ١٩٩ .

والحما والحماة فى الأصل كلمتان عربيتان ، ومعنى ذلك أنهما تحملان هذا المعنى ، لامن الإسلام ، ولكن من التراث العربى قبله ، وأنهما متصلان بالمعنى الشرقى للأسرة ، كما رأيناه من قبل فى الفصل الأول(١) ، خاصة بعد أن تطور هذا المعنى ، بتطور المجتمعات الشرقية القديمة ، على النحو الذى رأيناه فى صدر الفصل الثالث من الكتاب (٢) .

وعندما جاء الإسلام ، أبقى على هذا المعنى للأسرة ، كما أبقى على كثير — غيره — من المعانى الجميلة ، التى وجدها عند العرب ، كالكرم والشجاعة والنجدة ، وغيرها .

وهو تطور غير ذلك التطور ، الذى رأيناه فى فهم الأسرة فى الغرب ، من عصور ما قبل الحضارة ، إلى العصور الحضارية ، التى تبلغ ذروتها اليوم ، تحت سيطرة الحضارة المعاصرة . . المادية ، الخانقة ، التى (وأدت) أجمل ما فى حياة الإنسان ، فلم تدع له من ذاته إلا .. بطنا كبيراً ، وملحقات لهذا البطن .

ويتم الاتصال بين طرفى العقد فى فترة الخطوبة ، ولكنهما يتصلان فى جو احترام واحتشام ، فى ظل الأسرة أيضاً .

ومن خلال هذا الاتصال ، يمكن أن يتعرف كلا الطرفين على الطرف الآخر ، كما يتعرف ذوو كل طرف على الطرف الآخر . والخبرة الطويلة ، والحرص على صالح الطرفين هنا ، سيكونان ضمانين أكيدين ، لأن يكون هناك (توافق) بين الطرفين ، يؤدى إلى (نجاح) الزواج واستمراريته ، وضمانين لكون كل من الطرفين (أهلا) للزوجية ، وتحمل مسئولياتها وتبعاتها ،

---

(١) ارجع الى ص ١٨ — ٢٠ من الكتاب .
(٢) ارجع الى ص ٧٧ — ٨٠ من الكتاب .

على حد مانجد القرآن يعبر عن القضية — قضية الزواج — كما رأينا فى الفصل الأول(١) .

المهـــر :

يعنى الزواج ، بيتا جديدا يفتح ، وعلاقات (خاصة) بين اثنين ، لم تكن من قبل موجودة ، وعلاقات أخرى ، تنبنى عليها ، بدأت منذ الخطوبة ، وتستمر — بالزواج — على نحو أو آخر .

أى أنه مجتمع جديد ينشأ ، نواته اثنان ، ولكن هذه النواة سرعان ماستنقسم ، كما أن هذه النواة تتصل بغيرها ، ليتشكل هيكل المجتمع الكبير ، من خلال هذه النواة وغيرها ، ومن خلال مابين هـــذه وتلك من اتصالات .

والمجتمع الجديد ، لابد له من بناء يقوم عليه ، وهذا البناء متشعب النواحى ، فهناك شق معنوى له ، يتمثل فى (التقاليد) التى يمكن أن ترسى فيه ، ليقوم عليه - وهناك شق مادى له ، يتمثل فى قدرة الطرفين على القيام بمهام الزواج ، سواء فى ذلك ، القدرة الجسدية ، والقدرة المالية .

وبدون توفر جوانب هذا البناء ، سواء ما يتصل منها بالشق المعنوى ، وما يتصل بالشق المـادى ، يكون قيام الأسرة مستحيلا .

ومن ثم تكون سياسة (وهبتك نفسى) ، التى تسير عليها الحضارة الحديثة ، وتجر وراءها فيها الكنيسة ذاتها ، سياسة خرقاء ، لأنها سياسة تزرع (الديناميت) ، فى جدار هذه العلاقة الجديدة ، لأن هبة الفتاة نفسها للفتى ، وهبة الفتى نفسه للفتاة ، لا يعنى أن الأسرة قد قامت دعائمها ، وإنما

---

(١) ارجع الى ص ٢١ من الكتاب .

هو يعنى أن (إمكانية قيام) الأسرة قد تحققت ، أما (نجاح) هذه الأسرة فى القيام بوظائفها ، فإنه أمر مشكوك فيه ، بدليل انهيار الأسر الغربية بسرعة، تتزايد يوما بعد يوم ، كما سنرى عند الحديث عن الطلاق ، فى الفصل السادس .

فبدون (أهلية) الفتى والفتاة للزواج ، كما سنرى فيما بعد ، لا يمكن أن تستمر حياة الأسرة .

ويقودنا ذلك مباشرة إلى موضوع المهر .

فهو هدية الرجل . . العنصر الإيجابى فى العلاقة الزوجية ، والعمود الفقرى للأسرة ، والمسئول عن الإنفاق عليها . . إلى زوجته .

وهو — كهدية — ملك لزوجته ، خالص لها ، لا حق له فى شىء منه ، إن دخل بها ، فإن لم يدخل بها ، كان فى ذلك أقوال ، ليس هنا مجال الحديث عنها :

— « وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج ، وآتيتم إحداهن قنطارا ، فلا تأخذوا منه شيئاً ، أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا ؟ وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض ، وأخذن منكم ميثاقا غليظا ؟ »(١) .

وهو ليس هدية وكفى ، وإنما هو (علامة) على المستقبل - مستقبل هذه الأسرة ، حيث قوامة الرجل على المرأة ، بما أنفق — وينفق — عليها ، وحيث إحساس المرأة — الذى تريده — بأنها تعيش فى كنف رجل :

— « الرجال قوامون على النساء ، بما فضل الله بعضهم على بعض ،

---

(١) قرآن كريم : النساء — ٤ : ٢٠ ، ٢١ .

وبما أنفقوا من أموالهم . . »(١) .

ويوضح الشهيد سيد قطب قضية (القوامة) هنا ، كأحسن ما يكون التوضيح ، حين يرى أن الله سبحانه ، قد خلق « الناس ذكرا وأنثى . . » زوجين على أساس القاعدة الكلية فى بناء هذا الكون . . وجعل من وظائف المرأة أن تحمل وتضع وترضع ، وتتكفل ثمرة الاتصال بينها وبين الرجل . . وهى وظائف ضخمة أولا ، وخطيرة ثانياً ، وليست هينة ولا يسيرة ، بحيث تؤدى بدون إعداد عضوى ونفسى وعقلى عميق ، غائر فى كيان الأنثى ! فكان عدلا كذلك أن ينوط بالشطر الثانى — الرجل — توفير الحاجات الضرورية ، وتوفير الحماية كذلك ، للأنثى ، كى تتفرغ لوظيفتها الخطيرة ، ولا يحمل عليها أن تحمل وتضع وترضع وتكفل . . ثم تعمل وتكد وتسهر ، لحماية نفسها وطفلها فى آن واحد ! وكان عدلا كذلك ، أن يمنح الرجل من الخصائص ، فى تكوينه العضوى والعصبى والعقلى والنفسى ، مايعينه على أداء وظائفه هذه ، وأن تمنح المرأة فى تكوينها العضوى والعصبى والعقلى والنفسى ، ما يعينها على أداء وظيفتها تلك .

وكان هذا فعلا . . « ولا يظلم ربك أحدا »(٢) .

ثم يتم الشهيد سيد قطب توضيحه ، رابطا القضية كلها بالخلق الأول للإنسان ، حيث الرجل والمرأة معاً ، مخلوقان من نفس واحدة ، على حد ما توضح تلك الآية ، التى تفتتح بها سورة النساء :

---

(١) قرآن كريم : النساء — ٤ : ٣٤ .

(٢) سيد قطب : فى ظلال القرآن — المجلد الثانى (الأجزاء : ٥—٧)— الطبعة الشرعية الرابعة — ١٣٩٧ هـ — ١٩٧٧ م ، دار الشروق — ١٣٩٧ هـ — ١٩٧٧ م ، ص ٦٥٠ .

— « يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيراً ونساء . . » (١) .

وفى هذا الموضع ، يرى الشهيد ، ان هذه الإشارة كانت كفيلة — لو أدركتها البشرية — أن توفر عليها تلك الأخطاء الأليمة التى تردت فيها ، وهى تتصور فى المرأة شتى التصورات السخيفة ، وتراها منبع الرجس والنجاسة ، وأصل الشر والبلاء . وهى من النفس الأولى فطرة وطبعاً ، خلقها الله لتكون لها زوجا ، وليبث منهما رجالا كثيراً ونساء ، فلا فارق فى الأصل والفطرة ، إنما الفارق فى الاستعداد والوظيفة . . » (٢) .

ثم يرى فى الموضع الثانى — موضع القوامة — أنه — ليتحقق التكامل فى حياة الأسرة — « زودت المرأة — فيما زودت به من الخصائص — بالرقة والعطف ، وسرعة الانفعال ، والاستجابة العاجلة لمطالب الطفولة — بغير وعى ولاسابق تفكير — لأن الضرورات الإنسانية العميقة كلها — حتى فى الفرد الواحد — لم تترك لأرجحة الوعى والتفكير وبطئه ، بل جعلت الاستجابة لها غير إرادية ، لتسهل تلبيتها فوراً ، وفيما يشبه أن يكون قسراً . ولكنه قسر داخلى ، غير مفروض من الخارج ، ولذيذ ومستحب فى معظم الأحيان كذلك ، لتكون الاستجابة سريعة من جهة ، ومريحة من جهة أخرى . مهما يكن فيها من المشقة والتضحية ! صنع الله ، الذى أتقن كل شىء .

وهذه الخصائص ليست سطحية ، بل هى غائرة فى التكوين العضوى والعصبى والعقلى والنفسى للمرأة .. بل يقول كبار العلماء المختصين: إنها غائرة

---

(١) قرآن كريم : النساء — ٤ : ١ .

(٢) سيد قطب : فى ظلال القرآن — المجلد الأول (الأجزاء ١ — ٤) — الطبعة الشرعية الرابعة — دار الشروق — ١٣٩٧ هـ — ١٩٧٧ م ، ص ٥٧٤ .

فى تكوين كل خلية ، لأنها عميقة فى تكوين الخلية الأولى ، التى يكون من انقسامها وتكاثرها الجنين ، بكل خصائصه الأساسية .

وكذلك زود الرجل — فيما زود به من الخصائص — بالخشونة والصلابة ، وبطء الانفعال والاستجابة ، واستخدام الوعى والتفكير ، قبل الحركة والاستجابة ، لأن وظائفه كلها ، من أول الصيد الذى كان يمارسه فى أول عهده بالحياة ، إلى القتال ، الذى يمارسه دائماً لحماية الزوج والأطفال ، إلى تدبير المعاش . . إلى سائر تكاليفه فى الحياة . . لأن وظائفه كلها تحتاج إلى قدر من التروى قبل الإقدام ، وإعمال الفكر ، والبطء فى الاستجابة بوجه عام ! . . وكلها عميقة فى تكوينه ، عمق خصـــائص المرأة فى تكوينها . . .

وهذه الخصائص ، تجعله أقدر على القوامة ، وأفضل فى مجالها ... كما أن تكليفه بالإنفاق — وهو فرع من توزيع الاختصاصات — يجعله بدوره أولى بالقوامة ، لأن تدبير المعاش للمؤسسة ومن فيها ، داخل فى هذه القوامة ، والإشراف على تصريف المال فيها ، أقرب إلى طبيعة وظيفته فيها .. »(١) .

ولنا إلى موضوع (القوامة) هذا ، على أية حال ، عود فى الفصل التالى بإذن الله .

ولا يعدو المهر — فى نظرى — أن يكون (رياضة) للزوج — العنصر الإيجابى فى الأسرة — على ممارسة وظائفه المستقبلة ، قبل أن تقوم الأسرة بالفعل ، كما لا يعدو أن يكون (رياضة) للزوجة — العنصر السالب فيها — على ممارسة وظائفها المستقبلة ، وهى أن تخضع لقوامته .

---

(١) سيد قطب : فى ظلال القرآن — المجلد الثانى (مرجع سابق) ، ٦٥٠ ، ٦٥١ .

ورغم ذلك ، فإن هذا المهر ، يكره الإسلام أن يكون فوق طاقة الزوج ، لأن المال لا يمكن أن يقف — فى الإسلام — حائلا دون بناء أسرة ناجحة ، تقوم على تقوى الله :

— « وأنكحوا الأيامى منكم ، والصالحين من عبادكم وإمائكم ، إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله ، والله واسع عليم »(١) .

ويرى الشهيد سيد قطب ، أن « الزواج هو الطريق الطبيعى لمواجهة الميول الجنسية الفطرية ، وهو الغاية النظيفة لهذه الميول العميقة . . فيجب أن تزول العقبات من طريق الزواج ، لتجرى الحياة على طبيعتها وبساطتها ، والعقبة المالية هى العقبة الأولى فى طريق بناء البيوت ، وتحصين النفوس ، والإسلام نظام متكامل ، فهو لا يفرض العفة ، إلا وقد هيأ لها أسبابها ، وجعلها ميسورة للأفراد الأسوياء ، فلا يلجأ إلى الفاحشة حينئذ ، إلا الذى يعدل عن الطريق النظيف الميسور ، عامداً غير مضطر » .

«لذلك يأمر الله الجماعة المسلمة ، أن تعين من يقف المال فى طريقهم إلى النكاح الحلال » .

« ويكفى أن نضع فى حسابنا — مع هذا — أن الإسلام — بوصفه نظاماً متكاملا — يعالج الأوضاع الاقتصادية علاجا أساسياً ، فيجعل الأفراد الأسوياء ،قادرين على الكسب ، وتحصيل الرزق ، وعدم الحاجة ، إلى مساعدة بيت المال ، ولكنه فى الأحوال الاستثنائية ، يلزم بيت المال ببعض الإعانات » .

«فإن وجد فى المجتمع الإسلامى — بعد ذلك — أيامى فقراء وفقيرات ،

---

(١) قرآن كريم : النور — ٢٤ : ٣٢ .

تعجز مواردهم الخاصة عن الزواج ، فعلى الجماعة أن تزوجهم ، « ولا يجوز أن يقوم الفقر عائقاً عن التزويج - متى كانوا صالحين للزواج ، راغبين فيه ، رجالا ونساء — فالرزق بيد الله ، وقد تكفل الله بإغنائهم ، إن هم اختاروا طريق العفة النظيف » (١) .

كما يرى الشيخ حسنين مخلوف ، أن « المراد من الإنكاح : المعاونة والتوسط فى النكاح ، والتمكين منه » (٢) ، ويرى عبد الله يوسف على - فى شرحها — أنها تعنى ، أننا إن لم نجد أزواجاً من طبقتنا ، صالحين لبناتنا ، فإنه « لاضير أن نبحث لهن عن أزواج من طبقة أقل ، بشرط توفر الفضيلة والخلق ، فى الزوج المنشود ، والفقر هنا ليس عائقاً فى سبيل هذا الزواج ، الذى يقوم على الفضيلة والحب ، ذلك أن الرجل الذى يكون سعيداً فى زواجه ، تكون لديه أغلى ثروة ، وهى زوجته الفاضلة ، وسعادته بزواجه ، سوف تمكنه من اكتساب ثروة طائلة » (٣) .

الأهليـــــة :

والأهلية — كما رأيناها فى الفصل الأول من الكتاب (٤) — لا تعدو أن تكون ذلك (الاقتدار) على الزواج .

---

(١) سـيد قطب : فى ظـلال القرآن — المجلد الرابع (الاجـزاء : ١٢ — ١٨) — الطبعـة الشرعيـة الرابعة — دار الشروق — ١٣٩٧ هـ — ١٩٧٧ م ، ص ٢٥١٤ ، ٢٥١٥ .

(٢) فضيلة الأستاذ الشيخ حسنين محمد مخلوف : القرآن الكريم ، ومعه صفوة البيان ، لمعـانى القرآن — الجـزء الأول — الطبعة الأولى — مطابع دار الكتاب العربى بمصر — ١٣٧٥ هـ — ١٩٥٦ م ، ص ٨٣ .

(3) ALI, ABDULLAH YUSUF : The Holy Qur-an, Text, Translation and Commentary, Volume Two; The Murray Printing Company, Cambridge, Massachusetts, 1946, p. 905.

(٤) ارجع الى ص ٢١ ، ٢٢ من الكتاب .

والزواج - كما رأيناه من قبل - يتطلب صفات معنوية ، وصفات مادية . ومن هذه الصفات وتلك ، ماهو ضرورى ، لا يمكن الاستغناء عنه ، لقيام الأسرة ، ومنها ما هو أقل ضرورة ، وأقل أهمية ، ومن ثم يمكن الاستغناء عنه .

فالمستوى المادى المرتفع ، الذى يكفل حياة زوجية مستقرة سعيدة ، على سبيل المثال ، أمر مطلوب للأسرة ، ولكنه ليس على درجة كبيرة من الأهمية ، إذ يمكن أن تقوم الأسرة بدونه ، وتحيا حياة هانئة سعيدة .

وتوفر صحة جيدة للزوجين ، يكفل حياة زوجية سعيدة ، ولكنه ليس على درجة كبيرة من الأهمية ، بحيث يعوق الأسرة دون الوصول إلى السعادة المنشودة .

ولكن المرض الذى لا شفاء منه ، أو العجز الجنسى ، أو الخلل العقلى .. لا يمكن أن تقوم — فى ظلها — أسرة ، يمكن أن يكتب لها نجاح .

ذلك أن كلا من الرجل والمرأة (عون) لأخيه ، فى (معركة) الحياة ، ومن ثم يتحقق للأسرة النجاح فى مواجهة مشكلات الحياة ، إذا كانا سليمين صحيحين ، ومرض أى واحد منهما ، يعتبر (عائقاً) فى سبيل هذه المواجهة .

وتأتى أهمية فترة الخطوبة — فى الإسلام — من أنها تتيح للأسرتين ، اللتين ينتمى إليهما الزوجان ، فرصة (الاطمئنان) على أمور كثيرة عن قرب .. من بينها هذه الناحية .

بل إن الإسلام ذاته يدعو إلى ضمان هذه الصحة ، لا من أجل صالح الزوجين وحده ، ومستقبل حياتهما الزوجية ، بل ومن أجل مستقبل الأطفال ، الذين سيتمخض عنهم الزواج .

يضاف إلى ذلك،أن الاتصال الجنسى بين الرجل والمرأة ، هدف أساسى من أهداف الزواج ، فهدفه إشباع الحاجات الجنسية لدى الرجل والمرأة من حلال ، وبطريق ربانى ، يناسب فطرة الله التى فطر الناس عليها ، « ومن واقعية الشريعة الإسلامية ، أنها راعت،قوة الدوافع الجنسية ، لدى الإنسان، فلم تطرحها دبر الأذن، ولم تنظر إليها باستخفاف، ولا باستقذار ، كما فعلت بعض الملل والنحل ، ولم ترض للإنسان أن يقاد من غرائزه وحدها ، كما فعلت بعض الفلسفات . . فشرعت فى إشباع الدافع الجنسى ، بطريقة نظيفة ، تضمن بقاء الإنسان ، وكرامة الإنسان ، وارتفاع الإنسان عن الحيوان ، وذلك بشرعية (نظام الزواج) »(١) .

بل إن القرآن الكريم لا يكتفى بأن يحض على الزواج ، ويحبب فيه ، وإنما يتعدى ذلك ، فيرسم طريقة اتصال الرجل بالمرأة ، اتصالا يحقق أهداف هذا الاتصال للطرفين ، فتتحقق — من خلاله — المودة ، ويستمر الزواج ، وتدعم الأسرة :

— «ويسألونك عن المحيض،قل : هو أذى ، فاعتزلوا النساء فى المحيض، ولا تقربوهن حتى يطهرن ، فإن تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله ، إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين . نساؤكم حرث لكم ، فأتوا حرثكم أنى شئتم ، وقدموا لأنفسكم ، واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه ، وبشر المؤمنين »(٢) .

ويعلق الشهيد سيد قطب على ذلك بقوله ، إننا « هنا نطلع على سماحة

---

(١) الدكتور يوسف القرضاوى : الخصائص العامة للاســلام — الطبعة الأولى — مكتبة وهبة — رمضان ١٣٩٧ هـ — أغسطس ١٩٧٧ م ، ص ١٦٢ .
(٢) قرآن كريم : البقرة — ٢ : ٢٢٢ ، ٢٢٣ .

الإسلام ، الذى يقبل الإنسان كما هو ، بميوله وضروراته ، لا يحاول أن يحطم فطرته ، باسم التسامى والتطهر ، ولا يحاول أن يستقذر ضروراته ، التى لا بد له فيها ، إنما هو مكلف إياها فى الحقيقة ، لحساب الحياة ، وامتدادها ونمائها . إنما يحاول فقط أن يقرر إنسانيته ويرفعها ، ويصله بالله ، وهو يلبى دوافع الجسد . يحاول أن يخلط دوافع الجسد، بمشاعر إنسانية أولا ، وبمشاعر دينية أخيرا » (١) .

وإذا ما تحققت أهلية الزوجين على هذا النحو ، فلا عقبة يمكن أن تقف أمام زواج ناجح ، وإنما يتحقق — من خلال هذا الزواج — ما ينشده هذا الزواج الإسلامى، من أمن وطمأنينة وسلام ، تنعكس على الزوجين كفردين ، وتنعكس عليهما كأسرة ، وتنعكس على المجتمع كله ، على نحو ما سنرى .

المودة بين الزوجين :

وأستطيع أن أدعى ، بأن الخطوات السابقة كلها ، من خطبة ، وهدايا ، وتحديد مهر ، فاتفاق وتعاقد ، وثبوت (أهلية) كل من طرفى العقد — عقد الزواج — بأنها كلها ، هى الطريق الطبيعى ، إلى هدف الزواج النهائى ، وما يحققه من (مودة) بين الزوجين .

ذلك أنه فى ظل هذه (المودة) ، يمكن أن تقوم الأسرة برسالتها ، فتؤدى ما يجب عليها أن تؤديه للرجل وللمرأة ، والأطفال ، فى داخلها ، وما يجب عليها أن تؤديه للأهل والأصدقاء ، وللمجتمع الكبير . . وللعالم أجمع ، على نحو ما سنرى فى الصفحات الأخيرة من الكتاب .

---

(١) سيد قطب : فى ظلال القرآن — المجلد الأول (مرجع سابق) ، ص ٢٤٢ .

وبدون هذه (المودة) ، تتحول مهمة الأسرة، إلى مجرد تحقيق لقاء بين الذكر والأنثى .. كأى لقاء بين حيوانين، لقضاء الحاجة الجنسية ، ولا يمكن أن يرقى عن تحقيق هذه الحاجة ، إلى الدرجة الإنسانية ، التى يرقى إليها الزواج فى الإسلام .

والزواج — فى الإسلام — نعمة من نعم الله على الإنسان :

— «ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا، لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » (١) .

وهو نعمة ، كما يبدو من الآية ، لما يوفره للزوجين من سكن، أى استقرار وهدوء نفسى - ومن مودة ، أى ألفة - ومن رحمة - رغم ما يمثله هذا الزواج من (عبء) على الزوجين ، لأن مثل هذا العبء عبء حبيب إلى النفس ، لأن السكن والمودة والرحمة ، إذا توفرت للإنسان بلا مقابل ، فإنها تفقد معناها ، أما إذا توفرت له بمقابلها ، فإنها تحقق أهدافها فى النفس الإنسانية .

ويرى الشهيد سيد قطب ، فى تعليقه على هذه الآية ، أن «الناس يعرفون مشاعرهم تجاه الجنس الآخر ، وتشغل أعصابهم ومشاعرهم ، تلك الصلة بين الجنسين ، وتدفع خطاهم ، وتحرك نشاطهم ، تلك المشاعر المختلفة الأنماط والاتجاهات، بين الرجل والمرأة . ولكنهم قلما يتذكرون يد الله، التى خلقت لهم من أنفسهم أزواجا ، وأودعت نفوسهم هذه العواطف والمشاعر ، وجعلت فى تلك الصلة سكنا للنفس والعصب ، وراحة للجسم والقلب ، واستقرارا للحياة والمعاش ، وأنسا للأرواح والضمائر ، واطمئنانا للرجل

---

(١) قرآن كريم : الروم — ٣٠ : ٢١ .

والمرأة على السواء » (١) ، وذلك لأن الله خلق كل جنس من الجنسين ، « موافقا للآخر، ملبيا لحاجته الفطرية : نفسية وعقلية وجسدية ، بحيث يجد عنده الراحة والطمأنينة والاستقرار ، ويجدان - في اجتماعهما - السكن والاكتفاء ، والمودة والرحمة ، لأن تركيبهما النفسي والعصبي والعضوي ، ملحوظ فيه تلبية رغائب كل منهما في الآخر ، وائتلافهما وامتزاجهما في النهاية ، لإنشاء حياة جديدة ، تتمثل في جيل جديد » (٢) .

ومن ثم تكون الأسرة في المفهوم الإسلامي ، ارتقاء بالأسرة ، وارتقاء بالإنسان في هذه الأسرة ، إلى أفق أرحب وأرقى ، وإعلاء لشأن الأطراف فيها ، إلى سماء ، لم يصل إليها الإنسان ، في أي فهم للأسرة ، قبل الإسلام أو بعده .

إنها ليست مجرد (تعارف) بين طرفي الأسرة ، كما رأينا في الفهم الغربي لها (٣) ، وليست (عبئا) يقع على عاتق الرجل في الأسرة ، كما رأينا في الفهم الشرقي لها (٤) ، ولكنها ضرورة حياتية ، لكل من الرجل والمرأة على السواء ، فالرجل فيها محتاج إلى المرأة ، والمرأة محتاجة إلى الرجل ، والتقدم البشري كله محتاج إليهما معا ، كنوعين متغايرين ، ولكنهما متكاملان ، لا تكون بغيرهما حياة إنسانية .

وقد رأينا من قبل ، نظرة المسيحية إلى المرأة ، وإلى الزواج ، وكيف

---

(١) سيد قطب : في ظلال القرآن — المجلد الخامس (الأجزاء : ١٩ — ٢٥) — الطبعة الشرعية الرابعة — دار الشروق — ١٣٩٧ هـ — ١٩٧٧ م ، ص ٢٧٦٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٧٦٣ .

(٣) ارجع الى ص ٢٣ ، ٢٤ من الكتاب .

(٤) ارجع الى ص ١٨ — ٢٠ من الكتاب .

أنها نظرة احتقار وازدراء، لا تلجئ الإنسان إليها، سوى حاجات (البهيم)، القابع فى أعماق هذا الإنسان (١).

ويعلق الدكتور محمد عبد الله دراز ، فى رسالته للدكتوراه ، على هذه النظرة المسيحية إلى القضية، تعليقاً يظهر فيه ما تقوم عليه هذه النظرة، من كراهية للجنس البشرى كله ، ورغبة فى تدميره ، فيرى أننا لو سايرنا هذه النظرة المسيحية إلى الزواج ، الداعية إلى التبتل عنه ، ولو تركنا « جيلا إنسانيا واحدا، يفرض على نفسه إلزاما بهذا التبتل»، فإن « آخر حى من هذا الجيل، سوف يشهد حتما نهاية الإنسانية ، فهل يمكن أن نصف بالإجرام موقف هذا المتبتل ، وهو موقف مدحته المسيحية كثيراً ؟ » (٢).

وفى ظل هذه الأسرة ، بمفهومها الإسلامى ، تتحقق وظائف الأسرة المختلفة ، كما رأيناها فى الفصلين الأول والثانى ، فى المدخل النظرى لدراسة القضية — قضية الأسرة ، وفى ظل هذه الأسرة ، بعيدا عن هذا المفهوم الإسلامى ، تتحقق (بعض) وظائف الأسرة، وينهدم بعضها الآخر، ويكون فى انهدام هذا البعض الآخر ، تحويل لما تحقق من مزايا . . إلى عيوب .

ومن ثم تكون هذه الأسرة المسلمة ، هى الضرورة الحياتية ، للجنس البشرى ، إذا أريد له أن يستمر ، على نحو متحضر ، يرتقى بالإنسان ، ولا يهبط به .

---

(١) ارجع الى ص ٩١ — ٩٤ من الكتاب .

(٢) دكتور محمد عبد الله دراز : دستور الأخلاق فى القرآن ، دراسة مقارنة للأخلاق النظرية فى القرآن — تعريب وتحقيق وتعليق : دكتور عبد الصبور شاهين — مراجعة دكتور السيد محمد بدوى — مؤسسة الرسالة ودار البحوث العلمية — ١٩٧٤ ، ص ١٠٦ .

وظيفة الأسرة المسلمة :

وقد تناولنا وظيفة الأسرة فى حياة الإنسان عموما ، فى الفصلين الأولين من الكتاب ، فى أماكن متفرقة ، ووجدنا — فى أكثر من مكان — أنها وظيفة قاصرة ، إذا قورنت بوظيفتها فى الإسلام. وأن النظم القديمة والنظم الحديثة عن السواء ، تعد (رجعية) ، فى نظرتها إلى وظيفة الأسرة ، إذا قورنت بنظرة الإسلام إلى هذه الوظيفة .

ويرى المرحوم عباس العقاد ، أن الزواج ليس « علاقة حيوانية بين حيوانين .. وليس الزواج علاقة روحية بين ملكين » (١) ، وأن « الزواج فى القرآن ، هو (الزواج الإنسانى) ، فى وضعه الصحيح ، من وجهة نظر المجتمع ، ومن وجهة نظر الأفراد ...

فهو واجب اجتماعى ، من وجهة نظر المجتمع ، وسكن نفسانى من وجهة نظر الفرد ، وسبيل مودة ورحمة ، بين الرجال والنساء .. » (٢) .

« وهكذا كانت شريعة القرآن ، مطابقة لحقيقة الزواج ، فى معانيه الإنسانية ، ومعانيه النوعية والاجتماعية » (٣) .

فمن ناحية المودة والرحمة ، التى تحققها الأسرة للرجل والمرأة معاً ، نجدها أوضح ما تكون فى الإسلام — أو فى الزواج الإسلامى ، المبنى على (المعروف) وحده ، فى (العشرة) التى تتحقق بين الزوجين ، والمبنية عليه أيضاً ، إذا كان خيط هذه (العشرة) قد انقطع ، كما سنرى عند الحديث عن موضوع (الطلاق) فى الفصل التالى :

---

(١) عباس محمود العقاد : الفلسفة القرآنية — دار الإسلام بالقاهرة — ١٩٧٣ ، ص ٥٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٥٩ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٦١ .

— « ... وعاشروهن بالمعروف ، فإن كرهتموهن ، فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً . وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج ، وآتيتم إحداهن قنطاراً ، فلا تأخذوا منه شيئاً ، أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا ؟ وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض ، وأخذن منكم ميثاقا غليظا ؟ »(١) .

— « . . فأمسكوهن بمعروف ، أو فارقوهن بمعروف . . »(٢) .

ويقف الشهيد سيد قطب عند هذا (الإفضاء) القرآنى ، الذى يفرض على الزوج التجمل ، حتى عند الفراق ، إذا لم يكن إلى عودة عنه من سبيل ، فيرى أن هـذا الإفضاء ، الذى جاء « بلا مفعول محدد » ، « لا يقف عند حدود الجسد وإفضاءاته ، بل يشمل العواطف والمشاعر ، والوجدانات والتصورات ، والأسرار والهموم ، والتجاوب ، فى كل صورة من صور التجاوب . يدع اللفظ يرسم عشرات الصور ، لتلك الحياة المشتركة ، آناء الليل ، وأطراف النهار ، وعشرات الذكريات ، لتلك المؤسسة ، التى ضمتها فترة من الزمان .. وفى كل اختلاجة حب إفضاء ، وفى كل نظرة ود إفضاء ، وفى كل لمسة جسم إفضاء ، وفى كل اشتراك فى ألم أو أمل إفضاء ، وفى كل تفكر فى حاضر أومستقبل إفضاء ، وفى كل شوق إلى خلف إفضاء ، وفى كل التقاء فى وليد إفضاء »(٣) .

أما وفى الحياة الزوجية ـ فى الإسلام ـ كل هذه المشاركة ، فى الآمال والآلام .. وفى قضاء الحاجات المعيشية والبيولوجية .. فإنها تكون جديرة بذلك (المعروف) ، الذى جعله الإسلام دعامة لها ، فى كل الحالات .

---

(١) قرآن كريم : النساء ـ ٤ : ١٩ ـ ٢١ .
(٢) قرآن كريم : الطلاق ـ ٦٥ : ٢ .
(٣) سيد قطب : فى ظلال القرآن ـ المجلد الأول (مرجع سابق)، ص ٦٠٦ ، ٦٠٧ .

إنها ليست عبثا أو قيدا ، على طرف ، كما أنها ليست لحظة عابرة ، لقضاء حاجة حيوانية ، يتم فى أثنائها تعارف ، ثم يكون انفصال .

إنها حياة موصولة ، ومن ثم استحقت قدسية هى لها أهل ، واستحقت رعاية وحفاً ، حتى عندما يصير (وصلها) مستحيلا .

وفى ظل هذه المودة والرحمة ، اللتين يقوم عليهما الزواج الإسلامى ، يتحقق للزواج — فى رأى الدكتور محمد البهى — « هدفان رئيسيان » ، « فى نظر الإسلام : الاستقرار المادى والنفسى ، وكذا التمكن من التغلب على نزوات الانحراف ، ودوافع الجنوح عن خط السير ، فى سبيل تحقيق الإنسانية » (١) .

ومع المودة والرحمة ، اللتين يعتبرهما ديل كارنيجى ، السبيل الوحيد إلى الحب(٢) ، يتحقق الاستقرار المادى والنفسى ، وتشبع الحاجات الجنسية ، التى لابد أن تشبع ... فماذا ينقص هذا الزواج — بعد ذلك ، أو ما الذى يمكن أن يحققه بعده ؟

إن المودة والرحمة ، هى السبيل إلى الحب ، وليس الحب هو السبيل إلى المودة والرحمة ، كما يدعى دعاة التحضر ، لأن الحب الذى يدعونه ، ليس إلا نزوة طارئة ، يشعلها فى قلب الإنسان - رجلا وامرأة - ذلك الحيوان الكامن فى أعماقه ، أو « نزوة الميل الحيوانى المسعور » (٣) ، على حد تعبير الشهيد سيد قطب .

---

(١) الدكتور محمد البهى : الاسلام فى حياة المسلم — الطبعة الخامسة — مكتبة وهبة — رجب ١٣٩٧ هـ — يونيه ١٩٧٧ م ، ص ٣٠٤ .

(٢) ديل كارنيجى : كيف تكسب الأصدقاء ، وتؤثر فى الناس ؟ — تعريب عبد المنعم محمد الزيادى — الطبعة الثانية — مؤسسة الخانجى بمصر ، ص ٢٨٠ .

(٣) سيد قطب : فى ظلال القرآن — المجلد الأول (مرجع سابق) ، ص ٦٠٦ .

وكم كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، واقعيا وعمليا وبعيد النظر ، فى صيحته فى ذلك الرجل ، الذى أراد أن يطلق زوجته ، لأنه لا يحبها : « ويحك ! ألم تبن البيوت إلا على الحب ؟ فأين الرعاية؟ وأين التذمم؟» (١).

ومن خلال المودة والرحمة وقضاء الحاجات ، والمشاركة فى المسئوليات والأعباء . . تتحقق مصلحة المجتمع ، ومصلحة الإنسانية أيضاً .

ذلك أن مثل هذا الزواج ، هو الذى يخلق السعادة اللازمة للإنسان ، ليشارك — بها — جماعته الإنسانية ، فيبنى ويشيد وينتج ، وبدون هذه (السعادة) ، يكون الإنسان عبئا على هذه الجماعة ، لاعونا لها .

وبالبناء ، والإنتاج ، لا يتحقق خير المجتمع وحده ، وإنما يتحقق خير الإنسانية جمعاء ، كما أنه ـ بتلك النزعة الإنسانية التى يخلقها مثل هذا الزواج الإسلامى — يزرع فى النفوس الحب ، ومحبة الخير للناس جميعا ، وهى الأساس ، الذى يقوم عليه السلام العالمى .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٦٠٦ .

الفصل الخامس

الأسرة المسلمة فى القرن العشرين

تقـــديم :

القرن العشرون هو قرن الغرب ، أو قرن الحضارة الغربية ، بأى مقياس من المقاييس ، التى تقاس بها (تبعية) الأيام والسنين ، للأمم والشعوب .

لقد كان الغرب ، هو الذى (فتح صدره) للحضارة الإسلامية ، عندما ضاقت بها أرض الإسلام ، بسبب بعد هذه الأرض عن الإسلام ، الذى شكل هذه الحضارة منذ البداية . وفى أرض الغرب ، بلغت هذه الحضارة ـــ الإسلامية فى أصلها ـــ ذروة كمالها ، على الأقل من ناحية الرقى المادى .

وفى الوقت الذى كان الشرق الإسلامى فيه ، قد وقع تحت سيطرة المماليك ، ثم العثمانيين ، بعد سلسلة الصراع الطويلة بين العرب و « الديلم والعجم والتتار والمغول والترك »(١) على السلطة ، والتى انتهت بانهيار السلطان العربى ، حيث « صاحب انهيار السلطان العربى السياسى ، انهيار صرح الفكر والعلم ، المسمى بالعلم العربى »(٢) ـــ على حد تعبير ألدوميبلى ،

---

(١) الدكتور أحمد سويلم العمرى (مرجع سابق) ، ص ١١٨ .

(٢) الدو ميبلى : العلم عند العرب ، وأثره فى تطور العلم العالمى ـــ نقله الى العربية : الدكتور عبد الحليم النجار ، والدكتور محمد يوسف موسى ـــ قام بمراجعته على الأصل الفرنسى : الدكتور حسين فوزى ـــ جامعة الدول العربية ـــ الادارة الثقافية ـــ الطبعة الاولى ـــ دار القلم ـــ ١٩٦٢ ، ص ٢٨٥ .

وحيث « اضمحلت الصناعات والفنون » ، « وفشا الجهل فى البلاد ، ورزح الشعب تحت نير العبودية ، وظلام الجهالة »(١) — فى نفس الوقت ، كان هذا (العلم الإسلامى) ، قد وصل إلى الغرب ، فثار ثورته على الكنيسة ، وانتقل - بعدها - من ثورة إلى ثورة ، حتى كان القرن العشرون ، والغرب — بفضل تقدمه العلمى — متربع على القمة العالمية — تقدما علمياً ، وتكنولوجيا ، وسيادة عسكرية ، وسيطرة على بقية دول العالم ، من خلال الاستعمار .

وكأنما أحست بلاد العالم الثالث — ومنها هذا الشرق الإسلامى — بهذا التخلف ، فصار النموذج الغربى (للحياة) ، هو المثل الأعلى أمامها .

واستورد العالم الثالث ، من الغرب المتقدم ، أو صدر الغرب المتقدم ، للعالم الثالث ، ومنه الشرق الإسلامى ، كل شىء . . ابتداء من الأفكار والآراء والمعتقدات .. وانتهاء بالتكنولوجيا والمنتجات الصناعية .

وكان من هذه الأفكار .. تلك الأفكار الخاصة بالأسرة ، رغم ما تقوم عليه هذه الأفكار ، من زيف وتضليل ، على نحو ما سنرى .

الأسرة المسلمة المعاصرة .. والاسلام :

بدأت عوامل الضعف تتسرب إلى (الخلافة) العباسية فى بغداد ، منذ بدأ التشاحن بين أبناء الأسرة الحاكمة العباسية ، على السلطة — خاصة ذلك التشاحن ، الذى وقع بين الخليفة المعتصم ، الذى تولى الخلافة بين سنتى ٢١٨ — ٢٢٧ هـ (٨٢٤ — ٨٣٣ م) ، وبين العباس بن المأمون ،

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية ، وتطور نظام الحكم فى مصر — الجزء الأول — الطبعة الرابعة — مكتبة النهضة المصرية — ١٩٥٥ ، ص ٤٦ ، ٤٧ .

حيث وقف الفرس إلى جانب العباس ، لأن أمه فارسية ، بينما وقف الأتراك إلى جانب المعتصم ، لأن أمه تركية .

وكان الخليفة المعتصم قوى الشخصية ، ومن ثم لم يكن لرجحان كفة الأتراك ، فى صراع العصبيات الذى احتدم . والذى سبقت الإشارة إليه ، فى تقديمنا لهذا الفصل - أثره فى الحياة الإسلامية ، ولكن هذا الأثر بدأ يظهر بعده ، حيث بدأ تدخلهم فى أعمال الخلفاء ، وقد اضطرهم هذا التدخل إلى قتل « الخليفة المتوكل سنة ٢٤٧ هـ ، لطول معارضته لهم ، حتى يكون عبرة لكل خليفة يأتى بعده» (١)، وإلى تدبير المؤامرات للخلفاء من بعده ، وخلعهم البعض ، ثم قتله بعد خلعه ، ثم إلى تولية خلفاء صبية ، يحكمون باسمهم ، كاختيارهم « المقتدر صبياً ، فى الثالثة عشرة» (٢) .

وقد بلغ هذا الضعف ذروة من ذراه ، حين انفصل أحمد بن طولون بحكم مصر سنة ٢٥٤ هـ (٨٦٨ م) ، ليكون بها (الدولة الطولونية) ، وليتبعه - فى حركته الانفصالية هذه - أمراء آخرون ، حتى صارت الخلافة الإسلامية ، اسما على غير مسمى ، مما مهد لسقوط بغداد فى يد التتار ، سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) ، فبلغت المأساة — على ذلك — ذروتها .

ومنذ المعتصم ، وعوامل القهر تتسرب الى الجسم الإسلامى ، ولكن هذا الجسم كان قويا ، بحيث كان يتحرك رغم أنفها ، حيث أن «هذا الانقسام السياسى الظاهرى ، ظل يتضمن فى باطنه ، وحدة إسلامية عربية ، عميقة الجذور ، واستمرت هذه الدويلات العديدة ، تؤلف ما أسماه المسعودى

---

(١) دكتور عبد الغنى عبود : دراسة مقارنة لتاريخ التربية (مرجع سابق) ، ص ٢٢٨ .

(٢) أحمد أمين : ظهر الاسلام — الجزء الأول — الطبعة الثانية — مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — ١٩٤٦ ، ص ٢٩ .

(مملكة الإسلام) ، وهى المملكة التى امتدت من الهند والمحيط العربى شرقاً ، حتى المحيط الأطلسى غرباً »(١) .

أما منذ سقوط بغداد ، فإن (مضاعفات) المرض على هذا الجسم ، أخذت تشتد ، حتى بلغت ذروتها فى القرن العشرين ، حيث عوامل القهر العصرية ، مسلطة على هذا الجسم ، من الداخل والخارج على السواء .

فمن الخارج ، نرى الغرب — منذ الحروب الصليبية — يحارب الإسلام بضراوة ، بغير السلاح ، بعد أن فشل هذا السلاح — فى الحروب الصليبية — فى تحقيق أهدافه ، وأعداؤه فى الخارج معروفون ، وهم « الاستعمار الغربى والصهيونية والشيوعية »(٢) ، وسلاحهم هو (التربية) ، على أساس أنه «إذا لم يكن السيف قادراً على السيطرة على المسلمين ، فليكن ذلك عن طريق الكلمة »(٣)، سواء بالتبشير، وبالتربية ، وبغيرها ، على نحو ما سنرى ، عند حديثنا عن الحرب من الداخل .

ومن خلال التربية ، أو حرب الكلمة ، على حد تعبير أنور الجندى السابق ، استطاع الغرب أن يخلق (رأياً عاماً) إسلامياً ، أبعد ما يكون عن الإسلام ، هدفه — بعد التحرر — هو « محاولة خلق قومية علمانية ،

---

(١) دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور : المدنية الاسلامية ، وأثرها فى الحضارة الأوربية — الطبعة الأولى — دار النهضة العربية — ١٩٦٣ ، ص ٣٣ .

(٢) محمد فاضل الجمالى : دعوة الى الاسلام (رسائل من والد فى السجن الى ولده) — الطبعة الأولى — منشورات دار الكتاب اللبنانى للطباعة والنشر — بيروت — ١٩٦٣ ، ص ١٩٩ .

(٣) أنور الجندى : التربية وبناء الأجيال ، فى ضوء الاسلام — رقم (١٦) من (الموسوعة الاسلامية العربية) — الطبعة الأولى — دار الكتاب اللبنانى — بيروت — ١٩٧٥ — ص ١٢ .

على الطراز الأوربى »(١)، وتجديد الحياة الإسلامية (من وراء ظهر) الإسلام .

وبعد أن كان (المستشرقون) والمبشرون ، يقودون المسيرة فكريا ، بدأ يقودها (مفكرون) مسلمون ، من أمثال طه حسين ، الذى تخرج فى الأزهر ، ورغم ذلك « يرى أن ما سلكه الغرب ، يجب أن تسلكه مصر، فى طريقها التجديدى »(٢) .

وبعد أن كان الإنجليز والفرنسيون والإيطاليون، يحكمون حكما مباشرا، صاروا يحكمون عن طريق هؤلاء (الحكام الوطنيين) ، ليوجهوا كل حربهم إلى المنظمات الإسلامية ، فى الوقت الذى «يتمتع المجرمون والخونة والمرتشون ، بقدر هائل من الحرية والانطلاق ، فى ساحة المجتمع ، على أساس يكفل لهم حرية العمل ، وحرية الإبداع ، وحرية العمل ، لتخريب مستقبل الأمة ، وحرية الإبداع ، لتطوير أساليب الإجرام »(٣)، حتى « خلت الساح من الأشراف »(٤) ـ على حد تعبير سعد جمعة، رئيس وزراء الأردن الأسبق .

---

(١) محمد جلال كشك : الغزو الفكرى ـ من سلسلة (مفاهيم اسلامية) ـ الطبعة الثانية ـ الدار القومية للطباعة والنشر بالقاهرة ـ مارس ١٩٦٦ ، ص ٢ .

(٢) الدكتور محمد البهى : الفكر الاسلامى الحديث ، وصلته بالاستعمار الغربى ـ الطبعة الثامنة ـ مكتبة وهبة ـ رمضان ١٣٩٥ هـ ـ سبتمبر ١٩٧٥ ، ص ١٧٨ .

(٣) دكتور محمد عبد الله دراز (مرجع سابق) ، ص ل هـ ـ من كلمة المعرب .

(٤) سعد جمعة : الله أو الدمار ـ الطبعة الثالثة ـ المختار الاسلامى ، للطباعة والنشر والتوزيع ـ ١٣٩٦ هـ ـ ١٩٧٦ م ، ص ٨ ـ من التقديم .

ولم يكن غريبا أن يحترم الاستعمار الانجليزى فى مصر — مثلا — المسجد ، بينما لا تحترمه ثورة ٢٣ يوليو تحت حكم عبد الناصر (١) .

ومن ثم انتشر « الفساد والخيانة والتلف والرشوة » ، وكان من الواضح البين ، أن الذين يمارسون هذه الظاهرة المؤلمة ، من الخيانة والرشوة والغش ، وماشابهها ، هم ليسوا إلا جماعة المثقفين فى بلادنا ، ومن إخواننا ، وهم الذين بيدهم أزمة تسيير دفة الحكومة ، لا بيد القرويين الأميين » (٢) — كما صار هناك — من ثم — إسلامان ، أحدهما جغرافى ، على حد تعبير الشيخ محمد الصادق عرجون ، « يستظل بلوائه مئات الملايين فى الشرق ، بقارتيه العملاقتين ، وعشرات الملايين فى الغرب ، بعالميه القديم والجديد . وهم فى كثرتهم الكاثرة ، يجهلون الحقيقة التشريعية للإسلام الصحيح ، ويجهلون مبادئه الفكرية ، وأصوله العقيدية ، وآدابه الخلقية » (٣) — والثانى هو الإسلام الحق ، البعيد كل البعد عن واقع هؤلاء المسلمين .

وفى ظل هذا الجو البعيد عن الإسلام ، تتشكل الأسرة المسلمة المعاصرة ، فى كثير من جوانبها ، وفى ضوئها ، يجد الحاقدون على الإسلام الفرصة مواتية لمواجهة الإسلام ، على نحو ما سنرى فى هذا الفصل .

والأسرة المسلمة المعاصرة ، تتشكل فى هذا الجو ، كما تتشكل الحياة السياسية ، والحياة الاقتصادية ، والحياة الاجتماعية .. والحياة الدينية أيضاً .. بمعزل عن الإسلام .

---

(١) عبد المتعال الجبرى : لماذا اغتيل الامام الشهيد حسن البنا (حقائق جديدة ، ووثائق خطيرة) — الطبعة الثانية — دار الاعتصام — ١٣٩٨ هـ — ١٩٧٨ م ، ص ٤٠ .

(٢) أبو الأعلى المودودى : دور الطلبة ، فى بناء مستقبل العالم الاسلامى — دار الأنصار بالقاهرة — ١٩٧٧ ، ص ١٦ ، ١٧ .

(٣) محمد الصادق عرجون : الموسوعة ، فى سماحة الاسلام — المجلد الأول — مؤسسة سجل العرب — ١٣٩٢ هـ — ١٩٧٢ م ، ص ١٦ .

وكم كان محمد قطب موفقاً ، حين ربط (قضية الأسرة) هنا ، بقضية حياة المسلمين عامة، وحين رأى أن « الوضع السيء »الذى تعانيه المرأة الشرقية ، يرجع إلى ظروف اقتصادية واجتماعية وسياسية ونفسية ، ينبغى أن نلم بها، لنعلم من أين تأتينا هـــذه المفاسد ، ونكون على هدى ، ونحن نحاول الإصلاح.

هذا الفقر البشع، الذى يعانيه الشرق منذ أجيال عدة. هذا الظلم الاجتماعى، الذى يجعل قوما يغرقون فى الترف الفاجر ، والمتاع الغليظ ، وغيرهم لا يجد لقمة الخبز والثوب ، الذى يكسو به العورات . هذا الكبت السياسى ، الذى يجعل من الحكام طبقة، غير طبقة المحكومين». « وهذا الظلام التعس ، والإرهاق العصبى ، الذى يعيش فيه سواد الشعب ، نتيجة هذه الظروف .. هذا كله هو المسئول ، عما تعيش فيه المرأة من الذل والاضطهاد » .

و « ليست المرأة وحدها هى الضحية ، ولكنه الرجل كذلك ، وإن بدا أنه فى وضع خير منها .

الرجل يعامل امرأته بالعسف والاضطهاد ، لأنه يريد أن يحقق كيانه المسلوب فى الخارج : كيانه الذى يهينه الخفير والعمدة وصاحب الأرض ، أو يهينه عسكرى البوليس والأفندى وصاحب المصنع ، أو يهينه الرئيس فى المصلحة » .

« وهذا الفقر الكافر ، الذى يشمل المجتمع، والذى يشغل جهد الرجل، ويستنفد طاقته النفسية والعصبية ، فلا يعود فى نفسه تلك السعة ، التى تنشأ فيها عواطف المحبة والمعاملة الكريمة للآخرين ، ولا فى أعصابه تلك الطاقة ، التى تحتمل أخطاء الناس التافهة ، وتصبر عليها ، أو تصفح عنها .

هذا الفقر ذاته ، هو الذى يستعبد المرأة للرجل ، ويجعلها تحتمل ظلمه وعسفه ، لأنه خير من الحياة بلا عائل »(١) .

ولو تركنا هذا الوضع (غير الإسلامى) ،الذى تعيشه الأسرة (المسلمة) فى القرن العشرين ، بفضل عوامل متعددة،فإننا يجب أن نذكر ، أن(الزواج الإسلامى) يقوم على عناصر ثلاثة ، هى :

« ١ — الرضى بين الزوج والزوجة .

٢ — المهر .

٣ — العقد ، المشتمل على الإيجاب والقبول »(٢) .

كما يجب أن نذكر،أن (الزواج الإسلامى)ليس لونا من ألوان الاستمتاع الجنسى ، بين حيوانين ،وإنما هو لون من ألوان(المشاركة) فى الخير والبناء، بين (إنسانين) ، وعلى طريق هذه المشاركة ، يأتى (الاستمتاع الجنسى) على الطريق ، بوصف الجنس جانبا من جوانب الحياة الإنسانية ، وليس كل جوانبها .

وفى هذه الحياة الزوجية الإسلامية، التى تقوم على المشاركة ، نرى للزوج حقوقه ، وللزوجة حقوقها ، وهذه الحقوق وتلك ، تتفق مع طبيعة كل منهما ، ووظيفته الأساسية ، التى خلق لها ، فى حياة هذه الأسرة .

فأما حقوق الزوجة على زوجها ، فتتلخص فى أن يوفيها مهرها كاملا

---

(١) محمد قطب : شبهات حول الاسلام ــ الطبعة العاشرة ــ دار الشروق ــ ١٣٩٧ هـ ــ ١٩٧٧ م ، ص ١٤٢ ، ١٤٣ .

(٢) العلامة السيد حسين يوسف مكى العاملى : المتعة فى الاسلام ، دراسات حول مشروعية المتعة وبقائها ــ الطبعة الثالثة ــ ١٣٩٦ هـ ــ ١٩٧٦ م ، ص ١٥ ــ من المقدمة .

غير منقوص » ، و « والإنفاق عليها بالمعروف » ، و « أن تكون النفقة حلالا » ، و « أن يسعى فى تعليمها لدينها » ، و « أن لا يتحدث إلى الناس بما يجرى بينه وبين زوجته » ، و « أن يغار عليها غيرة تقى عرضه أن يتدنس » ، و « أن يخالقها بخلق حسن ، ويعاشرها بالمعروف » ، « وأن يحتمل أذاها ، ويتغافل عن كثير مما يبدر منها » ، و « أن يمازحها ويداعبها » ، « وأن يقسم « بين الزوجات ، إذا كان متزوجا أكثر من واحدة » (١) .

وأما حقوقه عليها ، فتتلخص فى « أن تطيعه فى كل ما يأمرها به ، ما لم يكن معصية لله تعالى » ، و « أن تحتجب عن الأجانب أن يروها » ، و « أن تعمل جهدها على الخدمة فى الدار » ، و « أن لا تخرج من بيت زوجها إلا إذا أذن لها صراحة » ، و « أن تحرص على حفظ مال زوجها وصيانته » ، و « أن لا تصوم نفلا إلا بإذنه » ، و « أن تحفظ نفسها فى حال غيبته » ، و « أن لا تحمل زوجها ما لا طاقة له به » ، و « أن تستفرغ المرأة الجهد فى القيام بالواجبات الدينية » ، و « أن تكون بارة بزوجها » (٢) .

وسوف نرى ذلك بشىء من التفصيل ، فيما يلى .

القوامة وحقوق المرأة :

وهى الفرية الأولى ، التى أتتنا من الغرب الحاقد ، مستغلة جهل المسلمين الفاضح بالإسلام ، بفعل عوامل التخريب الثقافى ، قديمها وحديثها .

وتقوم الفرية على فرية أخرى ، هى فرية (المساواة) ، التى بينا مدى

---

(١) مجموعة رسائل العلامة المجاهد : الشيخ محمد الحامد — الطبعة الأولى — مكتبة الدعوة بحماة — سورية — شوال ١٣٧٥ هـ ، ص ٣٧—٤٥ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٤٥ — ٥٤ .

زيفها ، فى كتابنا السابق من السلسلة (١) ، حيث «كان الوعد بالمساواة ، مجرد أسطورة مسلية ، إذ لا يمكن أن تزدهر المساواة ، فى نظام شعاره الذائع : (كل يعمل لنفسه ، وبعده الطوفان) !! وكأن هذه المساواة ، غلطة مطبعية ضخمة ، فى سجل التاريخ !! » (٢).

ويعرض لنا محمد قطب ، قضية مساواة الرجل بالمرأة فى أوربا ، وتطورها التاريخى ، فيضع — بذلك — النقط على الحروف كما يقولون ، ويجلو لنا ما التبس على قومنا، فى هذه القضية. ويرى — فى هذا العرض — أن «الثورة الصناعية ، شغلت النساء والأطفال ، فحطمت روابط الأسرة ، وحلت كيانها . ولكن المرأة هى التى دفعت أفدح الثمن ، من جهدها وكرامتها ، وحاجاتها النفسية والمادية ، فقد نكل الرجل عن إعالتها من ناحية ، وفرض عليها أن تعمل لتعول نفسها ، حتى لو كانت زوجة وأما ! واستغلتها المصانع أسوأ استغلال ، من ناحية أخرى ، فشغلتها ساعات طويلة من العمل ، وأعطتها أجرا أقل من الرجل ، الذى يقوم معها بنفس العمل ، فى نفس المصنع » .

« وإذا كان النساء والأطفال ضعافاً ، فما الذى يمنع من استغلالهما ، والقسوة عليهما إلى أقصى حد ؟ » .

« ومع ذلك ، فقد وجدت قلوب إنسانية حية ، لا تطيق الظلم ، فهبت

---

(١) دكتور عبد الغنى عبود : قضية الحرية ، وقضايا أخرى (مرجع سابق) ، ص ٦٩ ، ٧٠ .

(٢) ميرزا محمد حسين : الاسلام وتوازن المجتمع — ترجمة فتحى عثمان — رقم (٣٥) من (سلسلة الثقافة الاسلامية) — دار الثقافة العربية للطباعة — ذو القعدة ١٣٨١ هـ — مايو ١٩٦٢ م ، ص ٤٠ ، ٤١ .

تدافع عن المستضعفين من الأطفال»، «فرفعت رويداً رويداً سن التشغيل، ورفعت الأجور، وخفضت ساعات العمل. أما المرأة، فلم يكن لها نصير».

«وجاءت الحرب العظمى الأولى، وقتل عشرة ملايين من الشباب الأوربيين والأمريكان، وواجهت المرأة قسوة المحنة بكل بشاعتها، فقد وجدت ملايين من النساء بلا عائل».

«ومن جهة أخرى، لم تكن هناك أيد عاملة من الرجال، تكفى لإعادة تشغيل المصانع، لتعمير ما خربته الحرب، فكان حتما على المرأة أن تعمل، وإلا تعرضت للجوع، هى ومن تعول، من العجائز والأطفال».

«ولم تكن المسألة مسألة الجوع إلى الطعام فحسب.

فالجنس حاجة بشرية طبيعية، لابد لها من إشباع. ولم يكن فى وسع الفتيات، أن يشبعن حاجتهن الطبيعية، ولو تزوج كل من بقى حيا من الرجال، بسبب النقص الهائل، الذى حدث فى عدد الرجال، نتيجة الحرب». «لذلك لم يكن بد للمرأة أن تسقط، راضية أو كارهة، لتحصل على حاجة الطعام، وحاجة الجنس».

«وسارت المرأة فى طريقها المحتوم ...»، «ولكن قضيتها زادت حدة، فقد استغلت المصانع حاجة المرأة إلى العمل، واستمرت فى معاملتها الظالمة، التى لا يبررها عقل ولا ضمير، فظلت تمنحها أجراً أقل من أجر الرجل، الذى يؤدى نفس العمل، فى نفس المكان.

ولم يكن بد من ثورة»، و«استخدمت المرأة الإضراب والتظاهر».

و « تلك قصة (كفاح المرأة لنيل حقوقها) فى أوربا » (١).

فالقضية على ذلك ليست قضية (مساواة) بين الرجل والمرأة ، وإنما هى قضية (كفاح) المرأة الغربية ، من أجل الوصل إلى مستوى الإنسان ، فى حق الحياة ، بعد أن حرمت هذه المرأة الغربية كل شىء ، حين حرمت حياة الأسرة ، التى بدونها لا تكون لها حياة ، كما رأينا فى فصول الكتاب الأولى .

ويرى الإمام الأكبر ، الشيخ محمود شلتوت ، يرحمه الله ، أنه «ما الزواج فى واقعه ، إلا ظاهرة من ظواهر التنظيم لفطرة ، أودعت فى الإنسان ، كما أودعت فى غيره من أنواع الحيوان » (٢) .

ترى لو سألنا المرأة الغربية ، التى حصلت على هذه المساواة المزعومة ، عما إذا كانت تفضل وضعها الراهن ، الذى وصلت إليه بعد كفاح وتضحيات ، أم أنها تفضل حياة (الحريم) ، التى كان بعض النساء من الإماء يحياها ، فى ظل حكم المماليك فى الشرق — فماذا يكون جوابها ؟ .

والجواب ليس صعباً كما يبدو ، وإنما نراه فى تلك المظاهرات ، التى تقوم بها المرأة الغربية ، بين لحظة وأخرى ، مطالبة بالتحرر من حياة (الحريم) التى تعيشها ، بعيداً عن (مملكتها) الحقيقية ، وهى البيت ، الذى بعيداً عنه ، لا ترى لنفسها وجوداً .

لقد فرحت المرأة الغربية أول الأمر بالبريق ، لسد حاجة .. ثم هتفت

---

(١) محمد قطب : شبهات حول الاسلام (مرجع سابق) ، ١٠٨ — ١١١ .
(٢) الامام الاكبر محمود شلتوت (مرجع سابق) ، ص ١٤٢ .

(الفطرة) فى أعماقها ، فتمردت — مرة ثانية — على هذا البريق ، متمنية أن تعود إلى هذه الفطرة .

ولكن المرأة الغربية لو عادت إلى هذه الفطرة ، فلن تجد الرجل مستعداً لها ، بعد أن أفسدته الحضارة الغربية ، ومن ثم فستعود إلى حياة أشق من (حياة الحريم) .

ولتعود إلى منزلتها الطبيعية ، على كل نساء الغرب أن يقمن (بإضراب) عام ، (يتحصن) فيه بالفضيلة ، وتسمو أخلاقهن ، حتى يعرف الرجال مدى حاجتهم إليهن ، ثم تبدأ (الأسرة) الغربية فى التكوين من جديد .

أى أن المرأة الغربية ، لتعود إلى فطرتها التى حرمتها ، عليها أن تعود إلى الطريق الإسلامى ، الذى رسمه للزواج ، من خلال الخطبة والمهر والزواج ، كما حددها الإسلام ، وكما رأيناها فى الفصل السابق (١) .

يضاف إلى ذلك ، أن الإسلام ، قد مضى «فى طريق المساواة بين الرجل والمرأة ، إلى مدى بعيد ، إن لم نقل إلى نهايتها » ، « فى المعاملات » ، و « فى النظرة الاجتماعية » ، و « فى الإرث » ، و « فى الزواج والأسرة » ، و « فى حق العلم » ، و « فى حقها بالتوظف » ، وفى « بر الأم » (٢) ، على نحو ما رأينا فيما سبق ، وعلى نحو ما سنرى فيما بعد .

فالمساواة بين الرجل والمرأة موجودة فى الغرب ، على سبيل الادعاء الباطل ، إذ أن المرأة الغربية قد تعبت بالفعل ، من الجرى على لقمة العيش ، لقضاء حاجات البطن ، كما تعبت — بالفعل — من الجرى وراء الرجل ، لقضاء حاجات الجنس . . ولم تجن من هذا الجرى ، ما تبغى تحقيقه من فطرة طبيعية ...

---

(١) ارجع الى ص ١٠١ وما بعدها من الكتاب .

(٢) الدكتور مصطفى الرافعى : حضارة العرب ، فى العصور الاسلامية الزاهرة — الطبعة الثانية — دار الكتاب اللبنانى ، للطباعة والنشر — ١٩٦٨ ، ص ٤١ ، ٤٢ .

وهى الأسرة .

وفى حالة نجاح المرأة فى تحقيق أسرة ، نجد أن قوانين الغرب لا تزال « تقضى أن تفقد المرأة اسمها واسم أسرتها ، بمجرد زواجها ، وتكتسب اسم زوجها واسم أسرته »(١) .

ولكنها موجودة فى الإسلام حقيقة ، بلا إدعاء ولا وهم باطل ، فالمرأة المسلمة — على حد تعبير الدكتور محمد عزيز الحبابى — « مساوية ، كامل المساواة ، للرجل ، فالشهادة ، التى تعد الركن الأول للإسلام ، واحدة ومشتركة بينهما . وتلك هى الحال أيضاً ، بالنسبة للأركان الأربعة الأخرى للدين » .

« فالمرأة تقرن بالرجل ، كلما خاطب الله الناس » .

و « وضع المسلمة ، وضع تحررى ممتاز ، إذا قورن بما كانت عليه المرأة العربية فى الجاهلية ، أو المرأة عند الشعوب القديمة (العريقة فى المدنية) »(٢) .

وأستطيع أن أضيف إلى قوله السابق : أو إذا قورن بما عليه المرأة الغربية اليوم ، على نحو ما سبق ، وعلى نحو ما سنرى أيضا .

ذلك أن الحرية — كما رأينا فى كتابنا السابق من السلسلة — ليست أخذا ، وإنما هى أخذ وعطاء ، وعلى قدر الحرية ، تكون المسئولية(٣) . وقد « حدد الإسلام الواجبات التى تؤديها الزوجة للزوج ، كما حدد حقوقها التى تؤدى لها قبله .

---

(١) توفيق على وهبة : الاسلام شريعة الحياة — الهيئة المصرية العامة للكتاب — ١٩٧٥ ، ص ٣١ .

(٢) الدكتور محمد عزيز الحبابى : الشخصانية الاسلامية — من (مكتبة الدراسات الفلسفية) — دار المعارف بمصر — ١٩٦٩ ، ص ٩٣ ، ٩٤ .

(٣) دكتور عبد الغنى عبود : قضية الحرية ، وقضايا أخرى (مرجع سابق) ، ص ٤٦ — ٤٨ .

وهو فى تحديده للواجبات عليها ، حافظ على شخصيتها وعلى حرماتها ، وإن جعل منها رفيقاً معاوناً : أبقى لها استقلالها التام، فى التصرف فيما تملك، من مال سائل ، أو مقوم فى تجارة أو صناعة أو زراعة ، أو فى أية صورة من الصور ، التى يقوم فيها المال، ولم يفرض عليها فيما تملك، نصيباً تسهم به فى تغطية تكاليف الحياة الزوجية . كما صان لها حرية الرأى والقول والاعتقاد ، فلا تضطر بسبب عقد الزواج ، إلى التنازل عن شيء من هذه الحرية ، وإن كان يجب عليها ألا تسلك بها طريقاً يؤدى إلى تعكير العلاقة بينهما ، أو إلى تقويضها »(١) .

ومن مظاهر المساواة بين الرجل والمرأة فى الإسلام ، واستقلالهما برغم الزواج ، ما يراه المرحوم الشيخ محمود شلتوت ، من أن « الإسلام يرى أن مسئولية المرأة من الوجهة الدينية ، كمسئولية الرجل ، سواء بسواء ، يكلف بالعقيدة ، وتكلف هى أيضاً بالعقيدة ، ويطالب بالعمل الصالح ، وتطالب هى أيضاً بالعمل الصالح .

وتضمن أن مسئوليتها فى ذلك مسئولية مستقلة ، عن مسئولية الرجل ، لا يؤثر عليها — وهى صالحة — فساد الرجل ، وخلل عقيدته ، ولا ينفعها صلاح الرجل ، وهى فاسدة العمل ، فاسدة العقيدة »(٢) .

وقصة امرأة نوح الكافرة ، وامرأة فرعون المؤمنة ، هنا ، معروفتان .

وليست هذه الحرية الممنوحة للمرأة فى الإسلام ، منافية لما يفرضه عليها

---

(١) الدكتور محمد البهى : الاسلام فى حياة المسلم (مرجع سابق) ، ص ٣٠٥ .

(٢) الامام الاكبر محمود شلتوت (مرجع سابق) ، ص ١٢ — من التمهيد .

الإسلام، من قوامة الرجل عليها، لأن (القوامة) هنا أمر يتصل (بتسيير) الحياة فى المنزل ، وبأصلح الطرفين لهذا التسيير ، و (بالأهلية) التى يجب أن تتوفر لطرفى العلاقة الزوجية — الرجل والمرأة ، كما رأيناها فى الفصل الثالث(١) — وأهلية الرجل تفرض (عليه) ، أن يقوم بهذه القوامة .

ونحن نرى فى حياتنا العادية ، مدى فساد الحياة فى الأسر ، التى تسير أمورها الزوجة ، ومدى نجاح هذه الحياة فى الأسر ، التى يكون الرأى فيها للرجل .

والفساد والنجاح هنا ، مقياسهما واضح ، هو (سعادة) الرجل والمرأة والأطفال ، ونجاح الأسرة فى اجتياز ما يعترضها من مشكلات .

ولنا إلى ذلك عود ثان ، عند حديثنا عن عمل المرأة .

عمل المرأة :

لم يفرض الإسلام قوامة الرجل على المرأة ، من باب التعصب للرجال ضد النساء ، كما (تحب) الكتابات الغربية أن تصور القضية ، وإنما فرضها ، استجابة لدواعى الفطرة ، لدى الرجل والمرأة على السواء ، وحدد (مبرراتها) ، فى الآية القرآنية ، التى فرضت فيها هذه القوامة :

— « الرجال قوامون على النساء ، بما فضل الله بعضهم على بعض ، وبما أنفقوا من أموالهم .. »(٢) .

وقد أشرنا إلى هذه الآية ، واستعرضنا تعليق الشهيد سيد قطب عليها ،

---

(١) ارجع الى ص ١١٣ وما بعدها من الكتاب .

(٢) قرآن كريم : النساء — ٤ : ٣٤ .

عند حديثنا عن (المهر) ، فى الفصل الماضى(١) . وظاهر الآية واضح ، فى أن قوامة الرجل ، مرجعها ما توفر لدى الرجل — طبيعياً — من صفات القوامة ، حيث القدرة على القيادة والإدارة ، وما تتطلبانه من حزم ، لا يعرف اللين أو الرحمة ، عند الاقتضاء (ما فضل الله بعضهم على بعض) ، ومرجعها كذلك — أن الرجال هم الذين يعولون الأسرة ، وألف باء الإدارة تقول : إن من ينفق ، لا بد أن يدير ، فمن غير المعقول أن أنفق أنا ، ويدير غيرى ، لأن ذلك لا بد أن يؤدى إلى (تبديد) الأموال ، لعدم إحساس هذا الغير ، بما بذل فى جمع هذه الأموال من جهد .

ويرى المرحوم الشيخ شلتوت ، أنه « فى القاعدة التى قرر القرآن بها المماثلة بين الزوجين ، فى الحقوق والواجبات ، قرر على الرجل مسئولية الهيمنة والقوامة ، وجعله المكلف بحق المرأة ، فيما يصل بها إلى الخير ، ويدفع بها عن الشر ، فقال (وللرجال عليهن درجة) .

وهذه الدرجة ليست درجة السلطان ، ولا درجة القهر ، وإنما هى درجة الرياسة البيتية ، الناشئة عن عهد الزوجية ، وضرورة الاجتماع هى درجة القوامة التى كلفها الرجل ، وهى درجة تزيد فى مسئوليته ، عن مسئوليتها»(٢) .

كما يرى الإمام أبو الأعلى المودودى ، أن « الذى يضع عليه الإسلام أساس الأسرة ، هو أنه من واجب الزوج أن يكسب للأسرة ، ويهيئ لها حاجاتها ، ويدافع عن أفرادها ، وأنه من واجب المرأة أن تدبر شؤون المنزل ، بما يكسبه الزوج ، وتهيئ أكبر راحة ممكنة لزوجها وأولادها ، وتعنى بتربية الأولاد ، وأنه من واجب الأولاد ، أن يطيعوا أبويهم ،

---

(١) ارجع الى ص ١٠٨ ، ١٠٩ من الكتاب .

(٢) الامام الاكبر ، محمود شلتوت (مرجع سابق) ص ١٥٦ ، ١٥٧ .

ويجلوهما ، ويخدموهما ، إذا كبروا . ولأجل أن يبقى نظام الأسرة سائرا على الخير والرشد والصلاح ، فقداختار الإسلام تدبيرين ، أولهما أن جعل الزوج والأب حاكما على الأسرة ، ناظرا لشؤونها ، فإنه كما لا يمكن أن يصلح نظام بلد من البلدان ، ويسير أمرها، بدون حاكم، قائم على شؤونها » ، « كذلك من المستحيل أن يصلح ويسير نظام الأسرة ، بدون من يكون حاكما عليها ، ناظرا لشؤونها » .

« والتدبير الثانى ، أنه قد أمر المرأة ، بعد ما ألقى على كاهل الرجل تبعة ما فى خارج البيت ، من الشؤون والمعاملات ، ألا تخرج من المنزل ، بدون حاجة تعرض لها . وقد أعفيت لأجل ذلك من المسئولية عما فى خارج المنزل من الشؤون، لتقوم بواجباتها فى داخل المنزل، حق القيام، بكل هدوء وطمأنينة »(١) .

ومن ثم فالمرأة — فى نظره — تعمل ، وهى ليست شيئاً مهملا معطلا فى المجتمع ، تعيش كلا على الرجل . . إلا أنها تعمل ، فى ميدانها الذى خلقت له .

وهى مأساة ، أن تترك المرأة ميدانها هذا ، لتعمل فى ميدان آخر ، غير هذا الميدان .

وهى مأساة بالنسبة للمرأة، وبالنسبة للرجل، وبالنسبة للمجتمع، على السواء .

وهى مأساة ، كتلك المأساة، التى نرى فيها الطبيب يعمل مهندسا، والمهندس يعمل طبيباً ، لأن (كلا ميسر لما خلق له) .

---

(١) أبو الأعلى المودودى : مبادىء الاسلام — دار الأنصار بالقاهرة — ١٩٧٧ ، ص ١٤٣ ، ١٤٤ .

ولنتذكر من ماضينا القريب، المأساة التي عاشتها مصر ، في عهد عبد الناصر ، عندما ترك الضباط ميدان القتال ، في مواجهة إسرائيل ، ليتولوا الوظائف المدنية ، لتنهار — بذلك — جبهة القتال ، ويكون فرار ١٩٦٧ المشهور ، ولتنهار مرافق المجتمع المصري على أيدي هؤلاء الضباط ، ولتنهلهل علاقات الدولة المصرية بالدول الأخرى ، من خلال هؤلاء الضباط ، الذين وصلوا إلى السلك السياسي والدبلوماسي أيضاً .

فترك المرأة (لميدان قتالها) الحقيقي . . إلى ميدان آخر ، مأساة ، بأي مقياس ، « فالمجتمع الذي يتزاحم فيه النساء والرجال على عمل واحد ، في المصانع والأسواق ، لن يكون مجتمعا صالحا ، مستقيما على سواء الفطرة ، مستجمعا لأسباب الرضى والاستقرار ، بين بناته وبنيه ، لأنه مجتمع يبذر جهوده ، تبذير السرف والخطل ، على غير طائل ، ويختل فيه نظام العمل والسوق ، كما يختل فيه نظام الأسرة والبيت . . .

فالمرأة لم تزود بالعطف والحنان والرفق بالطفولة ، والقدرة على فهمها وإفهامها ، والسهر على رعايتها في أطوارها الأولى ، لتهجر البيت ، وتلقي بنفسها في غمار الأسواق والدكاكين . . . وسياسة الدولة كلها ليست بأعظم شأنا ، ولا بأخطر عاقبة ، من سياسة البيت ، لأنهما عدلان متقابلان : عالم العراك والجهاد ، يقابله عالم السكينة والاطمئنان . وتدبير الجيل الحاضر ، يقابله تدبير الجيل المقبل . . وكلاهما في اللزوم وجلالة الخطر سواء . . . »(١) .

وإذا كان ميدان المرأة الحقيقي ، ليس المجتمع ، وإنما هو البيت ، بمن فيه من زوج وأطفال ، فإن تركها هذا الميدان ، تخريب للميدان الحقيقي الذي تركته ،

---

(١) عباس محمود العقاد : الفلسفة القرآنية (مرجع سابق) ، ص ٤٦ ، ٤٧ .

وللميدان الجديد ، الذى لم تعد له بطبيعتها ، «ولولا مركب النقص ، لكان للمرأة فخر بمملكة البيت ، وتنشئة (المستقبل) فيه ، لا يقل عن فخر الرجل بسياسة (الحاضر) ، وحسن القيام على مشكلات المجتمع ، التى تحتاج إلى الجهد والكفاح . وهى لو رجعت إلى سليقتها ، لأحست أن زهوها بالأمومة ، أغلى لديها ، وألصق بطبعها ، من الزهو بولاية الحكم ورئاسة الديوان — فليس فى العواطف الإنسانية ، شعور يملأ فراغ قلب المرأة ، كما يملؤه الشعور بالتوفيق فى الزواج ، والتوفيق فى إنماء البنين الصالحين ، والبنات الصالحات . . »(١).

وطالما كان لكل من الرجل والمرأة (ميدان جهاده) ، فإن على كل منهما أن (يعمل) فى هـــذا الميدان ، وألا يتركه لغيره . . وإلا اختل دولاب العمل .

و (يفاضل) الشيخ محمد متولى الشعراوى بين الميدانين — ميدان الرجل وميدان المرأة ، فيرى أن ميدان عمل المرأة أفضل وأشرف ، من ميدان عمل الرجل ، وذلك لأن الرجل — بحكم تعامله فى خارج البيت — إنما يتعامل « مع (أشياء) ، كل هذه الأشياء لخدمة الإنسان ، والإنسان أرفع هذه الأجناس كلها . . أما مهمة المرأة ، فهى التعامل مع ذلك الجنس الراقى ، وهو الإنسان ، تتعامل مع الإنسان كزوج ، فيسكن إليها وتريحه ، ثم تتعامل معه جنينا ، فيكون فى بطنها ، وبعد ذلك وليدا تحتضنه ، ووليداً ترضعه ، ووليدا تعطى له المثل » (٢).

---

(١) المرجع السابق ، ص ٤٧ .

(٢) فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى : القضاء والقـدر ، معجزات الرسول ، اعجاز القرآن ، مكانة المرأة فى الاسلام — اعداد وتقديم احمد فراج — الطبعة الثانية — دار الشروق — سبتمبر ١٩٧٥ ، ص ١٧٣ .

على أن ذلك لا يعنى تحريم عمل المرأة خارج المنزل ، وإنما يحرم هذا العمل، عندما لا تكون مضطرة إليه ، وعندما يشغلها عن شاغل المنزل ،«وفى وسع المرأة المسلمة ، التى تحترم قوامة البيت ، أن تزاول من العمل الشريف، كل ما تزاوله المرأة فى أمم الحضارة ، فلها نصيبها ما اكتسبت ، ولها مثل الذى عليها بالمعروف ، وذلك حقها الذى تملكه . كلما سيقت إليه ، أو كلما اختارته لمصلحتها ، وذلك حقها فى القرآن الكريم »(١) .

تعدد الزوجات :

ويعتبر الصليبيون الحاقدون على الإسلام ، مسألة (تعدد الزوجات)، الذى أباحه الإسلام ، (مقتلا) فيه ، ومن ثم يوجهون معظم طعانهم إليه ، ويتخذون منه منطلقا للهجوم على نبى الإسلام نفسه ، عليه الصلاة والسلام ، الذى لم يكتف بأربع ، كما أباح الإسلام (للشهوانيين) المسلمين ، وإنما أباح لنفسه — دونهم — تسعا .

ولو بحثنا قضية تعدد الزوجات فى الإسلام ، لرأينا المسلك الإسلامى فيها ،هو المسلك (المتحضر) ، ودونه بكثير ، أى مسلك آخر ، فى الديانات الكتابية . وفى المذاهب الاجتماعية على السواء .

ذلك أن « من الأوهام الشائعة بحكم العادة ، أن الدين الاسلامى هو الدين الوحيد ، الذى أباح تعدد الزوجات ، بين الأديان الكتابية .

وهذا وهم قد سرى إلى الأخلاد ، بحكم العادة » ، «لأن الواقع الذى تدل عليه كتب الإسرائيليين والمسيحيين ، أن تعدد الزوجات لم يحرم فى كتاب من كتب الأديان الثلاثة ، وكان عمـــلا مشروعا عند أنبياء بنى إسرائيل

---

(١) عباس محمـود العقـاد : المرأة فى القرآن (مرجـع سابق) ، ص ٧٠ .

وملوكهم ، فتزوجوا بأكثر من واحدة ، وجمعوا بين عشرات الزوجات والجوارى ، فى حرم واحد » (١) .

« فالشرائع المدنية عامة قبل الإسلام ، كانت تبيح تعدد الزوجات، واقتناء السرارى ، بغير تحديد للعدد، ولا التزام بشرط من الشروط ، غير مايلتزمه الزوج،من المؤنة والمأوى .

والشريعتان الدينيتان السابقتان للإسلام - وهما الإسرائيلية والمسيحية — مختلفتان فى أحكام الزواج ، والنظر إلى معناه وغايتـه ، من الوجهة الروحية . .

فالشريعة الإسرائيلية ، أباحت تعدد الزوجات ، بمشيئة الزوج ، حسب رغبته واقتداره » .

« ثم جاءت المسيحية — وهى أكبر الديانات الكتابية ، بعد ديانات أنبياء بنى إسرائيل — فلم تتوسع فى التشريع الاجتماعى ، لأنها نشأت فى بيئة مكتظة بالشرائع » ، « ولم يرد فى كتبها نص صريح ، بتحريم تعدد الزوجات ، وإنما ورد فى كلام بولس ، رسولها الكبير، استحسان الاكتفاء بزوجة واحدة ، لرجل الدين المنقطع عن مآرب دنياه ، إلى الرضا بأهون الشرين ، وقياسا على أن ترك الزواج لمن استطاعه ، خير من الزواج .

وبقى تعدد الزوجات مباحاً فى العالم المسيحى ، إلى القرن السادس عشر » (٢) .

---

(١) عباس محمـود العقـاد : الفلسفة القرآنيـة (مرجع سابق) ، ص ٥١ .

(٢) عباس محمود العقاد : المـرأة فى القـرآن (المرجع الأسـبق) ، ص ٧٤ — ٧٦ .

وقد رأينا — عند حديثنا عن الزواج فى الفصل الثالث (١) — أن هذا الموقف الذى وقفته المسيحية من الزواج ، مرجعه موقف المسيحية من المرأة على وجه العموم ، باعتبارها «شرا محضا ، وحبالة من حبالات الشيطان ، بل أخطر هذه الحبالات ، واستكثر أناس من آباء الكنيسة وفقهائها ، أن تكون لها روح علوية ، فبحثوا فى ذلك ، وأوشكوا أن يلحقوها بزمرة الحيوان ، الذى لا حياة له بعد فناء جسده ...

فكان تعدد الزوجات مباحاً فى الأديان الكتابية جميعاً . ولم يحرم — حين حرم — إكبارا للمرأة ، وتنزيها لها عن قبول المشاركة فى زوجها ، بل كانت الفكرة الأولى فى تحريمه ، أن المرأة شر ، يكتفى منه بأقل ما يستطاع » (٢) .

ويرى المرحوم الشيخ محمد أبو زهرة ، أنه «لم يعرف أن أمة فى القديم ، منعت التعدد إلا مصر ، ولكنها كانت تتحلل من القيد المانع ، بجعل من يجئن بعد الأولى ، فى منزلة دونها » .

« وجاء الإسلام ، فى وسط إباحة للتعدد ، مطلقة عند الفرس والرومان والعرب وغيرهم ، وهو أول شريعة صرحت تصريحاً قاطعاً ، بأن المرأة لها من الحقوق ، بقدر ما عليها من واجبات » (٣) .

وهكذا جاء الإسلام فأنصف المرأة ، لأول مرة فى تاريخ الديانات والحضارات على السواء ، ولم يحط من شأنها ، كما يدعى الحاقدون على الإسلام ،

---

(١) ارجع الى ص ٩١ — ٩٥ من الكتاب .

(٢) عباس محمود العقاد : الفلسفة القرآنية (مرجع سابق) ، ص ٥١ .

(٣) الامام محمد أبو زهرة : تنظيم الأسرة ، وتنظيم النسل — الطبعة الأولى — دار الفكر العربى — ١٣٩٦ هـ — ١٩٧٦ م ، ص ٦٤ .

والمتأسلمون ، أو المسلمون الجاهلون بالإسلام ، الذى لاينتسبون إليه، إلا بالاسم وحده .

«فالإسلام» — على حد تعبير المرحوم عباس محمود العقاد — «لم ينشىء تعدد الزوجات ، ولم يوجبه ، ولم يستحسنه . ولكنه أباحه فى حالات ، يشترط فيها العدل والكفاية » (١) .

إنه « أباحه ، وفضل عليه الاكتفاء بالزوجة الواحدة ، وفضله على تعطيل الزواج ، فى مقصده الطبيعى والشرعى ، بقبول العقم ، والتعرض للغواية ، وفرض العزوبة » (٢) .

يضاف إلى ذلك ، أن تعدد الزوجات فى الإسلام ، ليس مقصوداً به ، إظهار (قوة الرجل) ، أو (سلطانه) على المرأة ، وإنما هو (تشريع طوارىء) ، على حد تعبير محمد قطب ، « وليس هو الأصل فى الإسلام » ، إذ « المطلوب » ، « هو القسط والعدل ، وهو غير مضمون التحقيق » .

« وأهم الحالات ، التى يحتاج المجتمع فيها إلى هذا التشريع ، هى حالات الحروب ، التى تفنى عدداً كبيراً من الشباب ، فيختل الميزان ، ويزيد عدد النساء على عدد الرجال » ، « لاتقاء الفساد الخلقى والفوضى الاجتماعية ، التى تنشأ لا محالة ، عن وجود نساء بلا رجل » ،

« وشبيه بحالة الحرب ، كل حالة يختل فيها التوازن ، لسبب من الأسباب .

فالرجال أكثر تعرضاً لحوادث العمل ، وحوادث الطريق ، وللموت

---

(١) عباس محمود العقاد : المرأة فى القرآن (مرجع سابق) ، ص٧١ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٧٨ .

فى الأوبئة ، لأنهم أقل مناعة بالطبيعة من النساء . أما حين يتساوى العدد ، فلا يمكن — حسابيا — أن يقوم تعدد الزوجات » .

« وهناك حالات فردية، معروفة لدى الفقهاء ، يكون تعدد الزوجات فيها ضرورة، منها الطاقة الجنسية الشاذة ، التى لا تكتفى بواحدة » ، « ومنها حالات عقم الزوجة» ، «أو حالات المرض الدائم ، الذى يمنع الاتصال» ، « أو حالات النفور ، التى لا يملك الإنسان دفعها ، ولا السيطرة عليها ، كراهة منه أن يطلقها ، ووفاء لعشرته الطويلة معها، أن تنتهى بالطلاق، وهو شعور كريم ، وإن كان لا يؤدى إلى سعادة الزوجة. أما إذا كان يمسك بها ، ضرراً ومكايدة ، فذلك حرام عليه عند الله ، وسبب موجب للطلاق ، حين تطلبه الزوجة » (١) .

فتعدد الزوجات — فى الإسلام تشريع طوارىء ، «الحكم الأصلى» فيه ، « هو الكراهة ، وأنه لا يباح إباحة خالصة من الحرمة والكراهة ، إلا إذا دعت إليه الحاجة » (٢) .

والحاجة هنا، حاجة المرأة ، وحاجة المجتمع، أكثر مما هى حاجة الرجل، كما يحلو لأعداء الإسلام والمتأسلمين أن يصوروا القضية، فعندما يختل توازن المجتمع ، فيزيد عدد النساء عن عدد الرجال ، يكون لصالح المرأة أن يتزوج « الرجل أكثر من امرأة ، فيرفعها إلى شرف الزوجية ، وأمان البيت، وضمانة الأسرة، وتأمين الطفولة، ويرفع ضميره عن لوثة الجريمة، وقلق

---

(١) محمد قطب : شبهات حول الاسلام (مرجع سابق) ، ١٣٥ — ١٣٧ .

(٢) عبد المتعال الصعيدى : لماذا أنا مسلم ؟ — مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز — ١٩٧٦ ، ص ٤٩ .

الإثم ، وعذاب الضمير ، ويرفع المجتمع عن لوثة الفوضى ، واختلاط الأنساب . وقذارة الفحشاء . . »(١) .

الطـــلاق :

وبنفس النظرة ، التى ينظر بها أعداء الإسلام ، والمتأسلمون، إلى قضية تعدد الزوجات ، ينظرون إلى قضية الطلاق ، بوصفها (مقتلا) فى الإسلام أيضاً .

ولو تدبر هؤلاء وهؤلاء قضية الطلاق ، لوجدوها — كقضية تعدد الزوجات - دليلا على (واقعية) الإسلام ، واحترامه للمرأة ، وللأساس السليم ، الذى يجب أن تقوم عليه الأسرة .

والطلاق فى الإسلام ، ليس (بداية) الطريق ، الذى تحدده (إرادة) الرجل ، ومشيئته واقتداره ، كما يحب هؤلاء أن يتصوروا الأمور ، ويصوروا القضية ، ولكنه (نهاية) طريق ، تصبح الحياة الزوجية بعده مستحيلة ، فيكون الأكرم للمرأة ، بوصفها العنصر الأضعف فى العلاقة الزوجية ، أن (تستقل) عن الرجل ، وتسير فى طريقها هى .

والطلاق نهاية الطريق ، لأن أول الطريق يحدده القرآن الكريم :

— «.. واللاتى تخافون نشوزهن ، فعظوهن ، واهجروهن فى المضاجع ، واضربوهن ، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ، إن الله كان علياً كبيراً . وإن خفتم شقاق بينهما ، فابعثوا حكماً من أهله وحكما من أهلها ، إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما ، إن الله كان عليما خبيرا »(٢) .

---

(١) سيد قطب : السلام العالمى والاسلام (مرجع سابق) ، ص ٩٣ .
(٢) قرآن كريم : النساء — ٤ : ٣٤ ، ٣٥ .

فالأصل فيه بذل الجهد ، فى سبيل استمرار الحياة الزوجية ، ولها فى الإسلام قدسيتها ، التى ظهرت فى كل صفحات الكتاب السابقة ، ولكن استمرار هذه الحياة، يكون أحياناً هو المستحيل،وهنايكون(الأكرم) للطرفين ، هو أن ينفصلا (بالمعروف) ، الذى جعله الإسلام أساس الحياة الزوجية ، ثم جعله أساس انتهائها ، إذا كان لها أن تنتهى :

— « وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن ، فأمسكوهن بمعروف ، أو سرحوهن بمعروف ، ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا ، ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه .. »(١) .

— « فإذا بلغن أجلهن : فأمسكوهن بمعروف ، أو فارقوهن بمعروف ، وأشهدوا ذوى عدل منكم ، وأقيموا الشهادة لله ، ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، ومن يتق الله يجعل له مخرجا ، ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ... أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ، ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن ، وإن كن أولات حمل ، فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن ، فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن ، وا أتمروا بينكم بمعروف ، وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى ، لينفق ذو سعة من سعته ، ومن قدر عليه رزقه ، فلينفق مما آتاه الله ، لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها ، سيجعل الله بعد عسر يسرا »)(٢) .

فالطلاق — على حد تعبير الشهيد سيد قطب — هو « صمام الأمن ، فى هذه الخلية . إنه أبغض الحلال إلى الله ، ولكنه مكروه ، تبيحه الضرورة ، تحقيقاً للسلام الحقيقى فى جو البيت ، حين يعز السلام ، عن كل طريق

---

(١) قرآن كريم : البقرة — ٢ : ٢٣١ .
(٢) قرآن كريم : الطلاق — ٦٥ : ٢ — ٧ .

سواه » (١) ، وهو دليل « واقعية الشريعة » ، « عند تعذر الوفاق بين الزوجين ، هذا مع تعظيم الإسلام لشأن العلاقة الزوجية ، واعتبار هذا الرباط (ميثاقا غليظاً) » (٢) .

وقبل الوصول إلى (أبغض الحلال إلى الله) ، على حد تعبير الرسول الكريم ، فى وصفه للطلاق ، هناك — كما ترينا الآيات القرآنية السابقة — (خطوات)، لابد أن تتبع ، (منعا)من الوصول إليه، تتدرج من معالجة الأمر على مستوى الزوجين ، فى منزل الزوجية ، دون أن يعلم بذلك أحد ، إلى تدخل الأهل للإصلاح ، إلى الطلاق . . بمراحله المختلفة ، ابتداء من مرحلة العلاج والإصلاح ، وانتهاء بالانفصال النهائى ، على نحو ما سنرى .

وتبدأ هذه الخطوات ، كما ترينا سورة النساء فيما سبق ص ١٤٩ (٣) ، بالعظة ، فإذا لم تفلح العظة ، كان الهجر فى المضاجع ، الذى يرى فيه المرحوم عباس العقاد « أبلغ العقوبات » ، لأنها عقوبة « تمس الإنسان فى غروره ، وتشككه فى صميم كيانه : فى المزية التى يعتز بها ، ويحسبها مناط وجوده وتكوينه .

والمرأة تعلم أنها ضعيفة إلى جانب الرجل ، ولكنها لا تأسى لذلك ، ما علمت أنها فاتنة له ، وأنها غالبته بفتنتها ، وقادرة على تعويض ضعفها ، بما تبعثه فيه من شوق إليها ، ورغبة فيها . فليكن له ما شاء من قوة ، فلها ما تشاء من سحر وفتنة ، وعزاؤها الأكبر عن ضعفها ، أن فتنتها لا تقاوم » .

---

(١) سيد قطب : السلام العالمى والاسلام (مرجع سابق) ، ص ٨٤ .

(٢) الدكتور يوسف القرضاوى : الخصائص العامة للاسلام (مرجع سابق) ، ص ١٦٤ .

(٣) قرآن كريم : النساء — ٤ : ٣٤ .

« فإذا قاربت الرجل مضاجعة له ، وهى فى أشد حالاتها إغراء بالفتنة ، ثم لم يبالها ، ولم يؤخذ بسحرها ، فما الذى يقع فى وقرها ، وهى تهجس بما تهجس به فى صدرها ؟ » . « يقع فى وقرها أن تشك فى صميم أنوثتها ، وأن ترى الرجل فى أقدر حالاته ، جديراً بهيبتها وإذعانها » . « فهذا تأديب نفسى ، وليس بتأديب جسد » (١) .

فإذا لم يفلح علاج الأمر فى محيط المنزل ، الذى يضم الزوجين ، « واستمر هذا الخلاف ، حتى بدا عيانا واضحا للناس — اقترح الإسلام حلا آخر ، هو أن يحكم واحدا من أهله ، وآخر من أهلها ، لفض هذا النزاع » (٢) - خارج هذا المنزل ، ولكن فى محيط منزل أكبر ، ينتمى إليه الزوجان المتنازعان .

وإذا فشل علاج الأمر على هذا المستوى ، كان الانتقال إلى مستوى أعنف ، وهو مستوى الطلاق ، بمراحله المختلفة ، إذ لا يعنى الطلاق « الفرقة النهائية » ، « وإنما معناه الفرقة المؤقتة ، لإعطاء فرصة لمراجعة كل منهما نفسه ، فى شأن هذه العلاقة » (٣) ، « يجوز بعدها تدارك أمره ، والرجوع إلى الزوجية ، عند زوال أسباب الشقاق » ، « على ثلاث مرات ، ليمكن فى المرة الأولى والثانية ، تدارك ذلك ، وفى تجربة المرتين كفاية عن غيرهما ، ولا يصح أن يزاد عليهما ، لئلا يكون الزواج ألعوبة ، ويضيع بين الناس ، ما له من حرمة » (٤) .

---

(١) عباس محمود العقاد : المرأة فى القرآن (مرجع سابق) ، ص ١١٥ .

(٢) الدكتور محمد البهى : الاسلام فى حياة المسلم (مرجع سابق) ، ص ٣١٧ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٣١٧ .

(٤) عبد المتعال الصعيدى (مرجع سابق) ، ص ٥٥ .

والخطوات التى تتبع لإصلاح العلاقة الزوجية، سيرا فى طريق الطلاق الطويل هذا ، ليست أمرا قاصرا على الزوج ، وليست سلاحا مسلطا فى يده وحده ، وإنما هى سلاح فى يد الزوجة أيضاً ، تستطيع أن تستعمله .

فمثلما يستطيع الرجل أن ينصح المرأة، تستطيع هى أن تنصحه .

ومثلما يستطيع الرجل أن يهجر المرأة فى المضجع ، فيطعنها فى صميمها، إن لم تجدمعها النصيحة، تستطيع المرأة أن تهجره، فتطعنه فى صميمه . . وليس حتما أن يكون الهجر من جانب الزوجة، هجرا بالجسد ،وإنما يكفى أن يحس الرجل بأن المرأة تعطيه جسدها وحده ، لأنها لا تستطيع — بحكم ضعفها — أن تحرمه إياه . . ليحس بأنه مطعون ، فى مقتل حقيقى .

وإذا انتقل الأمر من الإصلاح الداخلى، حتى وصل إلى الطلاق بمراحله المختلفة ، فإن الإسلام قد أعطى « حق الطلاق لكل من الرجل والمرأة ، وللمرأة فى حالات معينة ، وهذه ضرورة حتمية ، لأنه فى حالة النزاع المستحكم بين الزوج والزوجة، أو فى حالة المعاملة السيئة الدائمة، من أحدهما للآخر ، فإن من المستحسن أن تفض الشركة ، التى تجمع بينهما ، بدلا من تكدير صفو الحياة المنزلية الهادئة ، التى بدونها لا يتصور إقامة البيت الثابت المستقر . . والشركة بالمعنى الحقيقى للكلمة ، تستمر وتدوم ، مادام كل من الطرفين يشترك مع الآخر بحريته ، وباتفاقه ، وبدون ضغط أو إكراه .

ولا يمكن للرجل أن يطلق زوجته ،دون أن يدفع إليها مؤخر صداقها، المتفق عليه عند عقد الزواج ، ويمكن للمرأة أن تحصل على الطلاق ، إذا قدمت الدليل على معاملة زوجها السيئة لها ، أو إذا كان الزوج عنينا ، أى لا يستطيع القيام بالاتصال الجنسى ، عن نقص طبيعى فيه ، أو كان يعانى مرضا معديا ، مثل الجذام، أو أن يكون غير قادر على أن يمد زوجته بالحد

الأدنى للمعيشة ، ولكن فى مثل هذه الحالات ، على المرأة أن تتنازل عن مؤخر الصداق ، المتفق عليه » (١) .

وهكذا ، حتى فى الطلاق ، يكون هدفه — فى الإسلام — إصلاح حال الأسرة ، بمبادرة من الرجل ، أو بمبادرة من المرأة ، ويكون هدف الإسلام من الطلاق ، كهدفه من الزواج ، ومن تعدد الزوجات ، هو احترام (إنسانية) الرجل ، واحترام (إنسانية) المرأة ، على السواء .

(١) محمد مظهر الدين صديقى : ما هو الاسلام — رقم (٣) من سلسلة (نحو وعى اسلامى) — المختار الاسلامى — ١٣٩٨هـ — ١٩٧٨م ، ص ٥٥ .

وللمسلم أن يفخر بأسرته

فى الفترة التى تقع بين الانتهاء من هـذا الكتاب تماماً ، وبين الدفع به إلى المطبعة ، وقع بين يدى — مصادفة — كتاب لم أسمع به من قبل ، ولكنى أعرف جيداً مؤلفه .

فأما الكتاب ، فهو (التربية والصالح العام) ، وأما مؤلفه ، فهو فيليب فينكس ، أستاذ فلسفة التربية فى كلية المعلمين بجامعة كولومبيا فى الولايات المتحدة ، وصاحب سلسلة من المؤلفات الطويلة والقيمة فى مجال التربية ، الذى تخصصت فيه .

ولعل عدم شهرة الكتاب ، رغم شهرة مؤلفه ، هو أنه من مترجمات وزارة التربية والتعليم ، التى لا تضع اسمها على عمل ذى قيمة ، إلا وتكون نذير شؤم له .

ويجول فينكس فى كتابه فى مجالات شتى ، تجمع بين الذكاء والابتكار ، والضمير والصحة ، والجنس والأسرة ، والحكم والدين ، وغيرها وغيرها ، وتحس — وأنت تجول معه — بأنك تضع يدك فى يد عالم من علماء الإسلام المتقدمين ، لا فى يد عالم من علماء التربية الأمريكية . . المعاصرين .

ولم يكن أمامى إلا أن أمزق ما كتبته ، مستغنيا عنه ، مخليا مقدمة هـذا الجزء الختامى ، لهذا الكتاب الثامن من كتب السلسلة ، لأعرض - فيه - رأى فينكس ، فى عدد من القضايا ، التى يدور حولها هذا الكتاب ، تاركا رأيه فى القضايا الأخرى ، إلى كتب السلسلة التالية ، حسب (موضوع) كل منها ...

ويرى فينكس — فيما يرى — أن « الأسرة هى الوحدة الاجتماعية

الأساسية ، ومن أجل تكوينها ، كانت الحياة الجنسية » (١) — رادا بذلك على الحياة الغربية المعاصرة ، التى ترى الجنس بداية ونهاية ، على أساس أنه « ليس كالجنس شيء يقدم القضية الكبرى : قضية الشهوة ، ضد المحبة والوفاء » ، بعيد أن « أحلت فلسلفة إشباع اللذة ، الواسعة الانتشار ، الارتواء الجنسى ، محلا رفيعاً ، بين الأمور الطيبة فى الحياة » (٢) .

كما يرى فينكس ، أن « الشهوة الجنسية — بالغة ما بلغت قوتها — لا تشبه التماس الطعام والشراب ، وهو ما يجب إشباعه ، إذا أريد للحياة أن تستمر . أما إرضاء الدوافع الجنسية ، فيمكن التنازل عنه بصفة وقتية أو دائمة ، دون أن يلحق بالفرد أى ضرر ، شريطة أن يفهم أغراض التنازل ، ويتقبلها . والواقع أن تزويد الفرد بأهداف ، لها مغزاها الكافى ، يميل بتنازله عن إشباع الدوافع الجنسية ، إلى التسامى . على أن الكبت ليس شيئاً طيبا فى حد ذاته ، كما أنه غير مفيد ، عند مايفرض من الخارج ، على أنه مجرد حرمان من اللذة . ولكن عندما يصل الإنسان إلى أن يرى أن تنظيم الدافع الجنسى ، وسيلة ضرورية لخدمة خير أسمى ، فإن التضحية بالرضا ، يمكنها أن تكون مصدرا للرفاهية . ومن العسير على أى إنسان أن يحتفظ بهذه الصورة منعزلة ، فممارسة العفة فى المجتمع الشهوانى ، يفرض على الفرد توتراً شديداً . ونحن بحاجة إلى أن نختط لأنفسنا مجموعة من التوقعات والمواصفات الاجتماعية ، التى يمكن أن نعزز بها التنظيم السليم للنشاط

---

(١) فيليب هـ. فينيكس : التربية والصالح العام — ترجمة السيد محمد العزاوى ، والدكتور يوسف خليل — مراجعة محمد سليمان شعلان — تقديم السيد يوسف — الجمهورية العربية المتحدة — وزارة التربية والتعليم — بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر — القاهرة — نيويورك — يونيو سنة ١٩٦٥ ، ص ١٨٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٩٣ .

الجنسى ، بدلا من أن نزيد من صعوبته ، بإلقاء معظم عبئه على كاهل الفرد ، كما هى الحال اليوم » (١) .

ولا تعليق على هذا الكلام ، سوى أنه لو قاله مسلم ، لاتهم بالرجعية والتخلف والعفونة ، وبأن عقليته عقلية متحجرة ، من عقليات عصر الحريم ، وربما عقدت له المحاكمات ، وسلطت عليه سياط التعذيب ... فى داخل بلاده الإسلامية ، ولكنه كلام (خواجة) ، ومن ثم فهو جدير بأن نستمع إليه ، ونفكر فيه ، دون ما خوف من ذلك كله .

ويتم فينكس مسيرته ، فيضع للجنس والأسرة ، ثمانى قواعد ، يراها ضرورية لاستقامة حياة الإنسان — فرداً وجماعة ، أولاها ، هى أنه يجب الحكم دائماً على النشاط الجنسى ، حكما لا ينفصل عن مثل الأسرة العليا ، فالأسرة هى الغاية ، والعلاقات الجنسية هى الوسيلة إلى تحقيقها » .

« ٢ — تنتج عن هذا ، القاعدة الثانية ، وهى أن الاتصال الجنسى يجب أن يتم بين الزوج والزوجة ، لا بين الرجل والمرأة ، خارج نطاق الزوجية ، وذلك لأن العلاقات الجنسية الخارجية ، تهدم الأسرة ، وتنقض ميثاق الوفاء ، الذى يجب أن يقوم متينا بين شريكى الحياة . وما تجويز إجراء التجارب الجنسية قبل الزواج ، كوسيلة للاستعداد للزوجية ، وكاختبار للتوافق الجنسى بين الخطيبين ، سوى تسويغ للإباحية ، واتباع الأهواء الشخصية . ويمكن للزوجين المخلصين — بل ويجب عليهما — أن يقوما بعمليات التكيف الجنسى ، بوصفها أحد واجبات الحياة الزوجية ، إذ يجب أن تكون الزوجية ، حالة من حالات التعلم والنمو معاً ، يدخل فيها الشريكان على البراءة ، لا على الجهالة ، ويشتركان فى اكتشاف الجنس ، كخبرة جديدة فريدة .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٩٤ .

٣ — وتقييد الصلات الجنسية بالنسبة للمتزوجين ، لا يقتصر على عملية الاتصال الجنسى الكاملة ، بل يتعداها إلى صور الإثارة الجنسية المتبادلة ، التى هى تمهيد للاتصال الجنسى . وإن انتشار عادة الغزل بين الناس ، الذين لا ينتوون الزواج بعضهم ببعض ، جاء نتيجة التقبل العام للعلاقات الجنسية، كوسيلة إلى الارتواء ، لاصلة لها البتة ، ببناء الأسرة . ولما كان فى كل تلامس بدنى ، يتم بين الجنسين ، يكمن الاتحاد الجنسى ، كأمل، أو كنية ، أو كميل ضمنى ، كان من الواجب أن يقتصر هذا التلامس، على الذين أعلنوا خطبتهم، وتعاهدوا على الزواج . والغزل من الوجهة الخلقية معادل للجماع، فضلا عن أنه يشتمل على تناقض سيكولوجى كامن ، وهو أنه دعوة للذة والاستمتاع ، وإحباط للشهوة، فى آن واحد . وعلى هذا ، فهو لا يسمم ينبوع العفة فحسب، بل ويخلق عادات للاستجابة الجنسية ، تجعل تسليم الفرد فيما بعد، لشريك حياته، تسليما كاملا ، أمراعسير المنال. ومن العسير على الشباب أن يكفوا عن الغزل ، فى مجتمع يشيع فيه تقبل الغزل ، وممارسته » .

« ٤ — والقاعدة الرابعة ، هى أن الاتصال الجنسى فى نطاق الزوجية ، يجب أن يكون وسيلة لإنجاب الأطفال ، وأسلوبا يعبر به الزوج والزوجة ، عن ولاء أحدهما للآخر ، وأما الزواج الذى يستبيح فيه الزوج والزوجة، استعمال أحدهما للآخر ، لتحقيق المآرب الجنسية وكفى ، فليس بزواج صحيح ولا سليم » .

« وهذا لا يعنى أن الاستمتاع بالجنس ، لا محل له فى الزواج ، بل إن الاستمتاع المتبادل ، أمر مهم ومشروع ، ولكن كعامل مصاحب دائماً ، للصلة القائمة على حساسية كل من الطرفين ، لحاجات الطرف الآخر ، وتقديره لها »(١) .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٩٥ ، ١٩٦ .

ثم يناقش — طويلا — قضية تحديد النسل عند هذه القاعدة — الرابعة، وهى لا تعنينا كثيراً هنا ، وإن كان هو ضدها — رغم ذلك — على وجه العموم ، لأنها تناقض — كما يبدو مما سبق — خطه الفكرى العام .

ثم ينتقل إلى القاعدة الخامسة .

« ٥ — والقاعدة الأساسية الخامسة، هى أنه لا بد من تجنب كل صورة من صور الشذوذ ، وعدم النضج ، فى التعبير الجنسى . وأبرز ألوان الشذوذ ، هو حب الفرد لفرد آخر من جنسه ، وأبرز صورة من صور عدم النضج الجنسى ، هو الاستمناء . وهاتان العادتان الجنسيتان ، مكروهتان ، لأنهما تناقضان الهدف الأساسى من الحياة الجنسية ، ألا وهو إقامة الأسرة ، وتنشئة الأطفال »(١) .

٦ — ثم يناقش فينكس — فى النقطة — أو القاعدة — السادسة — قضية تعدد الزوجات ، وهو ضدها بطبيعة الحال ، بسبب منظوره الأساسى للقضية ، حيث يرى أن « الأسر التى تتعدد فيها الزوجات أو الأزواج » ، تجد « الإخلاص غير المشروط — الذى هو المثل الأعلى فى الزوجية — أمراً عسيراً . وقد عمل القانون والعرف ، على تعزيز هـذا المثل الأعلى ، فى المجتمعات المتحضرة المتقدمة ، بتحريم التعدد . ومع أنه حرم بذلك الجمع بين أكثر من زوجة واحدة ، أو زوج واحد ، فى وقت واحد ، إلا أن الطلاق أوجد نوعاً من التسلسل فى التعدد . ومثل هـذا التسلسل ، قد يكون أشد إضراراً بالحياة العائلية — وبالأطفال خاصة — من تعدد الزوجات العادى »(٢) .

وفينكس ضد الطلاق بطبيعة الحال ، رغم انتشاره فى الغرب اليوم

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٩٨ .
(٢) المرجع السابق ، ص ١٩٩ .

بشكل واضح ، كما نرى من كلامه السابق ، ورغم ذلك،فهو يرى انه ربما «كان أفضل للزواج،أن ينتهى فى كثير من الأحيان ،عن أن يضطر الزوجان — بحكم القانون أو تحت وطأة العادة — إلى أن يعيشا معاً ، فى عداء غير شريف »(١) .

« ٧ — والقاعدة السابعة ، هى أنه إذا أريد للزيجات أن تدوم ، وأن تتمخض عن قيم إنسانية رحيمة، وجب ألا يختار كل قرين قرينته،على أساس الجاذبية الرومانتيكية،أو الإرواء الجنسى المباشر،بل على ضوء ما تحتمله العلاقة، من إمكانيات طويلة الأجل ، لإيجاد حياة مشتركة ، ذات قيمة كاملة » .

« ٨ — والقاعدة الثامنة والأخيرة ، هى أنه فى الديمقراطية القائمة على ما للأمور من وزن واعتبار ، لا حاجة بأى فرد إلى أن يشعر بأنه مضطر للزواج ، فبعض الناس غير ميسرين لإنشاء الأسرة » (٢) .

ثم يختم كلامه — خاصاً بهذه النقطة الأخيرة — بأن « الذين يظلون بلا زواج ، فى خدمة الحق ، تتاح لهم فرصة خاصة ، ليظهروا الاهتمام العطوف بالآخرين ، دون حاجة إلى القوة الدافعة الطبيعية ، التى تولدها العلاقات الزوجية أو الأبوية »(٣) .

فللمسلم أن يفخر بأسرته ، أن يرتقى الفكر البشرى ، فيصل إلى بعض ما يقول به الإسلام ، فى شأنها ، فى بلاد لم تتعود على شىء ، إلا على أن تهاجم الإسلام ، خاصة فى موضوع الأسرة هذا ، وعلى أن تلغى عقلها أحياناً ، فى سبيل هذا الهجوم .

* * *

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٩٩ ، ٢٠٠ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٢٠٠ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٢٠١ .

بل إن الإسلام — فى واقعه — يرتقى كثيراً ، كما رأينا فى فصول الكتاب المختلفة ، عن مستوى تفكير هؤلاء المفكرين ، رغم أن الفكر — دوماً — يتصف بالجموح فى الخيال .

ويرى العلامة أبو الأعلى المودودى ، تعليقاً على قوله سبحانه : « وأنكحوا الأيامى منكم ، والصالحين من عبادكم وإمائكم . . . » — يرى أنه قد « ذهب جمهور الفقهاء ، إلى أن الأمر بالتزويج فى هذه الآية ، للندب ، ومعناه أن المسلمين عامة ، ينبغى أن يهتم بعضهم ببعض ، حتى لا يبقى فى مجتمعهم رجل ولا امرأة ، بدون نكاح ، فينبغى لأهل الأسرة والجيران والأصدقاء جميعاً ، أن يعيروا هذا الأمر كل اهتمامهم ، وأما من لم يكن له قريب ولا صديق ، فعلى الدولة أن تساعده ، على الإحصان بالزواج » .

و « لا ينبغى أن يكون الفقر عائقاً فى وجوه الناس ، على الإقدام على الزواج » ، « ففى ذلك تنبيه لذوى البنت ، على أنه إذا خطبها إليهم شاب صالح ، حسن السيرة والأخلاق ، فلا يأبوا إجابته ، لمجرد فقره ، وتنبيه لذوى الولد ، على أن لا يرجئوا تزويجه ، لمجرد أنه لا يكسب كثيراً ، ووصية للشاب نفسه ، بأن لا يرجئ أمر زواجه ، انتظاراً للمزيد من الغنى واليسر ، بل عليه أن يقدم على الزواج ، متوكلا على الله ، ولو كان كسبه قليلا ، أو غير يقينى ، فإن الزواج نفسه كثيراً ما يكون السبب فى إصلاح أحوال الإنسان ، وتحسين ميزانيته ، فكثيراً ما يتغلب على نفقاته ، بمساعدة زوجته ، كما أنه بنفسه ، يرغب فى بذل الجهود لكسب معاشه ، بل لا تدرى نفس ما هو المقدر لها ولغيرها فى المستقبل ، فكثيراً ما تتبدل أحوال الغنى واليسر ، بأحوال البؤس والفقر ، وبالعكس ، فعلى الإنسان أن يتجنب الدقة فى الحساب فى هذا الباب »[1] .

---

(١) أبو الأعلى المودودى : تفسير سورة النور — رقم (٧) من (صوت الحق) — دار الجهاد ودار الاعتصام — ١٩٧٧ ، ص ١٨١ ، ١٨٢ .

ومن ثم يكون هذا الزواج فى الإسلام — وحده — « هو (الزواج الإنسانى)، فى وصفه الصحيح ،من وجهة المجتمع،ومن وجهة الأفراد »(١)، على حد تعبير المرحوم عباس العقاد ، ودون هذا الزواج الإسلامى بكثير ، أى زواج آخر، فى القديم وفى الحديث ،وفى الفكر الدينى السماوى ، وفى الفكر الوضعى ، وفى الحضارات القديمة والحضارة المعاصرة — على السواء .

« فليس الزواج علاقة حيوانية بين حيوانين ...

وليس الزواج علاقة روحية بين ملكين .. »(٢) .

وإنما (الزواج الإنسانى) ، كما يجب أن يكون ، « واجب اجتماعى من وجهة المجتمع ، وسكن نفسانى من وجهة الفرد ، وسبيل مودة ورحمة ، بين الرجال والنساء »(٣) .

ومن ثم « كانت شريعة القرآن مطابقة لحقيقة الزواج فى معانيه الإنسانية ، ومعانيه النوعية والاجتماعية . . »(٤) .

ولأن هذا الزواج — فى مفهوم الإسلام — زواج إنسانى ، فإنه يجمع بين طرفين ، مختلفين فى كل شىء . . . فى النوع ، وفى التنشئة ، وفى الإطار الاجتماعى الصغير ، وفى التصورات والآمال . . ولأنه — بالإضافة إلى هذا الجمع بين الطرفين — يحقق مصالح وأهدافا اجتماعية ، أكبر بكثير من قضاء حاجات الفردين ، العاجلة والآجلة ، تدخل فى نطاق ما يسمى (بأمن المجتمع) ، من خلال ما يؤدى إليه هذا الزواج من (ثمار بشرية)،

---

(١) عباس محمود العقاد : الفلسفة القرآنية (مرجع سابق) ، ص ٥٩ .
(٢) المرجع السابق ، ص ٥٢ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٥٩ .
(٤) المرجع السابق ، ص ٦١ .

تعد رأسمال المجتمع ، فى مستقبل أيامه . . كان منطقياً أن يكون قوامه الرحمة والحب والود ، ومراعاة المشاعر ، والتضحية والبذل ، قبل أى شىء آخر .

وليس كل الناس على نفس القدر من تمثل هذه الحقائق ، والاستعداد للاستجابة لها .

ومن ثم كان منطقياً — كذلك — أن يكون الزواج الناجح . . هو الزواج القادر على أن يقيم العلاقة بين الطرفين، على أساس (حرية الاختيار) منذ البداية ، لا على أساس (فرض) هذا الزواج ، على الزوج أو الزوجة، وعلى أساس (الإرادة الحرة) فيما بعد ، ليستمر هذا الزواج .

ولم تتحقق (حرية الاختيار) تلك ، فى نظام من النظم ، ولا فى دين من الأديان ، كما تحققت فى الإسلام ، كما لم تتحقق تلك (الإرادة الحرة) فى استمرار الزواج ، فى دين من الأديان ، كما تحققت فى الإسلام أيضاً .

فللمسلم أن يفخر بأسرته ، التى قامت — منذ بدايتها — واستمرت فى قيامها — على أساس الحرية ، ولم تقم — أو تستمر — بالفرض والجبر ، تحت أى شعار .

* * *

والترجمة الحية لهذه الحرية ، هو تعدد الزوجات ، والطلاق .

ومن ثم كان تعدد الزوجات ، وكان الطلاق ، كما رأيناهما من قبل فى فصول الكتاب ، هما مكمن القوة فى هذه الأسرة ، ولم يكونا نقطة ضعف فيها(١) ، بل كان التخلى عنهما ، هو نقطة الضعف فى غيرهما ، فقد حرمت

---

(١) ارجع الى ص ١٤٤ — ١٥٤ من الكتاب .

شرائع الغرب — المسيحية — تعدد الزوجات ، ليحل محله البغاء ، والاتصال الجنسى فى خارج نطاق الأسرة ، وبرغم وجود هذه الأسرة ، ثم حرمت الطلاق ، ليعيش الزوجان تحت سقف واحد ، وكل منهما معلق بآخر ، أو بأخرى ، فى خارج البيت . . ثم لنجد حالات الطلاق — فى النهاية — يزيد عددها على تلك الحالات الموجودة فى العالم الإسلامى ، عشرات المرات .

أى أن تعدد الزوجات قائم فى الغرب ، رغم تحريمه دينيا وقانونيا ، بل إنه يتزايد هناك ، بينما هو يتناقص فى البلاد الإسلامية ، برغم إباحته دينيا وقانونيا .

والطلاق قائم فى الغرب هو الآخر ، رغم تحريمه دينيا وقانونيا ، بل إنه يتزايد هناك ، بينما هو يتناقص فى البلاد الإسلامية ، برغم إباحته دينيا وقانونيا .

ذلك أن الغرب كان يعنيه منذ البداية ، صنع الشعارات ، وتصديرها لنا ، ليتلقفها الفارغون والتافهون من (المتأسلمين) ، دون تفكير أو روية ، ليخرب — بها — من خلالهم — حياتنا كلها ، بعد أن فشلت الحروب المسلحة فى تدميرنا وتدمير الإسلام بالتالى ، الذى سعوا لتدميره منذ الحروب الصليبية الحاقدة ، التى اشتعلت نارها الأولى ، فى القرن الحادى عشر الميلادى .

لقد اكتشف الصليبيون — من بعد لويس التاسع — بإشارة من لويس ذاته — « أنه لا سبيل إلى السيطرة على المسلمين ، عن طريق الحرب أو القوة ، لأن دينهم عامل حاسم ، هو عامل المواجهة والمقاومة ، والجهاد وبذل النفس والدم رخيصاً ، فى سبيل حماية العرض والأرض »(١) .

---

(١) أنور الجندى : الاسلام فى وجه التغريب (مخططات الاستشراق والتبشير) — دار الاعتصام — ١٩٧٧ ، ص ٧ .

« وإذا كانت الحروب الصليبية قد توقفت عام ٦١٠ هـ (١٢٩١ م)، فإن أوربا لم تتوقف عن الحرب ، فقد بدأت حركتها كرة أخرى بعد سقوط الأندلس » ، وصار « الهدف » هو : إيقاف توسع الإسلام ، ومحاصرته من ناحية ، واحتوائه فكريا » ، « تمهيدا للوثوب عليه » (١) ، وذلك من خلال الاستشراق والتبشير (٢) .

وهكذا ، لو تعمقنا حقيقة القضية ، لوجدنا الإسلام يوفر للرجل والمرأة معا ، ما ينشدانه من حرية ، من خلال (تعدد الزوجات) و (الطلاق) ، فى الوقت الذى نجد فيه الحضارة الحديثة ، تسلبهما معا هذه الحرية ، من خلال فرضها (الزوجة الواحدة) ، ومن خلال تحريمها (الطلاق) .

ذلك أن فرض الزوجة الواحدة ، أدى إلى تخلص الإنسان الغربى من الزوجة ومن غيرها ، وإلقائه (بعبء) الأسرة كله ، من فوق كتفيه ، خاصة وأن (أخلاقيات) المرأة الغربية ، قد دفعتها إلى أن (تقذف) بنفسها تحت (أقدام) الرجل ، ومن ثم لم تعد به حاجة إلى أن يتحمل (تبعة) الأسرة ، من أجل ما يريده من المرأة .

إن خوف الرجل من (الزوجة الواحدة) ، التى يحرم عليه (طلاقها) ، قد وفر له كل النساء ، ومن ثم حرمت المرأة من كل شىء ، باسم تحريرها وصيانتها ورعاية صالحها ، فإن « هذه العلاقة الجديدة بين الرجل والمرأة ، هى على حساب كرامة المرأة وعفافها ، وعلى حساب الأسرة والبيت والأجيال القادمة » (٣).

---

(١) المرجع السابق ، ص ٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٠ .

(٣) أنور الجندى : التفسير الاسلامى للفكر البشرى (الأيديولوجيات والفلسفات المعاصرة ، فى ضوء الاسلام) — دار الاعتصام — ١٩٧٨ ، ص ١٧٠ .

ولقد استطاع الصليبيون - بعد فشل المواجهة المسلحة مع الإسلام - أن يقتحموا - من خلال التمويه - معاقل إسلامية كثيرة ، منها معقل التربية ، ومعقل الإعلام ، ومعقل الفنون ، ومعقل الثقافة ، ومعقل الاقتصاد ، ومعقل السياسة ، فصبغوها كلها - فى العالم الإسلامى - بصبغتهم الصليبية الحاقدة .

ولكنهم - أمام الأسرة المسلمة - قد تحطمت كل أسلحتهم ، رغم أن وسائل هؤلاء الصليبيين تقتحم أبواب هذه الأسرة ، من كل زاوية ، من خلال مايدرس لأطفالها وشبابها فى المدارس ، وما يكتب لأفرادها فى الصحف ، ومايتقل لهم فى حجرات نومهم ذاتها ، فى الإذاعة والتليفزيون ، ورغم أن المرأة المسلمة قد (انجرفت) مع التيار ، تحت ضغط الحاجة ، أو بريق الشعارات ، إلى تيار الحياة العامة .

فلازالت الأسرة المسلمة ، هى الأسرة الوحيدة تقريباً ، مضافا إليها الأسرة اليابانية ، والأسرة الصينية ، التى لم تصبها سهام هؤلاء الصليبيين .

فللمسلم أن يفخر بأسرته ، التى كانت قلعة له ، ولأبنائه ، ولمستقبل أمته ، فى الوقت التى تهاوت فيه قلاع كثيرة ، أو كادت أن تتهاوى .

* * *

بل إن لهذا المسلم ، أن يفخر بهذه الأسرة ، لا لأنها لم تتهاو فقط ، بل لأنها راحت تقيم ماتهاوى حولها من قلاع .

كانت مناهج التعليم قد صبغت بالصبغة العلمانية الإلحادية الصليبية الحاقدة . . باسم الرغبة فى التقدم ، وتحطيم جدران التخلف ، فإذا بالتقدم لا يتحقق ، وإذا بالتخلف يزداد ، ومعه تنتشر الإباحية والفوضى والرشوة

والمحسوبية والغش والخداع ، وتتمزق العلائق بين أفراد الأسرة الواحدة ، وبين أبناء المجتمع الواحد . . . ويرتفع الصوت عاليا ، بضرورة العودة إلى الإسلام ، منهاجا أكبر للحياة . . ومحوراً لمناهج التعليم ، ويرتفع هذا الصوت ، من قلب هذه الأسرة . . المسلمة .

وكانت المرأة قد ألقت بحجابها ، ظانة أن ذلك دليل تحررها ، ومساواتها بالرجل ، فهانت المرأة على نفسها وعلى الرجل على السواء . . فارتفع ضمير الأسرة فى أعماقها ، ليعيد هذا الحجاب الذى رفع ، إلى حيث يجب أن يكون موجوداً .

وتتدافع إلى الحجاب فتيات صغيرات ، فى أسر لا تزال تعيش أيامنا العفنة السابقة ، فتجاهد الفتيات الصغيرات الأم والأب . . مصرة على بقاء الحجاب . . تماماً كما تتدافع إليه فتيات الأسر التى تماسكت ، أمام كل الضغوط ، ومنها ضغط السجن والاعتقال .

وتزيد (أسهم) الحجاب ، فإذا به أمارة جمال، وقد كان فى أيام العفونة السابقة ، أمارة رجعية وتخلف وجمود .

وكان ما يصدر فى الصحف (الرخيصة) المأجورة ، والكتب الهزيلة ، المتأثرة بكل ما يأتى من الغرب ، والداعية إلى الأخذ به ، هى الوحيدة فى الميدان ، بعد أن فرضت الحكومات الهزيلة والعميلة ، حظراً على كل جميل وأصيل ، بحجة رغبتها فى التقدم والانطلاق ، والحياة فى القرن العشرين بروح العصر ... فإذا بضمير هذه الأسرة يصرخ فى الجميع ، فيستجيبوا للصرخة ، وتحل محل الصحف الرخيصة ، صحف جادة ، تدعو إلى العودة إلى حقيقتنا ، وكتب تلفظ الغرب وما فيه ، وتنقب فى التراث عما نفعنا ، بعد أن أضر إضراراً بالغاً ، ما حسبناه — من قبل — هو النافع بوحده .

وحتى الكتاب الذين لم يعرفوا الفضيلة ولم يتعودوا عليها ، راحوا

(يتصنعونها) ، استرضاء لقرائهم ، الذين صرخ فيهم هذا الضمير ...

ولسنا نقول بأن الأسرة المسلمة — التى يحق للمسلم أن يفخر بها — هى التى راحت تقيم ما تهاوى حولها من قلاع ، على سبيل المبالغة فى شأن هذه الأسرة ، بوصف الكتاب يدور حولها ، وإنما نحن نقول به ، إقراراً للواقع ، فمن « المسلم به ، أن القانون فى أمة من الأمم ، إنما يستمد مواده من قيم المجتمع وأخلاقياته وعاداته وأعرافه » (١) ، و « منذ أن جرى تطبيق القانون الوضعى ، بدأ يتبين عجزه عن تحقيق الأمن فى المجتمع الإسلامى ، وعدم قدرته على استيعاب مطالب المسلمين ومشاكلهم ، وبدا قصوره واضحاً فى هذا الميدان ، وارتفعت الأصوات بالدعوة إلى تعديله ، وكان ذلك طبيعيا ، فى مجتمع عاش حياته فى نطاق الشريعة الإسلامية ، وقد تحقق للنفوذ الأجنبى بحجبها ، وتطبيق القانون الوضعى ، الغاية المرتجاة ، والهدف الذى قصد إليه ، وهو القضاء على مقومات مجتمعنا العربى الإسلامى ، وتغيير العرف الإسلامى والعربى ، القائم على القيم الأخلاقية ، المستمدة من أديان السماء .

ذلك أن هذه القوانين الغربية ، قد وضعت لمجتمع غير مجتمعنا ، ولعرف غير عرفنا ، وفى ظل ظروف تختلف تماماً ، فالمجتمع الإسلامى العربى يقدس العرض ، ويكرم العلاقة بين الرجل والمرأة ، ويضعها فى أعلى مكان ، ويرسم لها أرقى النظم ، وأقدرها على حماية الأسرة والمجتمع » . « ولما كانت هذه القيم والأعراف فى المجتمع الإسلامى راعية للفضيلة ، فقد عجزت هذه القوانين ، أن تستجيب لمجتمعنا » (٢) .

---

(١) أنور الجندى : من التبعية الى الأصالة ، فى مجال التعليم والقانون واللغة — دار الاعتصام — ١٩٧٧ ، ص ٤٤ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٣ ، ٤٤ .

ولولا أن هذه الأسرة ـ فى أصولها ـ مسلمة ، ما عرفت هذا (العيب) ، الذى جرفتها إليه الدعاية ، والسلطة الغاشمة ، فى البلاد الإسلامية ، ومن ثم عادت بسرعة إلى هذا الإسلام ، فجرت معها المجتمع كله إليه ، كما نرى — بوضوح — فى كل البلاد الإسلامية ، حيث صار (الحصان) الإسلامى ، هو (الحصان) الرابح فيها ... اليوم .

للمسلم أن يفخر بهذه الأسرة ، التى لم تكتف بأن توفر له الأمن والراحة والطمأنينة والسكن . . بل تعدت ذلك إلى دفعه إلى الفضيلة ، إن هو ابتعد عنها ، وإعادته إلى الحق ، إن هو انحرف عنه .

وما هكذا غير أسرته ، التى دفعت غيره دوما إلى القلق والأرق ... ثم دفعت هذا الغير — بعد ذلك — إلى الرذيلة — دفعاً .

* * *

ولم تكن الأسرة المسلمة ، التى يحق للمسلم أن يفخر بها ، لتقدر على أن تتماسك إلى هذا الحد ، وعلى هذا النحو ، لتتعدى حمايتها نفسها ضد عوامل التفكك ، إلى حماية المجتمع الإسلامى كله من عوامل الانحدار ، لولا أنها تقوم على تلبية رغبات أبنائها جميعاً ، الكبير منهم والصغير ، والرجل منهم والمرأة ، والفتى منهم والفتاة .

فالأسرة المسلمة لا تقوم على فرضية خاطئة ، ترى أن بنى آدم مجموعة من الحيوانات ، الذين لا يعنيهم إلا الجنس ، كما تقوم فى الحضارة الغربية ، أو أنهم مجموعة من الملائكة ، الذين لا يعنيهم هـــذا الجنس ، كما تقوم فى المسيحية ، أو أنهم مجموعة من الكائنات الفاقدة إحساسها ، بما حولها ومن حولها ، كما تقوم فى بعض الفلسفات المعاصرة ، التى ضاقت بالحضارة الغربية ، والمجتمعات الغربية .

وإنما تقوم هـذه الأسرة المسلمة ، على أساس أن أفرادها بشر ، تربط بينهم صلة رحم ، ولصلة الرحم دورها فى حياة الإنسان ، فرداً وجماعة — وتربط بين الرجل والمرأة فيها مصالح .. جسمية ونفسية ومعاشية واجتماعية ... كما تربط بين الكيان الأسرى — كخلية من خلايا المجتمع — وبقية خلايا هـذا المجتمع ، روابط ، كما تربط بينها وبين المجتمع القومى ، والمجتمع الإنسانى ، روابط أيضاً .

وفى هـذا الإطار العام العريض للأسرة ، والعلاقات المتشابكة لها ، بما حولها ومن حولها ، كان للكبير فى الأسرة احترامه ، وكان للصغير مكانته ، وكان للرجل وضعه وهيبته ، وكان للمرأة منزلتها ومكانتها .. التى أستطيع أن أدعى ، أنها خير المنازل على الإطلاق ، فى هـذه الأسرة ، ومن أجل ذلك كانت (الضوابط) المختلفة ، التى وضعت حولها ، لتظل فى منزلتها العليا تلك ، لا تهبط منها أبداً ، كما فعلت بها الحضارة الغربية ، « فليس ديناً للحريم ، ذلك الدين الإسلامى ، الذى (رفع) المرأة ، فجعلها مسئولة عن (أكرم مخلوق) من مخلوقات الله ، سواء كانت مسئولة عنه جنيناً فى بطنها ، أو طفلا تحت رعايتها وتوجيهها ، أو رجلا زوجاً لها ، يأتمنها على نفسه ، وعلى بيته ، وعلى أولاده ، وعلى مستقبل أمته كله — وإنما دين الحريم ، هو ما تدين به الحضارة الحديثة ، التى (هبطت) بالمرأة ، فلم تر فيها أكثر من (حيوان) ، انطلق من سجنه ، ليثير فى الرجال (أحط) ما فيهم ، ثم يعود فيطفىء ما أشعله ، من ثورة الشهوة هذه .

وبقدر قدرة المرأة على إثارة الشهوة وإطفائها ، تكون قيمتها فى الحضارة الحديثة ، وحين تفقد المرأة هـذه القدرة وتلك ، تفقد مقومات حياتها »(١) .

---

(١) دكتور عبد الغنى عبود : العقيـدة الاسـلامية والأيديولوجيات المعاصرة (مرجع سابق) ، ص ١٣٠ .

ومما تجدر الإشارة إليه ، أن (الأمر) بالتراحم والتواد والتعاطف ، بين أفراد الأسرة الواحدة فى الإسلام ، على هذا النحو ، نراه يرد سريعاً عاماً ، فى المواقف التى تدفع إليها الغريزة الإنسانية ، بينما هو يرد مفصلا ، مؤكداً فى أماكن كثيرة ، وبصور مختلفة ، فى المواقف الأخرى ، التى يدفع إليها الخلق الكريم ، والنخوة .

فرحمة الأب — أو الأم — بالابن ، أمر غريزى ، لا فى عالم الإنسان وحده ، ولكن فى عالم الحيوان أيضاً ، ومن ثم نجد القرآن الكريم ، لا يدعو إلى هذه الرحمة ، لأنها أمر طبيعى ، لا يحتاج إلى تنبيه ، بل على العكس ، يدعو إلى (كبح جماح) النفس فيها ، حتى تؤدى دورها فى بناء الإنسان الصغير ، ولا تتعدى هذه الدور ، إلى (إتلاف) هذا الإنسان :

— « يأيها الذين آمنوا ، لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ، ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون »(١) .

— « يأيها الذين آمنوا ، إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم ، وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا ، فإن الله غفور رحيم . إنما أموالكم وأولادكم فتنة ، والله عنده أجر عظيم »(٢) .

أما رحمة الابن بالأب — أو الأم — فهى الأمر الذى يحتاج — بالفعل — إلى التنبيه ، لأسباب كثيرة ، منها أن الابن قد تعود على أن يرحمه أبوه ، طوال سنوات طفولته وصباه ، ومن ثم تكون رحمة الابن بأبيه ، هى الشىء الذى لم يتعوده ، ولم يفهمه ، ومن ثم وجب أن يروض نفسه عليه ، بعد تغير الأيام ، حيث صار القوى ضعيفاً ، والضعيف قوياً — ومنها أنها

---

(١) قرآن كريم : المنافقون — ٦٣ : ٩ .
(٢) قرآن كريم : التغابن — ٦٤ : ١٤ ، ١٥ .

(خط أخلاقى) عام فى المجتمع الإسلامى : أن تكون أعباء الإنسان ، مساوية لقدراته وإمكانياته ، ومن ثم كانت الأعباء دوماً فوق الكبير ، وكان (اتجاه) العناية دوماً ، من الكبير إلى الصغير ، ومن القوى إلى الضعيف ، ومن الغنى إلى الفقير — ومنها — نتيجة لذلك — أن المجتمع وحدة واحدة، وأن هذه الوحدة الواحدة، ستكون مهددة بالتمزق ، مالم يأخذ القوى بيد الضعيف ، ومالم يحس الضعيف — من أعماقه — بأن (إنسانيته) مرعية ، برغم ضعفه .

وهنا ، يمكن أن يتحول الضعف قوة بناءة خلاقة ، قادرة على المساهمة فى بناء المجتمع ، مع الأقوياء ، بدلا من إلقاء العبء على الأقوياء وحدهم ، على أحسن الفروض، إن لم يتحول هؤلاء الضعفاء — بالفعل — إلى (طابور خامس) ، ينهش جسد الأمة ، ويبدد مايبذله الأقوياء والقادرون من جهد ، فى بنائها .

ولذلك نجد القرآن الكريم ، يأمر المؤمنين دوماً بحق آبائهم عليهم ، رابطاً هذا الحق ، بحق الله عليهم :

— « قل : تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم : ألا تشركوا به شيئاً ، وبالوالدين إحسانا .. »(١) .

— « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ، وبالوالدين إحساناً .. »(٢) .

والآيات القرآنية هنا ، أكثر من ان تحصر ، وهى ترد فى أماكن كثيرة ومتفرقة ، من القرآن الكريم ، ثم تأتى السنة النبوية المطهرة ، والحديث النبوى الشريف ، فيؤكدانها أيضاً .

---

(١) قرآن كريم : الانعام — ٦ : ١٥١ .

(٢) قرآن كريم : الاسراء — ١٧ : ٢٣ .

ويكفي هنا، أن نشير إلى أن بر الوالدين واجب مقدس، حتى ولو كان هذان الأبوان مشركين :

— «وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه : يابنى لا تشرك بالله ، إن الشرك لظلم عظيم . ووصينا الإنسان بوالديه ، حملته أمه وهنا على وهن ، وفصاله فى عامين ، أن اشكر لى ولوالديك ، إلى المصير . وإن جاهداك على أن تشرك بى ماليس لك به علم ، فلا تطعهما ، وصاحبهما فى الدنيا معروفا ، واتبع سبيل من أناب إلى ، ثم إلى مرجعكم ، فأنبئكم بما كنتم تعملون »(١) .

أما فى الحضارة الغربية ، «فإن الوالد الأوروبى، يفقد فى كل يوم، شيئا من سلطته على ابنه ، وكذا الابن ، يفقد من احترامه لأبيه . ولقد أصبحت صلاتهما المتبادلة مقلوبة ، أو — من أجل كل هدف عملى — مقضيا عليها » .

« وإلى جنب هذا، يسير الانحلال التدريجى، لما يسمونه (الآداب الجنسية القديمة) . إن العفاف والإحصان ، يصبحان مع الأيام ، خبراً ماضيا فى الغرب الحديث ، لأنهما مفروضان من طريق الخلق فحسب ، وليس للاعتبارات الخلقية أثر مباشر محسوس ، فى رفاهية الشعب المادية »(٢) .

فللمسلم أن يفخر بأسرته ، التى تفتح صدرها لكل عضو من أعضائها ، بغض النظر عن الدور الذى يقوم به فى دعمها ، ومن ثم تخلق فى نفس كل فرد من أفرادها (إنساناً صحيحاً) ، يستطيع أن ينطلق إلى المجتمع الخارجى ،

---

(١) قرآن كريم : لقمان — ٣١ : ١٣ — ١٥ .

(٢) محمد أسد : الاسلام على مفترق الطرق — من سلسلة (صوت الحق) — تصدرها الجماعة الاسلامية بجامعة القاهرة — دار الجهاد ودار الاعتصام ، ص ٤٨ ، ٤٩ .

فيكون (دعما) له ، بدلا من أن يكون (عبئا) عليه ، ويكون — بمختلف تصرفاته — مبولا من معاول هدمه .

* * *

وقد كان موضوع هذا الكتاب الثامن من كتب السلسلة ، هو (الأسرة المسلمة ، والأسرة المعاصرة) ، ومن ثم دار حول (معنى الأسرة) ، و (الزواج) ، و (الخطبة) ، و (المهر) ، و (الأهلية) ، و (المودة بين الزوجين) ، و (وظيفة الأسرة) ، مقارنا — فى ذلك كله — بين الإسلام ، وبين غيره من النظم والفلسفات ، حين يقتضى الأمر المقارنة — كما تعرض لقضايا تتعلق بالأسرة ، (كحقوق المرأة) ، و (عمل المرأة) ، و (تعدد الزوجات) ، (والطلاق) .

ولم يتعرض الكتاب لقضية (السفور والحجاب) ، أو قضية (الإرث) ، أو لقضية (زوجات النبى) ، أوغيرها من القضايا ، التى رأيت أنها قضايا (هامشية) ، بالنسبة للقضايا الأساسية ، التى تعرضت لها ، متصلة بموضوع الكتاب ، دائرة حول عنوانه .

ورغم أن مثل هذه القضايا الهامشية ،(جوهرية) فى القضية ، من بعض الجوانب ، إلا أنها تظل (هامشية) فى قضيتنا نحن هنا ، وهى قضية (الأسرة المسلمة ، والأسرة المعاصرة) ، ومدى قدرة هذه الأسرة وتلك ، على القيام بوظائفها الحيوية . ذلك أن مثل هذه القضايا — فى نظرى — قضايا تهم (المجتمع الكبير) ، أكثر مما تهم مجتمعنا الصغير ، الذى نعالجه فى هذا الكتاب — مجتمع الأسرة ، ومن ثم يكون مكانها الطبيعى ، هو الكتاب القادم من السلسلة ، عن (الملامح العامة للمجتمع الإسلامى) ، ومن أجل ذلك كان تأجيلها إلى هناك .

ورغم ذلك ، فإن المتأمل لهذه الموضوعات أو القضايا ، لا يسعه إلا أن يدرك، أن النظرة الصليبية الحاقدة إليها، كما نراها من خلال كتابات المستشرقين، ودعاوى المبشرين ، وادعاءات (المتأسلمين) ، القاصرين عقلياً وعلمياً، إلا في أن يكونوا مجرد (ذيول) لهؤلاء ، لأسباب كثيرة ، ليس هنا مجال ذكرها . . هذه النظرة الصليبية الحاقدة ، إلى هذه القضايا ، هى النظرة الصليبية الحاقدة ، إلى القضايا ، التى عالجناها فى هذا الكتاب .

فكل ما هو إسلامى ، شر فى نظر هؤلاء .

وليس فى الإسلام — فى نظر هؤلاء — خير على الإطلاق .

وإذا وجدت عناصر طيبة ، فيه ، فهى طيبة لأنها (مستوردة) من غيره ، سواء من اليهودية والمسيحية ، أو من الإغريق والرومان والفرس والفراعنة والآشوريين والبابليين .

وحتى هذه العناصر الطيبة ، التى (استعارها) من غيره ، أو (استوردها) من هذا الغير ، استحالت عنده (شراً) محضا ، لأنه قد صبغها بشره .

وهو منطق الحقد ، ومنطق الجهل ، ومنطق عدم القدرة على رؤية الحق، أو السير فى طريقه .

وقد عالج القرآن الكريم هذا (المنطق) ، كأحسن ما يكون العلاج ، حينما بين بوضوح ، أن الضالين لا يعجبهم إلا ضلالهم، وأن هؤلاء الضالين، لا يرضون بالحق سبيلا يسلكونه :

— «ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى، حتى تتبع ملتهم، قل: إن هدى الله هو الهدى، ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم ، مالك من الله

من ولى ولا نصير »(١) .

ومن ثم كان أمر القرآن الكريم للمؤمنين به ، ألا يجادلوا هؤلاء الضالين ، إلا بالتى هى أحسن ، لالشىء ، إلا للطبيعة الخاصة لهؤلاء الضالين ، التى تحول بينهم وبين أى حق ، وحتى لا تتحول الدعوة إلى الله ، إلى مجرد (سفسطة) فارغة :

— « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن ، إلا الذين ظلموا منهم ، وقولوا : آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم ، وإلهنا وإلهكم واحد ، ونحن له مسلمون »(٢) .

يضاف إلى ذلك ، أن وظيفة المؤمنين هى مجرد (التبليغ) ، أما الهداية ، فهى أمر موكول إلى الله سبحانه :

— « إنك لا تهدى من أحببت ، ولكن الله يهدى من يشاء ، وهو أعلم بالمهتدين »(٣) .

وفى ضوء هذه الحقائق كلها ، يجب أن ننظر إلى معالجة هؤلاء الصليبيين الضالين الحاقدين ، إلى هذه القضايا (الهامشية) ، وهى معالجة ، لا تختلف — فى قليل أو كثير — عن معالجتهم للقضايا (الجوهرية) ، التى تعرضنا لها فى فصول هذا الكتاب .

فنظرة المسيحية إلى المرأة ، نظرة غاية فى الإحطاط بالمرأة ، لأنها تراها شرا محضا ، كما رأينا فى الفصل الثالث من الكتاب (٤) ، ومن ثم كان من

(١) قرآن كريم : البقرة — ٢ : ١٢٠ .
(٢) قرآن كريم : العنكبوت — ٢٩ : ٤٦ .
(٣) قرآن كريم : القصص — ٢٨ : ٥٦ .
(٤) ارجع الى ص ٩١ — ٩٥ من الكتاب .

الإنصاف للرجل أن يبتعد عنها، وكان من الإنصاف لها أن تترهبن، وتعتزل مجتمع الرجال وأن تصون جسدها وتحفظه، على النحو الذى نراه فى صور (الراهبات) فى مجتمعاتنا، وفى المجتمعات الغربية ..

والراهبات فى مجتمعاتنا وفى المجتمعات الغربية — المسيحية الصليبية الحاقدة — موضع احترام الجميع، هنا وهناك.

و (التصون) و (العفة) و (الطهر) ، هى سر احترامهن هنا وهناك .

فلماذا يكون (الحجاب) ، أمرا محبوبا يدعو إلى الاحترام والتوقير عندهم ، بينما يكون الحجاب نفسه ، أمراً يدعو إلى الازدراء عندنا ؟

إنه يدعو إلى الاحترام عندهم ، لأنه من عندهم ، وهو يدعو إلى الازدراء والحرب عندنا ، لأنه من عندنا — من الإسلام .

ولنفرض أن مسلمة محجبة ، قد نجحت حملات التبشير والتنصير ، التى تعيش عصرها الذهبى فى بلاد الإسلام اليوم ، بفعل عوامل كثيرة . لنفرض أن هذه الحملات قد نجحت فى تنصير فتاة مسلمة محجبة ، وآثرت هذه الفتاة أن تترهبن ، فماذا تكون النظرة إليها هناك ؟

ستكون نظرة احترام ولا شك ، شأنها شأن النظرة إلى كل الراهبات .

وكأن القضية ليست قضية حجاب وسفور ، وإنما هى — كغيرها من القضايا — قضية إسلام ولا إسلام .

وما يقال عن (الحجاب والسفور) ، يمكن أن يقال عن زوجات الرسول .

فما من نبى من الأنبياء ، إلا وكانت له زوجات كثيرات ، لا يستثنى من هؤلاء الأنبياء والرسل ، إلا القليلون منهم . وإلا عيسى بن مريم ، الذى لم

يتزوج على الإطلاق ، وإن كان اليهود — فى خشهم — يفسرون عدم زواجه، بأنه لم يكن فى حاجة إلى زواج، لأسباب تتصل (برجولته) أحيانا ، ولأسباب تتصل — أحيانا أخرى — بكثرة النساء حوله ، كما يفسره النصارى ، بأنه إله ، وليس بشرا عاديا .

ولا تعنينا القضية هنا ، على أية حال ، حتى نقول فيها رأينا (١) .

وقد بلغ عدد هؤلاء الزوجات بالنسبة لسيدنا داود ، تسعا وتسعين زوجة، وإليهن أشار القرآن الكريم ، فيما يعرف (بقصة النعاج) ، التى وردت فى سورة (ص) ، على هذا النحو :

— « وهل أتاك نبأ الخصم ، إذ تسوروا المحراب ؟ إذ دخلوا على داود، ففزع منهم ،قالوا : لا تخف، خصمان بغى بعضنا على بعض ، فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط ، واهدنا إلى سواء الصراط . إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ، ولى نعجة واحدة ، فقال : أكفلنيها ، وعزنى فى الخطاب . قال : لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ، وإن كثيراً من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وقليل ما هم ، وظن داود أنما فتناه ، فاستغفر ربه ، وخر راكعا وأناب » (٢) .

ويعلق الشهيد سيد قطب ، على (قصة النعاج) هذه ، بقوله ، إن «قصة داود فى القرآن ، إشارة إلى فتنته بامرأة — مع كثرة نسائه — فأرسل إليه ملكين يتخاصمان عنده » . « وعرف داود أنها الفتنة ، (فاستغفر ربه ،

---

(١) لنا عن المسيح عليه السلام ، كتاب من كتب هذه السلسلة ، تمت — بالفعل — كتابته ، الا أن نشره مؤجل الى أن يجيء دوره فى هذه السلسلة ، وربما كان كتابها الثانى عشر ، أو الثالث عشر ، باذن الله . ويمكن أن تثار مثل هذه القضايا — تفصيليا — فيه .

(٢) قرآن كريم : ص — ٣٨ : ٢١ — ٢٤ .

وخر راكعا وأناب) ، (١) .

وقد رأينا عند الحديث عن تعدد الزوجات ، فى الفصل الخامس ، أن (تعدد) الزوجات كان هو القاعدة المتبعة قبل الإسلام، وأن الإسلام هو الذى (حدد) هذا التعدد (٢) .

وقد حدد عدد الزوجات بالنسبة للمسلمين بأربع ، واستثنى من ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذى كان متزوجا بتسع ، قبل تحديد العدد ، فإن « تشريع تعدد الزوجات، لم ينزل إلا فى أواخر السنة الثامنة للهجرة ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم قد بنى بأزواجه جميعاً ، إذ كانت آخر زوجاته، ميمونة بنت الحارث الهلالية ، وهى زوج عمه حمزة بن عبد المطلب ، شهيد غزوة أحد ، وخالة عبد الله بن عباس ، وقد عقد عليها النبى صلى الله عليه وسلم ، فى عمرة القضاء بمكة ، وكان هذا فى السنة السابعة للهجرة ، ولم يدخل بها إلا بعد خروجه من مكة » .

« ولم يمتز النبى على غيره فى هذا التشريع ، إلا بأنه أبيح له أن يبقى فى عصمته ، زوجاته جميعاً ، فلم يفارق منهن الزائدات عن الأربع ، أما غيره ، فأجبر بعد هذا التشريع ، على مفارقة الزائد عن هذا العدد ، وكان هذا فى مصلحة زوجات النبى صلى الله عليه وسلم ، لأنهن لم يكن يرضين بشرف التزويج به بديلا ، فلم يكن شأنه فى هذا ، كشأن غيره ، ولم تكن المصلحة فيه عائدة عليه ، بل كانت عائدة على زوجاته ، هذا إلى أنهن حرمن على غيره من الرجال ، ولم يبح لأحد أن يتزوجهن بعده ، حتى يبقى لهن اسم أمهات المؤمنين، إلى وفاتهن»(٣) .

---

(١) سيد قطب : التصوير الفنى فى القرآن — دار الشروق ، ص ١٧٢ — من الهامش .

(٢) ارجع الى ص ١٤٤ — ١٤٦ من الكتاب .

(٣) عبد المتعال الصعيدى (مرجع سابق) ، ص ٥٠ ، ٥١ .

ولو أننا تتبعنا (قصة) كل زيجة من هـــذه الزيجات ، لوجدنا فيها (مبدأ) و (مثلا أعلى) ، ولم نجد فيها (للجنس) أثرا . ولعل أوضح النماذج لهذا (المبدأ) ، فى هـذه الزيجات ، زواجه (صلى الله عليه وسلم) ، بزينب بنت جحش ، التى كثر فيهـا اللغط ، مع أنها قد تمت كلها لحكمة ، هى أن « الله كان يريد إبطال التبنى فى زيد وغيره ، ممن كان العرب يتبنونهم ، فيرثونهم ، كما يرثهم أبناء الصلب » .

« ولمـا كانت هذه العادة، من العادات المستحكمة فى العرب ، أراد النبى صلى الله عليه وسلم ، أن يكون هو البادئ بإبطالها ، فاختار زينب لزيد فى الظاهر ، وهو يختار لنفسه فى الباطن ، لأنه كان يعلم أنها ستصير زوجا له ، من يوم خطبتها لزيد ، ولهذا زوجها له ، وهى غير راغبة فيه » (١).

ويضيف المرحوم عباس العقاد ، إلى هـذه الحقيقة — حقيقة (المبدأ) — لا (الجنس) — فى زواج الرسول — أننا « لا نرى ضيراً على الرجل العظيم أن يحب المرأة ، ويشعر بمتعتها . هذا سواء الفطرة، لا عيب فيه ، وما من فطرة هى أعمق فى طبائع الأحياء عامة ، من فطرة الجنسين ، والتقاء الذكر والأنثى ، فهى الغريزة التى تلهم الحى ، فى كل طبقة من طبقات الحياة ، مالا تلهمه غريزة أخرى » .

« وإنما المعابة أن يطغى هذا الحب، حتى يخرج عن سوائه ، وحتى يشغل المرء عن غرضه ، وحتى يكلفه شططا فى طلابه . فهو عند ذلك مسخ للفطرة المستقيمة ، يعاب ، كما يعاب الجور فى جميع الطباع .

فمن الذى يعلم ما صنع النبى فى حياته ، ثم يقع فى روعه، أن المرأة شغلته عن عمل كبير ، أو عن عمل صغير ؟

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٢٢ .

من من بناة التاريخ، قد بنى فى حياته ،وبعد مماته، تاريخا أعظم من تاريخ الدعوة المحمدية ، والدولة الإسلامية ؟ » .

« وأعجب شىء أن يقال عن النبى ، إنه استسلم للذات الحس ، وقد أوشك أن يطلق نساءه ، أو يخيرهن فى الطلاق ، لأنهن طلبن إليه المزيد من النفقة ، وهو لا يستطيعها » (١) .

* * *

للمسلم أن يفخر بأسرته ، التى لم تفلح فى تحطيمها ، السهام التى اتجهت إليها من كل صوب ، فلما فشلت فى تحقيق أهدافها . فشل الحروب — الصليبية — المسلحة ، فى تحقيق أهدافها ، اتجهت السهام إلى القرآن الكريم ، وإلى السيرة النبوية ، وسيرة الخلفاء الراشدين ، ولكن معظم السهام كانت قد اتجهت إلى الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، تشويها لحياته ، لتشوه — من خلال تشويهها — الإسلام كله .

وكانت هذه المسألة من المسائل ، التى وجد فيها الحاقدون فرصة ، يجولون فيها - بحقدهم ، وبمعرفتهم بجهل المسلمين بدينهم - كل مجال

ولكن هـذه السهام ، قد عادت هى الأخرى ، فاتجهت إلى صدور مصوبيها .

إنه (إفك) حديث ، يفضح أصحابه ، كما فضح (الإفك) القديم مبتدعيه :

— « إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم ، لاتحسبوه شرا لكم، بل هو

---

(١) عباس محمود العقـاد : عبقرية محمـد (مرجع سابق) ، ص ١١٨ — ١١٩ .

خير لكم ، لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم ، والذى تولى كبره منهم ، له عذاب عظيم . لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً ، وقالوا : هذا إفك مبين »(١) .

ولقد دفع هذا (الإفك) الحديث بأبناء (الأسرة المحمدية) ، إلى دراسة القضية من جديد ، ليخرجوا منها - كما خرج سابقوهم - أكثر إيمانا (بالأسرة) ، وبربها عليه الصلاة والسلام . وصدق الله العظيم ، القائل فى كتابه الكريم :

— « .. ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين »(٢) .

---

(١) قرآن كريم : النور — ٢٤ : ١١ ، ١٢ .
(٢) قرآن كريم : الأنفال — ٨ : ٣٠ .

مراجع الكتاب

اولا : المراجع العربيـــة :

١ ـ أبو الأعلى المودودى : الحجاب ـ دار التراث العربى (بدون تاريخ) .

٢ ـ أبو الأعلى المودودى : تفسير سورة النــور ـ رقم (٧) من (صــوت الحق) ـ دار الجهاد ودار الاعتصام ـ ١٩٧٧ .

٣ ـ أبو الأعلى المودودى : دور الطلبــة ، فى بنـــاء مستقبل العـــالم الاسلامى ـ دار الأنصار بالقاهرة ـ ١٩٧٧ .

٤ ـ أبو الأعلى المودودى : مبادىء الاســلام ـ دار الأنصار بالقاهرة ـ ١٩٧٧ .

٥ ـ أبو الحسن الندوى : ماذا خسر العــالم بانحطاط المسلمين ـ الطبعة العــاشرة ـ مطابع على بن على ـ الدوحــة ـ قطــر ـ ١٣٩٤ هـ ـ ١٩٧٤ م .

٦ ـ أحمد أمين : ظهر الاســلام ـ الجزء الأول ـ الطبعة الثانية ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ ١٩٤٦ .

٧ ـ الدكتور أحمد زكى صالح : علم النفس التربوى ـ الطبعة الثامنة ـ مكتبة النهضة المصرية ـ ١٩٦٥ .

٨ ـ الدكتور أحمد سويلم العمرى : بحوث فى المجتمع العربى (دراسات سياسية) ـ مكتبة الأنجلو المصرية ـ ١٩٦٠ .

٩ ـ الدكتور أحمد محمد ابراهيم : الاقتصاد السياسى ـ الجزء الأول ـ الطبعة الثالثة ـ المطبعة الأميرية ببولاق ـ ١٩٣٥ .

١٠ ـ آرثر تيد مان : اليابان الحديثة ـ ترجمة وديع سعيد ـ مراجعــة على رفاعة الأنصارى ـ رقم (٢٢٢) من (الألف كتــاب) ـ مكتبــة الأنجلو المصرية (بدون تاريخ) .

١١ ـ الدوميلى : العلم عند العرب ، وأثره فى تطــور العلم العالمى ـ نقله الى العربية : الدكتور عبد الحليم النجار ، والدكتور محمد يوسف

موسى ـ قام بمراجعته على الأصل الفرنسى : الدكتور حسين فوزى ـ جامعة الدول العربية ـ الادارة الثقافية ـ الطبعة الأولى ـ دار القلم ـ ١٩٦٢ .

١٢ ـ العلامة السيد حسين يوسف العاملى : المتعة فى الاسلام ، دراسات حول مشروعية المتعة وبقائها ـ الطبعة الثالثة ـ ١٣٩٦ هـ ـ ١٩٧٦ م (بدون ناشر) .

١٣ ـ العنصرية الصهيونية ، فى الفكر والتطبيق ـ جامعة الدول العربية ـ الأمانة العامة ـ الادارة العامة لشئون فلسطين ـ يوليو (تموز) ١٩٧٦ .

١٤ ـ العهد الجديد .

١٥ ـ العهد القديم .

١٦ ـ الكسيس كاريل : الانسان ، ذلك المجهول ـ تعريب شفيق أسعد فريد ـ مكتبة المعارف ـ بيروت ـ ١٩٧٤ .

١٧ ـ المعجم الوسيط ـ قام بإخراجه : ابراهيم مصطفى وآخرون ـ وأشرف على طبعه : عبد السلام هارون ـ الجزء الأول ـ مجمع اللغة العربية ـ ١٣٨٠ هـ ـ ١٩٦٠ م .

١٨ ـ الياس أنطون الياس ، وادوار ا. الياس : القاموس العصرى ، عربى / انكليزى ـ الطبعة التاسعة ـ المطبعة العصرية ـ ١٩٧٠ .

١٩ ـ انجيل برنابا ـ ترجمه من الانكليزية : الدكتور خليل سعادة ـ طبع على نفقة مطبعة المنار لصاحبها : السيد محمد رشيد رضا ـ مكتبة ومطبعة محمد على صبيح وأولاده ـ القاهرة ـ ١٩٥٨ .

٢٠ ـ أنور الجندى : الاسلام فى وجه التغريب (مخططات الاستشراق والتبشير) ـ دار الاعتصام ـ ١٩٧٧ .

٢١ ـ أنور الجندى : التربية وبناء الأجيال ، فى ضوء الاسلام ـ رقم (١٦) من (الموسوعة الاسلامية العربية) ـ الطبعة الأولى ـ دار الكتاب اللبنانى ـ بيروت ـ ١٩٧٥ .

٢٢ — أنور الجندى : التفسير الاسـلامى للفكر البشرى (الأيديولوجيات والفلسفات المعاصرة ، فى ضـوء الاسلام) — دار الاعتصـام — ١٩٧٨ .

٢٣ — أنور الجندى : من التبعية الى الأصالة ، فى مجال التعليم والقانون واللغـة — دار الاعتصام — ١٩٧٧ .

٢٤ — توفيق على وهبـة : الاسلام شريعة الحياة — الهيئة المصرية العـامة للكتاب — ١٩٧٥ .

٢٥ — ج. سنجلتون : المدرسة اليابانية — ترجمـة الدكتور محمد قدرى لطفى وآخرين — عالم الكتب — ١٩٧٢ .

٢٦ — جروف ساموبل داو : كتـاب المجتمع ومشاكله (مقدمة لمبـادىء علم الاجتماع) — ترجمة ابراهيم رمزى — المطبعة الأميرية ببولاق — ١٩٣٨ .

٢٧ — جمهورية أفلاطون — ترجمـة ودراسة الدكتور فؤاد زكريا — راجعها على الأصل اليونانى : الدكتور محمد سليم سالم — الهيئـة المصرية العـامة للكتاب — ١٩٧٤ .

٢٨ — دكتور حامد عبد السـلام زهران : علم نفس النمو (الطفـولة والمراهقة) — الطبعة الثانية — عالم الكتب — ١٩٧٢ .

٢٩ — فضيلة الأستاذ الشيخ ، حسنين محمد مخلوف : القرآن الكريم ، ومعه صفوة البيان ، لمعـانى القرآن — الجزء الأول — الطبعة الأولى — مطابع دار الكتاب العربى بمصر — ١٣٧٥ هـ — ١٩٥٦ م .

٣٠ — دانيل كاتز : « أثر الجماعة فى الاتجاهات والسلوك الاجتماعى » — ترجمـة الدكتـور مختار حمـزة — الفصل الثامن من : **ميادين علم النفس ، النظـرية والتطبيقية** — باشراف : ج. ب. جيلفـورد — والترجمة باشراف الدكتور يوسف مراد — المجلد الأول — الميـادين النظـرية — دار المعارف بمصر — ١٩٥٥ .

٣١ — ديل كارنيجى : كيف تكسب الأصدقاء ، وتؤثر فى الناس ؟ — تعريب عبد المنعم محمد الزيادى — الطبعة الثانية — مؤسسة الخانجى بمصر (بدون تاريخ) .

٣٢ ــ رالف لنتــون : دراســة الانسان ــ ترجمــة عبد الملك الناشف ــ منشورات المكتبة العصرية ــ صيدا ــ بيروت ــ ١٩٦٤ .

٣٣ ــ دكتــور زكى نجيب محمــود : ثقافتنا فى مواجهة العصر ــ الطبعــة الأولى ــ دار الشروق ــ يناير ١٩٧٦ .

٣٤ ــ سـعد جمعــة : الله أو الدمار ــ الطبعة الثالثة ــ المختار الاسلامى ، للطباعة والنشر والتوزيع ــ ١٣٩٦ هـ ــ ١٩٧٦ م .

٣٥ ــ دكتور سعد مرسى أحمد : تطور الفكر التربوى ــ عالم الكتب ــ ١٩٧٠ .

٣٦ ــ دكتور ســعد مرسى أحمــد ، ودكتور سعيد اسماعيــل على : تاريخ التربية والتعليم ــ عالم الكتب ــ ١٩٧٢ .

٣٧ ــ دكتور ســعيد عبد الفتــاح عاشور : المدنية الاسلامية ، وأثرها فى الحضارة الأوربية ــ الطبعة الأولى ــ دارالنهضة العربية ــ ١٩٦٣ .

٣٨ ــ سيد قطب : التصـــوير الفنى فى القــرآن ــ دار الشروق (بدون تاريخ) .

٣٩ ــ سيد قطب : الســلام العـــالمى والاسلام ــ الطبعــة السادسة ــ دار الشروق ــ ١٣٩٤ هـ ــ ١٩٧٤ م .

٤٠ ــ سيد قطب : فى ظلال القــرآن ــ المجلد الأول (الأجزاء ١ ــ ٤) ــ الطبعة الشرعية الرابعة ــ دار الشروق ــ ١٣٩٧ هـ ــ ١٩٧٧ م .

٤١ ــ سيد قطب : فى ظلال القــرآن ــ المجلد الثانى (الأجزاء ٥ ــ ٧) ــ الطبعة الشرعية الرابعة ــ دار الشروق ــ ١٣٩٧ هـ ــ ١٩٧٧ م .

٤٢ ــ سيد قطب : فى ظلال القرآن ــ المجلد الرابع (الأجزاء ١٢ ــ ١٨) ــ الطبعة الشرعية الرابعة ــ دار الشروق ــ ١٣٩٧ هـ ــ ١٩٧٧ م .

٤٣ ــ سيد قطب : فى ظلال القــرآن ــ المجلد الخامس (الأجزاء ١٩ ــ ٢٥) ــ الطبعــة الشرعية الرابعــة ــ دار الشروق ــ ١٣٩٧ هـ ــ ١٩٧٧ م .

٤٤ ــ عباس محمــود العقاد : التفكير فريضة اسلامية ــ الطبعة الأولى ــ المؤتمر الاسلامى ــ دار القلم (بدون تاريخ) .

٤٥ — عباس محمــود العقاد : الثقافة العربيــة أسبق من ثقافة اليــونان والعبريين — رقم (٣٠٩) من (المكتبة الثقافيــة) — الهيئة المصرية العامة للكتاب — ١٩٧٤ .

٤٦ — عباس محمــود العقاد : الفلسفة القرآنية — دار الاسلام بالقاهرة — ١٩٧٣ .

٤٧ — عباس محمود العقاد : المرأة فى القــرآن — دار الاسلام بالقاهرة — ١٩٧٣ .

٤٨ — عباس محمــود العقاد : عبقــرية محمــد — دار الكتب الحديثة — القاهرة — ١٣٨٥ هـ — ١٩٦٦ م .

٤٩ — عباس محمــود العقاد : ما يقــال عن الاســـلام — دار الهــلال — ١٩٧٠ .

٥٠ — عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية ، وتطور نظام الحكم فى مصر — الجزء الأول — الطبعة الرابعة — مكتبــة النهضة المصرية — ١٩٥٥ .

٥١ — العلامة عبد الرحمن بن خلدون : المقدمة ، من كتاب العبر ، وديوان المبتــدأ والخبر ، فى أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر — المطبعة الشرفية — ١٣٢٧ هـ .

٥٢ — عبد الرحمن عزام : الرسالة الخالدة — الطبعة الأولى — مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — ١٣٦٥ هـ — ١٩٤٦ م .

٥٣ — دكتور عبد العــــزيز صالح : الأسرة فى المجتمع المصرى القــديم — رقم (٤٤) من (المكتبة الثقافية) — وزارة الثقافة والارشاد القومى — الادارة العامة للثقافة — دار القلم بالقاهرة — أول سبتمبر ١٩٦١ .

٥٤ — دكتور عبد الغنى النورى ، ودكتــور عبد الغنى عبود : نحو فلسفة عربية للتربية — الطبعة الأولى — دار الفكر العربى — ١٩٧٦ .

٥٥ — دكتور عبد الغنى عبود : الاسلام والكون — الكتاب الثالث من سلسلة (الاسلام وتحديات العصر) — الطبعة الأولى — دار الفكر العربى — مايو ١٩٧٧ .

٥٦ — دكتور عبد الغنى عبود : الانسان فى الاسلام ، والانسان المعاصر — الكتاب الرابع من سلسلة (الاسلام وتحديات العصر) — الطبعة الأولى — دار الفكر العربى — فبراير ١٩٧٨ .

٥٧ — دكتور عبد الغنى عبود : « التربيـة ومحو الأمية الأيديولوجية » — **تعليم الجماهير** — مجلة متخصصة ، تصدر عن : الجهاز العربى لمحو الأمية وتعليم الكبار — السنة الثالثة — العدد السادس — مايو١٩٧٦ .

٥٨ — دكتور عبد الغنى عبـود : « التعليم مدى الحيـاة فى الاسلام » — المقولة الثانية من : **فى التربية المعـاصرة** — الجـزء الأول — الطبعـة الأولى — دار الفكر العربى — ١٩٧٧ .

٥٩ — دكتور عبدالغنى عبود : العقيدة الاسلامية والأيديولوجيات المعاصرة — الكتاب الأول من سلسلة (الاسـلام وتحـديات العصر) — الطبعة الأولى — دار الفكر العربى — مايو ١٩٧٦ .

٦٠ — دكتور عبد الغنى عبود : اليـوم الآخر والحياة المعاصرة — الكتـاب الخامس من سلسلة (الاسلام وتحديات العصر) — الطبعة الأولى — دار الفكر العربى — يونيه ١٩٧٨ .

٦١ — دكتور عبد الغنى عبود : دراسـة مقارنة لتاريخ التربيـة — الطبعة الأولى — دار الفكر العربى — ١٩٧٨ .

٦٢ — دكتور عبد الغنى عبود : قضية الحرية ، وقضايا أخـرى — الكتاب السابع من سلسلة (الاسلام وتحديات العصر) — الطبعة الأولى — دار الفكر العربى — يناير ١٩٧٩ .

٦٣ — الدكتور عبد الفتاح عبد الباقى : القانون والحياة — رقم (٢٨) من (المكتبة الثقافية) — وزارة الثقافة والارشاد القـومى — دار القلم بالقاهرة — أول يناير ١٩٦١ .

٦٤ — الدكتور عبد الله عبد الدائم : تاريخ التربية — من منشورات كليـة التربية بجامعة دمشق — مطبعة جامعة دمشق — ١٩٦٠ .

٦٥ — عبد المتعال الجبرى : لمـاذا اغتيـل الامام الشهيد حسن البنـا (حقائق جديدة ، ووثائق خطيرة) — الطبعة الثانية — دارالاعتصام — ١٣٩٨ هـ — ١٩٧٨ م .

٦٦ — عبد المتعال الصعيدى : لماذا أنا مسلم ؟ — مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز — ١٩٧٦ .

٦٧ — عبد المتعال محمد الجبرى : المرأة فى التصور الاسلامى — الطبعة الرابعة — مكتبة وهبة — رمضان ١٣٩٨ هـ — أغسطس ١٩٧٨ م .

٦٨ — الدكتور عبد المحسن صالح : دورات الحياة — رقم (٧٦) من (المكتبة الثقافية) — دار القلم بالقاهرة — أول يناير ١٩٦٣ .

٦٩ — د. على محمد جريشة ، ومحمد شريف الزيبق : اساليب الغزو الفكرى للعالم الاسلامى — الطبعة الأولى — دار الاعتصام بالقاهرة — ١٣٩٧ هـ — ١٩٧٧ م .

٧٠ — دكتور فؤاد البهى السيد : الأسس النفسية للنمو ، من الطفولة الى الشيخوخة — الطبعة الرابعة — دار الفكر العربى — ١٩٧٥ .

٧١ — فيليب هـ. فينيكس : التربية والصالح العام — ترجمة السيد محمد العزاوى والدكتور يوسف خليل — مراجعة محمد سليمان شعلان — تقديم السيد يوسف — الجمهورية العربية المتحدة — وزارة التربية والتعليم — بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر — القاهرة — نيويورك — يونيو سنة ١٩٦٥ .

٧٢ — قاموس النهضة ، فى اللغتين الانجليزية والعربية — وضعه : اسماعيل مظهر — راجعه محمد بدران وابراهيم زكى خورشيد — الطبعة الأولى — مكتبة النهضة المصرية (بدون تاريخ) .

٧٣ — قرآن كريم .

٧٤ — ك. م. بانيكار : آسيا والسيطرة الغربية — ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد — مراجعة أحمد خاكى — من الفكر السياسى والاشتراكى — الجمهورية العربية المتحدة — وزارة الثقافة والارشاد القومى — الادارة العامة للثقافة — دار المعارف بمصر — ١٩٦٢ .

٧٥ — ماركس وانجلس : بيان الحزب الشيوعى — دار التقدم — موسكو — ١٩٦٨ .

٧٦ — مجموعة رسائل العلامة المجاهد ، الشيخ محمد الحامد — الطبعة الأولى — مكتبة الدعوة بحماة — سورية — شوال ١٣٧٥ هـ .

٧٧ — محرم كمال : الحكم والأمثال والنصائح ، عند المصريين القدماء — رقم (٧١) من (المكتبة الثقافية) — وزارة الثقافة والارشاد القومى — المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر — دار القلم بالقاهرة — ١٥ أكتوبر ١٩٦٢ .

٧٨ — الامام محمد أبو زهرة : تنظيم الأسرة وتنظيم النسل — الطبعة الأولى — دار الفكر العربى — ١٣٩٦ هـ — ١٩٧٦ م .

٧٩ — محمد أسد : الاسلام على مفترق الطرق — من سلسلة (صوت الحق) — تصدرها الجماعة الاسلامية بجامعة القاهرة — دار الجهاد ودار الاعتصام (بدون تاريخ) .

٨٠ — الدكتور محمد البهى : الاسلام فى حياة المسلم — الطبعة الخامسة — مكتبة وهبة — رجب ١٣٩٧ هـ — يونية ١٩٧٧ م .

٨١ — الدكتور محمد البهى : الفكر الاسلامى الحديث ، وصلته بالاستعمار الغربى — الطبعة الثامنة — مكتبة وهبة — رمضان ١٣٩٥ هـ — سبتمبر ١٩٧٥ م .

٨٢ — محمد الصادق عرجون : الموسوعة فى سماحة الاسلام — المجلد الأول — مؤسسة سجل العرب — ١٣٩٢ هـ — ١٩٧٢ م .

٨٣ — محمد الهادى الحاج : « هل تتساوى المرأة بالرجل ؟ » — **العلم والايمان** — مجلة علمية شهرية ، تصدرها وزارة الاعلام والثقافة ، بالجمهورية العربية الليبية — ١٣٩٦/١ — ١٩٧٦/١ .

٨٤ — محمد جلال كشك : الغزو الفكرى — من سلسلة (مفاهيم اسلامية) — الطبعة الثانية — الدار القومية للطباعة والنشر بالقاهرة — مارس ١٩٦٦ .

٨٥ — الدكتور محمد عبد الله دراز : دستور الأخلاق فى القرآن ، دراسة مقارنة للأخلاق النظرية فى القرآن — تعريب وتعليق : دكتور عبد الصبور شاهين — مراجعة دكتور السيد محمد بدوى — مؤسسة الرسالة ودار البحوث العلمية — ١٩٧٤ .

٨٦ — الدكتور محمد عزيز الحبابى : الشخصانية الاسلامية — من (مكتبة الدراسات الفلسفية) — دار المعارف بمصر — ١٩٦٩ .

٨٧ — محمد عطية الابراشي : مكانة المرأة فى الاســلام — دار الشعب — ١٩٧١ .

٨٨ — محمد فاضــل الجمــالى : دعوة الى الاســلام (رسائل من والد فى السجن .. الى ولده) — الطبعة الأولى — منشورات دار الكتــاب اللبنانى للطباعة والنشر — بيروت — ١٩٦٣ .

٨٩ — محمد قطب : شبهات حول الاسلام — الطبعة العاشرة — دار الشروق — ١٣٩٧ هـ — ١٩٧٧ م .

٩٠ — فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى : القضاء والقدر ، معجزات الرسول ، اعجاز القرآن ، مكانة المرأة فى الاسلام — أعداد وتقــديم أحمد فراج — الطبعة الثانية — دار الشروق — سبتمبر ١٩٧٥ .

٩١ — محمد مظهر صديقى : ما هو الاسلام — رقم (٣) من سلسلة (نحــو وعى اسلامى) — المختار الاسلامى — ١٣٩٨ هـ — ١٩٧٨ م .

٩٢ — الامام الأكبر ، محمود شلتوت : الاســلام عقيدة وشريعة — الطبعة التاسعة — دار الشروق — ١٣٩٧ هـ — ١٩٧٧ م .

٩٣ — مختار الصحاح ، للشيخ الامام ، محمد بن أبى بكر بن عبد القــادر الرازى — شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى واولاده بمصر — ١٣٦٩ هـ — ١٩٥٠ م .

٩٤ — الدكتور مصطفى الرافعى : حضارة العرب ، فى العصور الاســلامية الزاهرة — الطبعة الثانية — دار الكتاب اللبنانى ، للطباعة والنشر — ١٩٦٨ .

٩٥ — مصطفى محمود : لغز الحياة — الطبعة الخامسة — دار العــودة — بيروت — ١٩٧٤ .

٩٦ — ميرزا محمد حسين : الاســلام وتوازن المجتمع — ترجمــة فتحى عثمان — رقم (٣٥) من (سلسلة الثقافة الاسلامية) — دار الثقافة العربية للطباعة — ذو القعدة ١٣٨١ هـ — مايو ١٩٦٢ م .

٩٧ — الدكتور وهيب ابراهيم ســمعان : الثقافة والتربية فى العصــور القديمــة — دراســة تاريخية مقارنة (دراسات فى التربيــة) — دار المعارف بمصر — ١٩٦١ .

٩٨ ـ الدكتور وهيب ابراهيم سمعان : دراسات فى التربيـة المقـارنة ـ الطبعة الأولى ـ مكتبة الأنجلو المصرية ـ ١٩٥٨ .

٩٩ ـ الدكتور يوسف القرضاوى : الخصائص العامة للاسلام ـ الطبعة الأولى ـ مكتبة وهبـة ـ رمضان ١٣٩٧ هـ ـ أغسطس ١٩٧٧ م .

١٠٠ ـ الدكتور يوسف مراد : مبادىء علم النفس العام ـ من (منشورات جماعة علم النفس التكاملى) ـ الطبعـة الرابعـة ـ دار المعـارف بمصر ـ ١٩٦٢ .

ثانيا : المراجع الأجنبية :

1 — ALI, ABDULLAH YUSUF : The Holy Qur - an, Text, Translatin, and Commentary, Volume Two; The Murray Prining Company, Camrbridge, Massachusetts, 1946.

2 — BENIANS, SYLVIA : From Renaissance to Revolution, A Study of the Influence of Political Development of Europe; Methuen and Co., Ltd., London, 1923.

3 — BUTTS, R. FREEMAN : A Cultural History of Western Education, Its Social and Intellectual Foundations; Second Edition, Mc Graw-Hill Company, New-York, 1955.

4 — FORSTER, LANCELOT : The New Culture in China, With an Introduction by : Sir MICHAEL E. SADLER; George Allen & Unwin Ltd., London, 1936.

5 — GOODSELL, WILLYSTINE : A History of the Familly, as a Social and Educational Institution; The Macmillan Company, New- York, 1923.

6 — HANS, NICHOLAS : Comparative Education, A Study of Educational Factors and Traditions; Routledge and Kegan Paul Limited, London, 1958.

7 — JAMES, ALOUZA : Commerce, Stage I, An Introductory Textbook on Business Economy; Ninth Edition, Sir Isaac Pitman & Sons, Ltd., London (Without Date).

8 — KROEBER, A. L. : Anthropology (Race, Language, Culture, Psychology, Prehistory) ; Revised Edition, Harcourt, Brace and Company, Inc., 1948.

9 — MUKHERJEE, L. : Comparative Education; Third Edition, Allied Publishers, India, 1975.

10 — READ, MARGARET : Education and Sociel Change in Tropical Areas; Thomas Nelson and Sons Ltd., Edinburgh, 1956.

11 — SAISSE, LOUIS et CHEHATA, ISKANDAR: Vocabulaire Francais - Arabe; Longmans, Green and Co. Ltd., London, 1951.

12 — SMITH, WILLIAM A. : Ancient Education, Philosophical Library, New- York, 1955 .

13 — The Concise Oxford Dictionary, of Current English, Edited by : H. W. FOWLER and F. G. FOWLER, based on : The Oxford Dictonary; Fourth Edition, Revised by : E. McIntosh, Oxford, at the Clarendon Press, 1951.

14 — WEST, MICHAEL PHILIP and ENDICOTT-JAMES GARETH : The New Method English Dictionary, Revised Edition, with Illustrations, Longmans, Green and Co., London, 1947.

للمؤلف

اولا : من كتب التربيـة

١ ـ **فى التربيـة المقـارنة** ـ عالم الكتب ـ ١٩٧٤ (مع الدكتـورة نازلى صـالح) .

٢ ـ **الأيديولوجيا والتربيـة ، مدخل لدراسة التربيـة المقـارنة** ـ دار الفكر العربى ـ الطبعة الأولى ١٩٧٦ ، والطبعة الثانية ١٩٧٨ .

٣ ـ **نحو فلسفة عربية للتربية** (مع الدكتور عبد الغنى النورى) ـ دار الفكر العربى ـ الطبعة الأولى ١٩٧٦ ، والطبعة الثانية ١٩٧٩ .

٤ ـ **فى التربية الاسلامية** ـ دار الفكر العربى ـ ١٩٧٧ .

٥ ـ **فى التربية المعاصرة** ـ دار الفكر العربى ـ ١٩٧٧ (مع الدكتور ابراهيم عصمت مطاوع) .

٦ ـ **دراسة مقارنة لتاريخ التربية** ـ دار الفكر العربى ـ ١٩٧٨ .

٧ ـ **ادارة التربية ، وتطبيقاتها المعـاصرة** ـ دار الفكر العـربى ـ ١٩٧٨ .

٨ ـ **البحث فى التربية** ـ دار الفكر العربى ـ ١٩٧٩ .

٩ ـ **التربية ومشكلات المجتمع المصرى** (تحت الطبع) .

ثانيا : من كتب سلسلة (الاسلام وتحديات العصر)
(وتصدرها : دار الفكر العربى)

١ - العقيدة الاسلامية والأيديولوجيات المعـاصرة - مايو ١٩٧٦ .

٢ - الله ، والانسان المعـاصر - فبراير ١٩٧٧ .

٣ - الاسـلام والكون - مايو ١٩٧٧ .

٤ - الانسان فى الاسلام ، والانسان المعاصر - فبراير ١٩٧٨ .

٥ - اليوم الآخر ، والحياة المعاصرة - يونية ١٩٧٨ .

٦ - انبياء الله والحياة المعاصرة - سبتمبر ١٩٧٨ .

٧ - قضية الحرية ، وقضايا اخرى - يناير ١٩٧٩ .

٨ - الأسرة المسلمة والأسرة المعاصرة - يونية ١٩٧٩ .

الكتاب التالى من السلسلة :

الملامح العامة للمجتمع الاسلامى

يصدر فى مطلع العام القادم باذن الله

رقم الايداع ١٩٧٩/٣٥٩٨

مطبعة الاستقلال الكبرى
٨ شارع نجيب الريحانى ـ ت ٧٤٤٠٧٦

فى هـذا الكتاب

وتبقى المرأة فى المسيحية ، كما كانت فى اليهودية ، شرا ، وان اختلف (أسلوب) التعامل مع هذا (الشر) ، فى المسيحية ، عنه فى اليهودية .

ثم يأتى الاسلام ، ليصحح مسار الفكر الدينى الذى اختل ، بتغييره النظرة الى الانسان كلـه ، رجلا كان أو امرأة ، عربيـا كان أو غير عربى ، أبيض كان أو أسود ــ وبتغييره النظرة الى المجتمع ، والعلاقات التى يجب أن تربط بين أفراده ، مؤمنين كانوا أو كفـارا أو كتابيين ... أو منافقين مذبذبين ــ وبتغييره النظـرة الانسانية الى الأشياء ــ كل الأشياء ، بمـا يتفق وهذه النظرة الربانية ، الى الانسان والكون والحياة وما بعد الحياة .

وتأتى مسألة الزواج فى الفكر الدينى الاسلامى ، فاذا بها أخطر المسائل والقضايا ، لأنها تتصل بالرجل المسلم ، وبالمرأة المسلمة ، وبالمجتمع المسلم ، ولأنها تتصل (بالمستقبل) الاسلامى ، اتصالها (بحاضر) الرجل والمرأة ، من خـلال (الانسان) الصغير ، الذى يتم (تشكيله) ، فى اطار هـذه الأسرة .

والرجل ــ فى الاسلام ــ كالمرأة ، من حيث التكريم والتشريف ، ومن حيث الوظائف المكلف بها كل منهما ، ومن حيث المسئوليات الملقاة عليه ، وكثيرا ما يأتى التكليف بالأعباء ، موجها اليهما معا .

الكتاب التـالى من السلسلة :

الملامح العـامة للمجتمع الاسـلامى

يصـدر فى مطلع العـام القادم باذن الله

مطبعة الاستقلال الكبرى

٨ شارع نجيب الريحانى ــ القـاهرة